

تفسير الفاسي
المسكت

مخازن التلاويح

تأليف علامه الشكام

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه وتصحيحه ، ورقه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(تادم الكتاب والسنة)

بمجددنا عبد الباقا

كَتَبَ أَنْزَلَنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٢٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي المسكبي

مَحَاسِنُ التَّائِقَاتِ

تَكَايُفُ عِلْمُ الشَّيْخِ

مُحَمَّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْفَاسِمِيُّ

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء السابع

وفيه تفسير سورة : الأعراف

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

مُحَمَّدُ زَيْدُ عَبْدِ الْوَهَّابِ

بِإِذْنِ الْإِسْلَامِيِّينَ
مِيسِي الْبَابِي الْبَلْبَنِي وَشُرَكَاءُ

IV-1
EX 1/2

5

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأومبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإني لأوصي جميع الناشئة

الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع

فهماً تراح إليه ضماؤها ، وتنعقد عليه

خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة

تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،

والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة

بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب

والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال

بين هدى السلف ، والارتقاء المدني

الذي يقتضيه الزمن »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧ - سورة الأعراف

أخرج أبو الشيخ ابن حبان عن قتادة ، قال : الأعراف مكية ، إلا آية (وَأَسْأَلُهُمْ
عَنِ الْقَرْيَةِ) وقال : من هنا إلى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ) مدني .
وآياتها مائتان وست آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْمَصَّ)

تقدّم الكلام في أول سورة البقرة ، على حروف فوائح السور ، والمذاهب فيها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

« كِتَبٌ » أى : هذا كتاب « أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ » أى : لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه ، مخافة أن يكذبوك ، أو أن تقصر في القيام بحقه . فإنه ﷺ كان يخاف قومه ، وتكذيبهم له ، وإعراضهم عنه ، وأذا هم . فكان يضيق صدره من الأداء ، ولا ينبسط له ، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم .

قال الناصر : ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى (فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ...) الآية (١) « لَتُنذِرَ بِهِ » أى : بالكتاب المنزل ، المشرّكين ليؤمنوا « وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » أى : عظة لهم . وتخصيص الذكري بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالمشرّكين . وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام .

(١) [١١ / هود / ١٢] ... إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَتَبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ،
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « أَتَبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » خطاب منه تعالى لكافة المكلفين بالأمر باتباع ما أنزل ، وهو القرآن ، والمراد بـ (مَا أُنزِلَ) : القرآن والسنة . وقوفاً مع عمومته ، لقوله سبحانه (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)^(١).

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : استدلل به بعضهم على أن المباح مأمور به ، لأنه من جملة ما أنزل الله ، وقد أمرنا باتباعه - انتهى - .

وأقول : هذا غلو في الاستنباط ، وتعمق بارد . ويرحم الله القائل : إذا اشتد البياض صار بَرَصاً .

« وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى لا تتبعوا أولياء غيره تعالى ، من الجن والإنس . فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع « قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ » أى ما تتعظون إلا قليلاً ، حيث لا تتأثرون ولا تعملون بموجبه ، وتتركون دينه تعالى ، وتنبعون غيره . ثم حذرهم تعالى بأسه ، إن لم يتبعوا المنزل إليهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فِجَاءً هَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

[٥] (فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

« وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » أى أردنا إهلاكها بسبب مخالفة المنزل إليهم « فِجَاءً هَا »

(١) [٥٣ / النجم / ٤٣] .

بَأْسُنَا» أى : فجاء أهلها عذابنا «بَيْتًا» أى : بائتين ، كقوم لوط . والبيتوتة : الدخول فى الليل ، أى ليلاً قبل أن يصبحوا «أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ» أى قاتلين نصف النهار، كقوم شعيب . والمعنى : فجاءها بأسنا غفلة، وهم غير متوقعين له . ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم قاتلون وقت الظهيرة . وكل ذلك وقت الغفلة . والمقصود أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم، من غير تقدم أمانة تدلهم على وقت نزول العذاب ؛ وفيه وعيد وتخويف للكفار . كأنه قيل لهم : لا تغفروا بأسباب الأمن والراحة ، فإن عذاب الله إذا نزل ، نزل دفعة واحدة . ونظير هذه الآية قوله تعالى (١) : (أَفَأَمَّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمَّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُجًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ) ؟ ثم تأثر تعالى عذابهم الدنيوى ببيان عذابهم الآخروى، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَلَمَنَسَلْنِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسَلْنِ الْمُرْسَلِينَ)

« فَلَمَنَسَلْنِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ » أى : المرسل إليهم وهم الأمم ، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم كما قال : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٢) « وَلَنَسَلْنِ الْمُرْسَلِينَ » أى : عما أجابوا به ، كما قال سبحانه : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ (٣) . والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)

« فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ » أى : على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم « بِعِلْمٍ » أى : عالين بأحوالهم الظاهرة والباطنة « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ » أى : عنهم وعما وجد منهم .

(١) [٧ / الأعراف / ٩٨ و ٩٧] . (٢) [٢٨ / القصص / ٦٥] .

(٣) [٥ / المائدة / ١٠٩] قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ » أى : وزن الأعمال والتميز بين راجحها وخفيفها ، يوم يسأل الله الأمم ورسلمهم ، العدل . « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » أى : حسنته في الميزان « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى : الناجون من السخط والعذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا

بِئَايَاتِنَا يَظْلِمُونَ)

« وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ » أى : حسنته في الميزان « فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » بالعقوبة « بِمَا كَانُوا بِئَايَاتِنَا يَظْلِمُونَ » أى : يكفرون .

تنبيهات

الأول : قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية ذكر الميزان ، ويجب الإيمان به . انتهى . وقال الإمام الغزالي في (المضنون) : تعلق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور . وبالموت ينكشف الغطاء ، كما قال تعالى ^(١) : فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ، ومما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده ، وهى مقادير تلك الآثار ، وإن بعضها أشد تأثيراً من البعض ، ولا يمتنع في قدرة الله تعالى أن يجرى سبباً يعرف الخلق في لحظة واحدة مقادير الأعمال ، بالإضافة إلى تأثيراتها في التقريب والإبعاد . فخذ الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان ، ومثاله في العالم المحسوس مختلف ، فنه الميزان المعروف ، ومنه القبان للأثقال ، والاصطرلاب لحركات النلك والأوقات ، والمسطرة للمقادير والخطوط ، والعروض لمقادير

(١) [٥٠ / ق / ٢٢] ونصها : لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ .

حركات الأصوات . فالميزان الحقيقي ، إذا مثله الله عز وجل للحواس ، مثله بما شاء من هذه الأمثلة أو غيرها . حقيقة الميزان وحده موجود في جميع ذلك ، وهو ما يعرف به الزيادة من النقصان . وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل ، وللخيال عند التمثيل ، والله تعالى أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات . والتصديقُ بجميع ذلك واجب . انتهى .

الثاني : الذي يوضع في الميزان يوم القيامة . قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً .

قال البغوي : يروى هذا عن ابن عباس ، كما جاء في (الصحيح)^(١) أَنَّ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَابَتَانِ ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ . ومن ذلك في (الصحيح)^(٢) قصة القرآن ، وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذي أسهرت ليلك ، وأظلماتُ نهارك . وفي حديث البراء^(٣)

(١) الحديث رواه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٥٢ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اقرءوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه . اقرءوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان . أو كأنهما فرقان من طير صواف . تحاجان عن أصحابهما . اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة . ولا يستطيعها البطالة . »

(٢) أخرجه ابن ماجه في : ٣٣ - كتاب الأدب ، ٥٢ - باب ثواب القرآن ، حديث ٣٧٨١ (طبعتنا) ونصه : عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ « يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب ، فيقول : أنا الذي أسهرت ليلك وأظلمات نهارك » .

(٣) هو حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٨٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

في قصة سؤال القبر : فيأتى المؤمن شابٌ حسن اللون ، طيب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الصالح . وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق .

فالأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية ، تبرز على هذا القول في النشأة الآخرة بصور جوهرية ، مناسبة لها في الحسن والقبح . فالذنوب والمعاصي تتجسم هناك ، وتتصور بصورة النار ، وعلى ذلك حمل قوله تعالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ^(١) ، وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا^(٢) . الآية - وكذا قوله ﷺ^(٣) في حق من يشرب من إنباء الذهب والفضة : إنما يجر جر في بطنه نار جهنم . ولا بعد في ذلك . ألا يرى أن العلم يظهر في عالم المثال على صورة اللبن .

وقيل : صحائف الأعمال هي التي توزن ، ويؤيده حديث البطاقة . فقد أخرج أحمد^(٤)

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٤] يَسْتَحْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ...

(٢) [٤ / النساء / ١٠] ... وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

(٣) أخرجه البخاري في : ٧٤ - كتاب الأشربة ، ٢٨ - باب أنية الفضة ، حديث

٢٢٣٣ ونصه :

عن أم سلمة ، زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال « الذي يشرب في إنباء الفضة إنما يجر جر في بطنه نار جهنم » .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢١٣ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٦٩٩٤ (طبعة المعارف) ونصه :

قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا . كل سجل مد البصر . ثم يقول له : أنتكر من هذا شيئا ؟ أَظْلَمْتَكَ كَتَبْتِي الحافظون ؟ قال : لا ، يارب . فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فَيُبْهَت الرجل . فيقول : لا ، يارب . فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة . =

والترمذى وصححه ، وابن ماجة والحاكم والبيهقى وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : يصاح برجل من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة . فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، فيقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا ، يارب ! فيقول : أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل ، فيقول : لا . يارب فيقول : بلى . إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم . فيُخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) فيقول : يارب ! ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم . فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة .

وقيل : يوزن صاحب العمل ، كما في الحديث ^(١) : يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ،

== لا ظلم اليوم عليك .

فتُخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله) فيقول : أحضروه فيقول : يارب ! ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تُظلم . قال فتوضع السجلات في كفة . قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقل شيء باسم الله الرحمن الرحيم .

وأخرجه الترمذى في : ٣٨ - كتاب الإيمان ، ١٧ - باب ماجاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، حدثنا سويد بن نصر .

وأخرجه ابن ماجة في : ٣٧ - كتاب الزهد ، ٣٥ - باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ، حديث ٤٣٠٠ (طبعتنا) .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٨ سورة الكهف ، ٧ - باب أولاميك الذين كفروا بآيت ربهم ولقائه ، حديث رقم ٢٠٢٣ ونصه :

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إنه ليأتى الرجل العظيم ==

فلا يزن عند الله جناح بعوضة . ثم قرأ (فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا)^(١) .
 وفي مناقب عبد الله^(٢) بن مسعود ؛ أن النبي ﷺ قال : أتعجبون من دقة ساقيه ؟
 والذي نفسى بيده ! لهما في الميزان أثقل من أحد .
 قال الحافظ ابن كثير : وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار ، بأن يكون ذلك كله صحيحاً .
 فتارة توزن الأعمال ، وتارة يوزن محلها ، وتارة يوزن فاعلها . والله أعلم - انتهى - .
 قال أبو السعود : وقيل : الوزن عبارة عن القضاء السوى ، والحكم العادل . وبه قال
 مجاهد والأعمش والضحاك ، واختاره كثير من المتأخرين ، بناء على أن استعمال لفظ الوزن
 في هذا المعنى شائع في اللغة والعرف بطريق الكناية . قالوا : إن الميزان إنما يراد به التوصل
 إلى معرفة مقادير الشيء . ومقادير أعمال العباد لا يمكن إظهارها بذلك ، لأنها أعراض
 قد فُتيت . وعلى تقدير بقاءها ، لا تقبل الوزن - انتهى - وأصله للرازي .
 قال في (العناية) : فمنهم من أول الوزن بأنه بمعنى القضاء والحكم العدل ، أو مقابلتها بجزائها .

= السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة .

وقال : اقرءوا : فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ١٨ (طبعنا) .
 (١) [١٨ / الكهف / ١٠٥] أَوْلَايَكِ الَّذِينَ كَفَرُوا بَأَيِّتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
 فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ...

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)
 والحديث رقم ٣٩٩١ (طبعة المعارف) ونصه :

عن زر بن حبيش عن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكاً من الأراك . وكان دقيق
 الساقين . فجعلت الريح تكفه ، فضحك القوم منه . فقال رسول الله ﷺ «ممتضحكون» ؟
 قالوا : يابني الله ، من دقة ساقيه . فقال «والذي نفسى بيده ! لهما أثقل في الميزان من أحد» .

من قولهم : وزنه ، إذا عادله . وهو إما كناية أو استعارة . بتشبيه ذلك بالوزن المتصف بالخفة والثقّل ، بمعنى الكثرة والقلة . والمشهور من مذهب أهل السنة أنه حقيقة بمعناه المعروف . انتهى .

فإن جمهور الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل .

قال في (فتح البيان) : وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه . بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس في ذلك حجة لأحد . فهذا إذا لم تقبله عقولهم ، فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم : من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاءت البدع كالليل المظلم ، وقال كلٌّ ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم . وليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها . بل كل فريق يدعى على العقل ما يطابق هواه ، ويوافق ما يذهب إليه هو ومن تابعه ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم . يعرف هذا كل منصف . ومن أنكره فليصف فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتذهب ، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه . وقد ورد ذكر الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً^(١) . وقوله : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ^(٢) . وقوله : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ^(٣) . وقوله : وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ^(٤) .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] ... وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٢ و ١٠٣] .

(٣) [٤ / النساء / ٤٠] ... وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٤) [١٠١ / القارعة / ٨ و ٩] .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً مذكورة في كتب السنة المطهرة . وما في الكتاب والسنة يغني عن غيرها . فلا يلتفت إلى تأويل أحد أو تحريفه ، مع قوله تعالى وقول رسوله الصادق المصدوق ، والصباح يغني عن المصباح - انتهى - .
وخلاصته ؛ أن الأصل في الإطلاق الحقيقة ، ولا يعدل عنها إلى المجاز إلا إذا تمذرت ، ولا تعذر ههنا .

الثالث : إن قلت : أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد ؟ فما الحكمة في وزنها ؟ قلت : فيه حكم :

منها - إظهار العدل ، وإن الله عز وجل لا يظلم عباده .

ومنها - امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى .

ومنها - تعريف العباد ما لهم من خير وشر وحسنة وسيئة .

ومنها - إظهار علامة السعادة والشقاوة .

ونظيره ؛ أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ثم في صحائف الحفظ الموكلين ببني آدم ، من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى . كذا في (الباب) .

وقال أبو السعود : إن قيل : إن المكلف يوم القيامة إما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور ، فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الأعمال وكمياتها . وإما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الأعمال على بعض لخصوصيات راجعة إلى ذوات تلك الأعمال ، بل يسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه ، فما الفائدة في الوزن ؟

أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ ، وتظهر جميع الأشياء بمحاثتها على ما هي عليه ، وبأوصافها وأحوالها في أنفسها من الحسن والقبح ، وغير ذلك . وتنخلع عن الصور المستعارة التي بها ظهرت في الدنيا ، فلا يبقى لأحد من يشاهدها شبهة في أنها هي التي كانت في الدنيا بعينها ، وأن كل واحد منها قد ظهر في هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ، ولا يخطر بباله خلاف ذلك - انتهى - .

وقد سبقه إلى نحوه الرازي .

ولما أمر تعالى أهل مكة باتباع ما أنزل إليهم ، ونهاهم عن اتباع غيره ، وبين لهم وخامة عاقبته بالإهلاك في الدنيا ، والعذاب في الآخرة - ذكرهم فنون نعمه ترغيباً في اتباع أمره ونهيه ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً . أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها « وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ » جمع معيشة ، وهى ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها . أو ما يتوصل به إلى ذلك من المتاجر والمزارع والصنائع « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » الكلام فيه كالذى في قوله (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) وقد مرّ قريباً . والتذليل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم ، أى ما مننا عليكم بذلك إلا لتشكروا بمتابعة ما أنزلنا إليكم ، وترك متابعة من دوننا ، فتحصلوا معاش السعادات الأبدية . ثم بين تعالى نعمته على آدم التى سرت إلى بنيه ، وبين لهم عدواة إبليس وما انطوى عليه من الحسد لأبيهم ، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ » هذا كقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ

إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ^(١) وفي تصدير هذه الآية بالقسم وحرف التحقيق ، كالتي قبلها ، إعلام بكال العناية بمضمونها .

قال أبو السعود : وإنما نسب الخلق والتصوير إلى مخاطبين ، مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتما ، توفية لمقام الامتنان حقه ، وتأكيذا لوجوب الشكر عليهم ، بالرمز إلى أن لهم حظاً من خلقه عليه السلام وتصويره ، لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه ، بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعاً ، إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه على نمطه ، ومصنوع على شاكلته ، فكأنهم الذي تعلق به خلقه وتصويره . أى : خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ، ثم صورناه أبدع تصوير ، وأحسن تقويم ، سار إليكم جميعاً - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)

« قَالَ » سبحانه وتعالى « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » أى أن تسجد كما وقع في سورة (ص) . و (لا) مزيدة للتنبيه على أن الموصح عليه ترك السجود . ولتوكيد لمعنى الفعل الذى دخلت عليه وتحقيقه ، كما في قوله تعالى^(٢) : (لَّئِلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ) كأنه قيل : ليتحقق علم أهل الكتاب ، وما منعه أن تحقق السجود وتلزمه نفسك . وتوقف بعض المحققين في وجه إفادة (لا) النافية تأكيد ثبوت الفعل مع إيهام نفيه ، واستظهر الشهاب أنها لا تؤكد مطلقاً ، بل إذا صحت نفيّاً مقدماً أو مؤخراً صريحاً أو غير صريح ،

(١) [١٥ / الحجر / ٢٨ و ٢٩] .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ... أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

كما في (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) وكما هنا ، فإنها تؤكد تعلق النع به - انتهى - .

وقيل : (مامنك) محمول على (ماحلك ومادعاك) مجازاً أو تضميناً . وقال الراغب : المنع ضد العطية ، وقد يقال في الحماية . والمعنى ماحاك عن عدم السجود . ولا يخفى أن السؤال عن المانع من السجود ، مع علمه به ، للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وتحقيره أصل آدم عليه السلام . كما أوضحه قوله تعالى : « قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » قال ابن كثير . هذا من العذر الذي هو أكبر من الذنب - انتهى - . وإنما قال هذا ، ولم يقل (منعني كذا) مطابقة للسؤال . لأن في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ، ما يدل على المانع ، وهو اعتقاده أنه أفضل منه ، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول ، مع مافي طيها من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله . فالجملة متضمنة للجواب بقياس استدلالى ، وهى من الأسلوب الأحق كما في قصة نمرود . وقد علل ماداعاه من الخيرية والفضل بزعمه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين ، لأنها جوهر نورانى ، وهو ظلماتى . ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل ، كما أنبأ عنه قوله تعالى (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ)^(١) أى : بغير واسطة ، وباعتبار الصورة . كما نبه عليه بقوله (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)^(٢) وباعتبار الغاية وهو ملاك الأمر ، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لما بين لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه

(١) [٣٨ / ص ٧٥] ونصها : قَالَ يٰٓإِبْرٰهِيْمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ

بِيَدَيَّ ، اُسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْغٰلِيْنَ .

(٢) [١٥ / الحجر / ٢٩] ونصها : فَاِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوحِيْ فَقَعُوْا لَهُ

سٰجِدِيْنَ .

و [٣٨ / ص ٧٢] .

أمر الخلافة في الأرض ، وأن له خواصّ ليست لغيره . وبالجملّة فالشيء كما يشرف بمادته ، يشرف بفاعله وغايته وصورته ، والثلاثة في آدم عليه السلام دونه ، فاستبان غلظه .
وفي (الباب) أن عدو الله إبليس جهل وجه الحق ، وأخطأ طريق الصواب ، لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب ، وهذا الذي حمّله ، مع سابقة شقائه ، على الاستكبار عن السجود لآدم عليه السلام ، والاستخفاف بأمر ربه ، فأورده ذلك العطب والهلاك . ومن جوهر الطين الرزاة والأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت ، وهذا كان الداعي لآدم عليه السلام ، مع سابقة سعادته ، إلى التوبة من خطيئته ، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت ^(١) : قال رسول الله ﷺ : خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجانّ من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم . رواه مسلم .

تنبيه :

روى ابن جرير ^(٢) بإسناد صحيح عن الحسن في قوله تعالى (خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) قال : قاس إبليس وهو أول من قاس . وأخرج ^(٣) أيضا بإسناد صحيح عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . ولذا احتج بهذه الآية من ذهب إلى عدم جواز تخصيص النص بالمقياس ، وإلا لما استوجب إبليس هذا الدم الشديد .

قال الرازي : بيان الملازمة أن قوله تعالى للملائكة (أَسْجُدُوا لِآدَمَ) خطاب عام يتناول جميع الملائكة ، ثم إن إبليس أخرج نفسه من هذا العموم بالمقياس ، وهو أنه مخلوق

(١) أخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٠ (طبعنا) .

(٢) الأثر رقم ١٤٣٥٦ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٤٣٥٥ من التفسير .

من النار ، والنار أشرف من الطين ، ومن كان أصله أشرف فهو أشرف ، والأشرف لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدنى، والدليل عليه أن هذا الحكم ثابت في جميع النظائر، ولا معنى للقياس إلا ذلك . وقد ثبت أن إبليس لما خصص العموم بهذا القياس استحق النعم ، وما ذاك إلا لعدم جوازِهِ . وأيضاً في الآية دلالة على ذلك من وجه آخر : وذلك لأن إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى : (فَأَهْطِ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا) فوصفه تعالى بكونه متكبراً ، بعد أن حكى عنه ذلك القياس الذي يوجب تخصيص النص وهذا يقتضي أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبر على الله . ودلت هذه الآية على أن التكبر عليه تعالى يوجب العقاب الشديد، والإخراج من زمرة الأولياء . ثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز ، وهذا هو المراد مما نقله الواحدى في (البسيط) عن ابن عباس أنه قال : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس ، فعصى ربه وقاس ، وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه ، فمن قاس الدين بشيء من رأيه ، قرنه الله مع إبليس - هذا ما نقله الواحدى في (البسيط) عن ابن عباس ، وأفاده الرازى .

وقد روى عن السلف آثار كثيرة في ذم القياس ، منها ما تقدم عن الحسن وابن سيرين وابن عباس . وعن مسروق قال : لا أقيس شيئاً بشيء ، فتزلّ قدى بعد ثبوتها . وعن الشعبي : إياكم والقياس ، وإنسكم إن أخذتم به أحلّتم الحرام ، وحرّمتم الحلال ، ولأنّ أنغى غنية ، أحب إلىّ من أن أقول في شيء رأيي . وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر رحمه الله من هذا المعنى آثاراً وافرة في (جامع بيان العلم وفضله) وقال : احتج من نقي القياس بهذه الآثار ومثلها . وقالوا في حديث معاذ : إن معناه أن يجتهد رأيه على الكتاب والسنة . وتسكلم داود في إسناد حديث معاذ وردّه ودفعه من أجل أنه عن أصحاب معاذ ، ولم يُسمّوا . قال الحافظ ابن عبد البر : وحديث معاذ صحيح مشهور ، رواه الأئمة العبدول ، وهو أصل في الاجتهاد والقياس على الأصول . ثم قال : وسائر الفقهاء وقالوا في هذه الآثار وما كان مثلاً

في ذم القياس : إنه القياس على غير أصل ، أو القياس الذي يردّ به أصل ، والقول في دين الله بالظن . ألا ترى إلى قول من قال منهم : أول من قاس إبليس ؟ لأن إبليس ردّ أصل العلم بالرأى الفاسد ، والقياس لا يجوز عند أحد ممن قال به إلا في رد الفروع إلى أصولها ، لا في رد الأصول بالرأى والظن . وإذا صحّ النص من الكتاب والأثر ، بطل القياس (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَأَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ...) الآية (١) - وأي أصل أقوى من أمر الله تعالى لإبليس بالسجود ، وهو العالم بما خلق منه آدم ، وما خلق منه إبليس ، ثم أمره بالسجود له فأبى واستكبر لعله ليست بمافعة من أن يأمره الله بما يشاء ، فهذا ومثله لا يحل ولا يجوز . وأما القياس على الأصول ، والحكم للشيء بحكم نظيره ، فهذا ما لا يختلف فيه أحد من السلف ، بل كل من روى عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصاً . لا يدفع هذا إلا جاهل أو متجاهل ، مخالف للسلف في الأحكام . وقال مسروق الوراق :

كُتِبَ مِنَ الدِّينِ قَبْلَ الْيَوْمِ فِي سَعَةٍ حَتَّى ابْتُلِينَا بِأَحْبَابِ الْقَيَاسِ
قَامُوا مِنَ السُّوقِ إِذْ قُلْتُ مَكَاسِبَهُمْ فَاسْتَعْمَلُوا الرَّأْيَ عِنْدَ الْفَقْرِ وَالْبُؤْسِ
أَمَّا الْعَرَبُ فَبَقِيَتْ لَهَا عِطَاءُ لَهُمْ وَفِي الْمَوَالِي عِلَامَاتُ الْمَفَالِيسِ
فَلَقِيَهُ أَبُو حَنِيفَةَ فَقَالَ : هَجَوْنَا . نَحْنُ نَرْضِيكَ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِدِرَاهِمٍ فَقَالَ :

إِذَا مَا أَهْلُ مِصْرٍ بَادَهُونَا بِأَبْدَةٍ مِنَ الْفُتْيَا لَطِيفَةٍ
أَتَيْنَاهُمْ بِمُقْيَاسٍ صَحِيحٍ صَلِيبٍ مِنْ طَرَاذِ أَبِي حَنِيفَةَ
إِذَا سَمِعَ الْفَقِيهَ بِهِ وَعَاةُ وَأُثْبِتَهُ بِحَبْرٍ فِي حَنِيفَةٍ

قال ابن عبد البر : اتصلت هذه الأبيات ببعض أهل الحديث والنظر من أهل ذلك

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] ... مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا .

الزمن ، فقال :

إذا ذو الرأي خَاصَمَ عن قياسٍ وجاء ببسطة منه سخيقة
أُتيناهم بقولِ الله فيها وآثارٍ مبرزة شريفة

هكذا حكاه ابن عبد البر في (جامع فضل العلم) . وله فيه في (باب ما جاء في ذم القول في دين الله بالرأى والقياس على غير أصل) مقالات سابعة جديرة بالمراجعة .

ومما ذكر فيه : أن أهل الحديث أفرطوا في أبي حنيفة ، وتجاوزوا الحد . قال : والسبب الموجب لذلك ، عندهم ، إدخاله الرأي والقياس على الآثار ، واعتبارها . وأكثر أهل العلم يقولون : إذا صح الأثر بطل النظر . وكان ردّه لما ردّ من أخبار الآحاد بتأويل محتمل ، وكثير منه قد تقدمه إليه غيره ، وتابعه عليه مثله ممن قال بالرأى : وجُلُّ ما يوجد له من ذلك ما كان منه اتباعاً لأهل بلده ، كإبراهيم النخعي وأصحاب ابن مسعود . إلا أنه أغرق هو وأصحابه في تنزيل النوازل ، والجواب فيها برأيهم واستحسانهم . فأتى منهم في ذلك خلافٌ كبير للسلف . ثم قال : وما أعلم أحداً من أهل العلم إلا وله تأويل في آية ، أو مذهب في سنة ، ردّ من أجل ذلك المذهب سنةً أخرى بتأويل سائغ ، أو ادعاء نسخ . إلا أن لأبي حنيفة من ذلك كثيراً ، وهو يوجد لغيره قليل . وعن الليث بن سعد أنه قال : أحصيت على مالك ابن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبي ﷺ ، مما قال مالك فيها برأيه . قال : ولقد كتبت إليه أعظه في ذلك . هذا كلام ابن عبد البر ملخصاً .

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض فتاويه : أنه روى عن عليّ وزيد أنهما احتجا بقياس ، فن ادعى إجماعهم - أي الصحابة - على ترك العمل بالرأى والقياس ، مطلقاً فقد غلط ، ومن ادعى أن من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأى والقياس ، فقد غلط ، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم ، فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها ، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها - انتهى - .

وقال ابن تيمية رحمه الله في فتوى أخرى : والصحابة كانوا يحتجون في عامة مسائلهم بالنصوص كما هو مشهور عنهم ، وكانوا يجتهدون رأيهم ويتكلمون بالرأى ، ويحتجون بالقياس الصحيح أيضاً . والقياس الصحيح نوعان :

أحدهما : أن يعلم أنه لا فارق بين الفرع والأصل إلا فرقاً غير مؤثر في الشرع ، كما ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح^(١) أنه سئل عن فأرة وقعت في سمن ، فقال : ألقوها وما حولها ، وكلوا سمنكم . وقد أجمع المسلمون على أن هذا الحكم ليس مختصاً بتلك الفأرة وذلك السمن ، فلهذا قال جماهير العلماء : إنه أى نجاسة وقعت في دهن من الأدهان كالفأرة التي تقع في الزيت ، وكالهر الذي يقع في السمن ، فحكمها حكم تلك الفأرة التي وقعت في السمن . ومن قال من أهل الظاهر : إن هذا الحكم لا يكون إلا في فأرة وقعت في سمن ، فقد أخطأ ، فإن النبي ﷺ لم يخص الحكم بتلك الصورة ، لكن لما استفتى عنها أفتى فيها ، والاستفتاء إذا وقع عن قضية معينة أو عن نوع ، فأجاب المفتي عن ذلك ، خصه لكونه سئل عنه ، لا لاختصاصه بالحكم . ومثل هذا أنه سئل عن رجل^(٢) أحرم بالعمرة وعليه جبة مضمخة

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٣٤ - باب إذا وقعت الفأرة في السمن الجامد أو الذائب ، حديث ١٧٥ ونصه :

عن ابن عباس عن ميمونة رضى الله عنهم قالت : سئل رسول الله ﷺ عن فأرة سقطت في سمن ؟ فقال « ألقوها وما حولها ، وكلوه » .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٢ - باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب ، حديث ٨١٥ ونصه :

عن صفوان بن يعلى بن أمية ؛ أن يعلى كان يقول : ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي ! فلما كان النبي ﷺ بالجمرة ، وعليه ثوب قد أظلم عليه ، ومعه ناس من أصحابه ، إذ جاءه رجل متضمخ بطيب . فقال : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحرم =

بخلوق فقال: انزع عنك الجبة الخلق، واصنع في عمرتك ما كنت تصنع في حجبك. فأجابه عن الجبة ، ولو كان عليه قميص أو نحوه ، كان الحكم كذلك بالإجماع .

والنوع الثاني من القياس : أن ينص على حكم لمعنى من المعانى ، ويكون ذلك المعنى موجوداً في غيره ، فإذا قام دليل من الأدلة على أن الحكم متعلق بالمعنى المشترك بين الأصل والفرع سوى بينهما ، وكان هذا قياساً صحيحاً . فهذان النوعان كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، يستعملونهما ، وهما من باب فهم مراد الشارع . فإن الاستدلال بكلام الشارع يتوقف على أن يعرف ثبوت اللفظ عنه ، وعلى أن يعرف مراده باللفظ . وإذا عرفنا مراده ، فإن علمنا أنه حكم للمعنى المشترك ، لا لمعنى يخص الأصل ، أثبتنا الحكم حيث وجد المعنى المشترك . وإن علمنا أنه قصد تخصيص الحكم بمورد النص ، منعنا القياس . كما أننا علمنا أن الحج خص به الكعبة ، وأن الصيام الفرض خص به شهر رمضان ، وأن الاستقبال خص به جهة الكعبة ، وأن المفروض من الصلوات خص به الخس ، ونحو ذلك ، فإنه يمتنع هنا أن نقيس على المنصوص غيره . وإذا عين الشارع مكاناً أو زماناً للعبادة ، كتمعين الكعبة وشهر رمضان ، أو عين بعض الأقوال والأفعال ، كتمعين القراءة في الصلاة ، والركوع والسجود ، بل وتمعين التكبير وأم القرآن ، فالحاق غير المنصوص به يشبه حال أهل اليمن الذين أسقطوا تمعين الأشهر الحرم ، وقالوا : المقصود أربعة أشهر من السنة ، فقال تعالى : **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ**

= في جبة بعد ما تضح بطيب ؟ فنظر النبي ﷺ ساعة . فجاءه الوحي . فأشار عمر إلى يعلى أن : **تَعَالَ** . فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا هو محمرّ الوجه يغطّ كذلك ساعة . ثم سرّى عنه فقال « أين الذي يسألني عن العمرة آنفا » ؟ فالتمس الرجل فجىء به إلى النبي ﷺ . فقال « أما الطيب الذي بك فاعسله ثلاث مرات . وأما الجبة فانزعها ، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجبك » .

الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ^(١). وقياس الحلال بالنص على الحرام بالنص، من جنس قياس الذين قالوا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا^(٢). وكذلك قياس^(٣) المشركين الذين قاسوا الميتة بالمذكي وقالوا أَنَا كُلُونَ ما قَتَلْتُمْ وَلَا أَنَا كُلُونَ ما قَتَلَ اللَّهُ؟ قال تعالى: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجِدُوا كُفْرَكُمْ وَإِنَّ أَوَّلَ الْيَوْمِ لَكُنْتُمْ أَكْثَرُونَ^(٤). فهذه الأقيسة الفاسدة، وكل قياس دل النص على فسادة فهو فاسد، وكل من ألحق منصوصاً بمنصوص يخالف حكمه، فقياسه فاسد. وكل من سوى بين شيئين أو فرق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله فقياسه فاسد. لكن من القياس ما يعلم صحته، ومنه ما يعلم فسادة، ومنه ما لم يتبين أمره. فمن أبطل القياس مطلقاً فقلوه باطل. ومن استدلل بالقياس المخالف للشرع فقلوه باطل.

(١) [٩ / التوبة / ٣٧] ... زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْكَاذِبِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٥] ونصها : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا

يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٣) أخرجه النسائي في : ٤٣ - كتاب الضحايا ، ٤٠ - باب تأويل قول الله عز وجل :

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، ونصه :

عن ابن عباس في قوله عز وجل : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، قال :

خاصمهم المشركون فقالوا : ما ذبح الله فلا تأكلوه . وما ذبحتم أنتم أكلتموه .

(٤) [٦ / الأنعام / ١٢١] ونصها : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ

وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ...

ومن استدلل بقياس لم يقيم الدليل على صحته ، فقد استدلل بما لا يعلم صحته ، بمنزلة من استدلل برواية رجل مجهول لا يعلم عدالته . فالحجج الأثرية والنظرية تنقسم إلى ما يعلم صحته ، وإلى ما يعلم فساده ، وإلى ما هو موقوف حتى يقوم الدليل على أحدها . ولفظ النص يراد به تارة ألفاظ الكتاب والسنة ، سواء كان اللفظ دلالة قطعية أو ظاهرة ، وهذا هو المراد من قول من قال : النصوص تتناول أفعال المكلفين . ويراد بالنص مادلالته قطعية لا تحتمل النقيض ، كقوله : تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ^(١) . وَ: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ^(٢) ، فالكتاب هو النص ، والميزان هو العدل ، والقياس الصحيح من باب العدل ، فإنه تسوية بين المتماثلين ، وتفريق بين المختلفين . ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص ، فكل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد . ولا يوجد نص يخالف قياساً صحيحاً ، كما لا يوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح ، ومن كان متبحراً في الأدلة الشرعية ، أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام

(١) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا بِرُءُوسِكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ وَ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ وَ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ١٧] ونصها : اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ .

و [٥٧ / الحديد / ٢٥] ونصها : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ وَ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

بالنصوص وبالأقيسة، فثبت أن كل واحد من النص والقياس دل على هذا الحكم كما ذكرناه من الأمثلة ، فإن القياس يدل على تحريم كل مسكر ، كما يدل النص على ذلك ، فإن الله حرم الخمر لأنها توقع بيننا العداوة والبغضاء ، وتصدنا عن ذكر الله وعن الصلاة ، كما دل القرآن على هذا المعنى . وهذا المعنى موجود في جميع الأثرية المسكرة ، لافرق في ذلك بين شراب وشراب ، فالفرق بين الأنواع المشتركة من هذا الجنس تفريق بين التماثلين ، وخروج عن موجب القياس الصحيح ، كما هو خروج عن موجب النصوص . وهم معترفون بأن قولهم خلاف القياس ، لكن يقولون : معنا آثار توافق ، اتبعناها ؛ ويقولون : إن اسم الخمر لم يتناول كل مسكر . وغلطوا في فهم النص ، وإن كانوا مجتهدين مثابين على اجتهدهم . ومعرفة عموم الأسماء الموجودة في النص وخصوصها ، من معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، وقد قال تعالى ^(١) : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ . والكلام في ترجيح نفاة القياس ومثبتيه يطول استقصاؤه ولا يحتمل المقام بسطه أكثر من هذا - والله أعلم - انتهى كلامه رحمه الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

« قَالَ » تعالى لإبليس « فَاهْبِطْ مِنْهَا » أى : بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتي . وأكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الجنة ، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها . قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزل التي هو فيها من الملكوت الأعلى - انتهى - وعليه اقتصر المهايى حيث قال : فاهبط منها أى : من رتبة الملكية إلى رتبة العناصر . « فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا » أى : فما يصح ولا يستقيم ، فإنها

(١) [٩ / التوبة / ٩٧] ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

مكان الطيعين الخاشعين « فَأَخْرُجْ » تأكيد للأمر بالهبوط ، متفرّع على علته « إِنَّكَ مِنْ الصّٰغِرِينَ » أى : من الأذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ)

« قَالَ أَنْظِرْنِي » أى : أمهلنى ولا تُمتتنى « إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ » أى : آدم وذريته من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ)

« قَالَ » أى : الله له « إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ » أى من المؤجلين إلى نفخة الصور الثانية . قال ابن كثير : أجابه تعالى إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمنع . ولا معقب لحكمه .

وقال الإمام أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمى اليمانيّ فى تفسيره (التهذيب)^(١) :

قال الأستاذ السيد ظافر القاسمى ، حفظه الله ، وَلَدَ الْمُؤَلَّفَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وجد على غلاف الجزء السابع من هذا الكتاب بخط المؤلف رحمه الله ما نصه :

وقفت على الجزء الرابع من تفسيرِ اشْتُرِيَ مِنَ الْيَمَنِ ، يسمى « التهذيب » من الأعراف

إلى براءة ، كتب عليه ما مثاله :

« تصنيف الشيخ الإمام أبى سعد المحسن بن كرامة الجشمى رحمه الله عليه »

وترتيبه ، بعد أن يسوق آية أو آيتين أو ثلاثاً ، أن يقول :

١ - القراءة - ثم يذكر وجوه القراءات .

٢ - اللغة - ثم يذكر مفردات الآية ومعانيها اللغوية واشتقاقها .

ومتى قيل : ما وجه سؤاله مع أنه مطرود وملعون ؟ فجوابنا علمه بإحسانه تعالى إلى خلقه من أطاع ومن عصى ، فلم يمنع من السؤال ما ارتكب من المعصية . ومتى قيل : هل خاطبه بهذا ؟ قلنا : يحتمل ذلك ، ويحتمل أنه أمر ملكاً بخاطبه به . ومتى قيل : هل يجوز إجابة دعاء الكافر ؟ قلنا : فيه خلاف .

الأول : قيل لا ، لأنه إكرام وتعظيم - عن أبي عليّ - ولذلك يقال : فلان مستجاب الدعوة ، وإنظاره لا على سبيل إجابة دعائه ، لأنه ملعون ولأنه لم يسأل على وجه الخضوع .

= ٣ - الإعراب .

٤ - النظم .

٥ - المعنى .

٦ - الأحكام - يذكر فيها دلالة الآي على كذا وكذا الخ .

٧ - القصة - إن كانت حوت ذلك .

وهو ترتيب جميل .

انتهى ما كتبه المؤلف رحمه الله .

وقد سألت الأستاذ الشيخ حامد التقيّ ، من علماء دمشق ، وقد سبق له أن لازم المؤلف رحمه الله قرابة عشرين عاماً ، عن الكتاب ومؤلفه الجشمي فأجابني :

كان المرحوم غالب النائي رفيقاً للإمام القاسمي في طلب العلم ، وتجمعهما قرابة رحمية ، وقد كان موظفاً أيام الدولة العثمانية ، فنقل إلى اليمن ، وعاش فيها حول عشر سنوات ، عاد بعدها ، ومعه بعض الكتب المخطوطة ، وقد اطلع عليها المؤلف ، فوجد من بينها هذا الجزء من « التهذيب » وحده ، فاقتبس منه ما استحسّن اقتباسه . وقد توفي المرحوم غالب النائي عام ١٩٤٨ ، وبيعت مكتبته إلى أحد تجار الكتب ، ولم نعد نعرف شيئاً عن هذا الكتاب .
= انتهى كلام الأستاذ التقيّ .

الثاني : يجوز إجابة دعائه استصلاحاً له ، لأنه تفضّل - عن أبي بكر أحمد بن عليّ - وليس بالوجه . ومتى قيل : إذا أنظر هل يكون إغراء بالمعصية ؟ قلنا : لا ، لأنه لم يعلم ما الوقت = ثم تجيء بعد هذا ترجمة الجشميّ وها هي :

بسم الله الرحمن الرحيم

وأما ترجمة الإمام أبي سعد المحسن بن كرامة الجشميّ ، فبعد البحث عثرت على ترجمة مختصرة له في كتاب (تاريخ بهيق) المطبوع باللغة الفارسية طبع إيران وسترها في الصفحة المقابلة فسلموها لظافر بك القاسميّ مع إبلاغه السلام .

ولمك تفحص عن كتاب (التهذيب) في المكتبة الظاهرية إذا كان لا يوجد في مكتبة ظافر بك ، فإنه على الظاهر تفسير حسن وصاحبه ينتمى إلى عليّ رضي الله عنه .
« ترجمة الحاكم الإمام أبي سعد المحسن بن محمد بن كرامة البهقيّ »

تولد ونشأ في قصبة جشم - في إيران قريبة من بهيق ، وبهيق اسمها الآن سُبزوَار ، وهي إلى سبزوَار بالقرب من نيسابور في لواء خراسان - وله تصانيف في الأصول والفقه كثيرة . مثل عيون المسائل وشرح العيون وغيرها . مثل تحكيم العقول . وله تفسير لطيف يقع في عشرين مجلدًا - ولم يذكر المترجم أن اسمه التهذيب - وله طريقة لطيفة في التصنيف . تفقه في مجلس القاضي أبي محمد الناصحيّ وكان يختلف في ذلك إلى الأمير أبي الفضل الميكاليّ . وقد روى الحديث عن الإمام أبي عبد الرحمن السلميّ والإمام أبي الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسيّ . وقد مدحه الإمام عليّ بن أبي صالح الخوارزميّ بهذه الأبيات :

ألا يا صارباً في الأرض أقصر	فما تبغيه عند ابن الكرامه
أقول لمن غدا يبغي مزيداً	عليه: علمت أنك في الكرامه
أليس يقابل الطلاب مهما	تلقوه ببرٍّ أو كرامه
أبا سعد بقيت فكل شخص	يروم الفضل حقاً منك رامه

المعلوم ، فلا يكون إغراءً مع تجويزه هجوم الموت عليه ، ولأنه تعالى لما أعلمه أنه يدخله النار ، ولعمري - علم أنه لا يختار الإيمان أبداً . ومتى قيل : ما فائدة إنظاره ؟ قلنا : لطف له ، لأنه يمكنه من استدراك أمره . وهل يضل به أحد ؟ قال أبو علي : لا ، لقوله تعالى : مَا أَنْتُمْ

= ومدحه أيضاً الإمام مسعود بن علي الصوابي بهذه الأبيات :

أبا سعد جزيت بلا نهياه أراك بلغت في التصنيف غايه
وخلصت القلوب الغلف حقاً وأوضحت الشريعة والهدايه
وفي سور المحامد والمساعي مناقبك الشريفة صرّن آيه

وهو الحاكم الإمام أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة بن محمد بن أحمد بن الحسن بن كرامة بن إبراهيم بن إسماعيل بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب عليه السلام . فبينه وبين جده ابن الحنفية عشرة آباء إلى علي رضي الله عنه أحد عشر ، وهو علويّ ولكنه لم يكن معروفاً ولم يشتهر بهذا النسب . وله ولدان أحدهما الحاكم محمد توفي في شهر سنة ثمان عشرة وخمسمائة . ولم يذ كر المترجم تاريخ وفاة المترجم له ولا تاريخ ولادته . ولكن يعرف تاريخ وفاته على الإجمال من ملاحظة تاريخ وفاة ولده الحاكم محمد المذكور . نقلت هذه الترجمة عن كتاب (تاريخ بيهق) تأليف أبي الحسن بن علي بن زيد البيهقي المعروف بابن فندق ، المطبوع باللغة الفارسية في إيران بتاريخ ١٣١٧ شمسية .

١٧ رجب سنة ١٣٧٦

وأقول أنا :

لقد بحثت عن هذا التفسير حتى علمت أن البعثة المصرية لتصوير المخطوطات العربية في بلاد اليمن ، ذكرت في التقرير الذي قدمه إلى وزارة المعارف رئيسها الدكتور خليل يحيى نامى بالصفحة رقم ١٨ منه ما يأتي :

عَلَيْهِ يَفْتَنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ^(١). ولأنه لو ضل به أحد ، لكان بقاؤه مفسدة ، فكان الله تعالى لا يُنظره . فأما أبو هاشم فيجوز أن يضل به أحد ، ويكون بمنزلة زيادة الشهوة ، ويجوز أن يكون لطفاً لنا من وجوه : أحدها أن المكلف مع وسوسته إذا امتنع من القبيح ، كان ثوابه أكثر ، ولأنه تعالى عرفنا عداوته ، والعاقل يجتهد في أن يغيظ عدوه ويغفمه ، وذلك إنما يكون بطاعة ربه ، ومن أطاعه فن قبل نفسه أتى ، لا من قبل ربه . انتهى كلام الجشمي ، وهو جارٍ على أصول المعتزلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

« قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي » أى أضللتني عن الهدى ، أو حكمت بغوايتي . والباء للقسم ، كما في قوله تعالى : قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ^(٢). أى : فأقسم بإنغوائك إياي . وقيل : هى بمعنى لام التعليل ، أى : لأجل إنغوائك إياي « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ » أى : لأدم وبنيه ترصداً بهم ، كيقعد القطاع للطريق على السابلة « صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » أى : طريقك السوى ، وهو طريق الحق ، ومعناه لأفتر عن إفسادهم . وانتصابه على الظرفية أو على نزع الجار .

= ٩ - كتاب التقریب المنتزع من كتاب (التهذيب) لأبى سعد الحسين بن كرامة الجشمي

البيهقي - للقاضي محمد بن عامر الأصهباني - رقم التصوير ١٧

١٠ - التهذيب في التفسير - للحاكم أبى سعد بن كرامة الجشمي البيهقي ، الموجود منه

ثمانية مجلدات . رقم التصوير من ٨٧ - ٩٣ و ٢٧٠ . وهذا محفوظ بدار الكتب . انتهى .

(١) [٣٧ / الصفات / ١٦٢ و ١٦٣] .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ثُمَّ لَا يَنْتَهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

« ثُمَّ لَا يَنْتَهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ »
 أى من جميع الجهات الأربع . مثل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أى وجه يمكنه ، يأتیان العدو من الجهات الأربع التى يعتاد هجومه منها . ولذلك لم يذكر الفوق والتحت « وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ » أى مستعملين لقواهم وجوارحهم ، وما أنعم الله به عليهم فى طريق الطاعة والتقرب إلى الله . وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن ، كقوله : وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ وَ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ^(١) . روى الإمام ^(٢) أحمد عن سبرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ قال : فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماؤك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول . قال : فعصاه فهاجر . قال : ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : هو جهاد النفس والمال . فتقاتل فتقتل فتُنكح المرأة ويُقسم المال ؟ قال : فعصاه فجاهد . فقال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك منهم مات ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة .

وقال الحافظ : ورد فى الحديث استعانة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٠] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

كلها ، فروى الإمام أحمد^(١) وأبو داود^(٢) والنسائي^(٣) وابن ماجه^(٤) وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن عمر قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي اللهم ! إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ؛ اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي ؛ اللهم ! احفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوق وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي . ورواه البزار عن ابن عباس .

فائدة

قال الجسمي : تدل الآية أنه سأل الإنظار ، وأنه تعالى أنظره ، وقد بينا ما قيل فيه . وتدل على شدة عداوته لبنى آدم وحرصه على إضلالهم . وتدل على أن أكثر بنى آدم غير شاكرين . وتدل على أن الإضلال فعل إبليس ، والقبول عنه فعلهم ، لذلك أضافه إليهم ، وذمهم عليه ، ولو كان خلقاً له لما صح ذلك . - انتهى - والكلام في أمثالها معروف . ثم أكد تعالى على إبليس اللعنة والطرده والإبعاد عن محل الملأ الأعلى ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٥ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٤٧٨٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٠١ - باب ما يقول إذا أصبح ، حديث ٥٠٧٤ .

(٣) أخرج النسائي قوله « اللهم إني أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » في : ٥٠ - كتاب الاستعاذة ، ٦٠ - باب الاستعاذة من الخسف .

(٤) أخرجه ابن ماجه في : ٣٤ - كتاب الدعاء ، ١٤ - باب ما يدعوه به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ، حديث رقم ٣٨٧١ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا ، لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)

« قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُومًا » بالهمزة في القراءة المشهورة ، من (ذَائِمُهُ) إذا حقره وذمه ، وقرئ « مَذْذُومًا » بزال مضمومة وواو ساكنة ، وهي تحتل أن تكون مخففة من المهموز بنقل حركة الهمزة إلى الساكن ثم حذفها ، وأن تكون من المعتل ، وكان قياسه (مذيم) كميع . إلا أنه أبدلت الواو من الياء ، على حد قولهم (مَكُول) في مكيل ، و (مشوب) في مشيب . « مَذْذُورًا » مقصيًا مطرودًا « لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ » اللام فيه ، لتوطئة القسم . وجوابه « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ » أى : لَمَنْ أطاعك من الجن والإنس ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ من كفاركم ، كقوله تعالى : قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ^(١) .

قال الجشمي : وإنما قال ذلك لأنه لا يكون في جهنم إلا إبليس وحزبه من الشياطين ، وكفار الإنس وفساقهم ، الذين انتقادوا له وتركوا أمر الله لأمره ، فجمعهم في الخطاب . ومتى قيل : لم ضيق جهنم ووسع الجنة ؟ قلنا : لأن جهنم حبس ، والجنة دار ملك . ومتى قيل : فما الفائدة في قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ) قلنا : لطفًا ليكون المكلف تبعًا للأنبياء دون الشياطين ، ولطفًا لإبليس وحزبه ، لأنه غاية في الزجر والنهي .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على الوعيد لمن تبع إبليس ، وأنه يملأ جهنم منهم . ولا بد فيه من شرط ، وهو أن لا يتوب ، أولا يكون معه طاعة أعظم . وتدل على إذلال إبليس وطرده ولعنه بسبب عصيانه ، تحذيرًا عن مثل حاله .

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

وقوله تعالى : « وَيَا آدَمُ » أى : وقلنا يا آدم « اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » أى جنة الخلد ، أو جنة فى الأرض .

قال الجسمى : وقد تقدم ذكر هذه القصة ، والفائدة فى إعادتها أن القرآن نزل فى بضعة وعشرين سنة ، والعوارض تعرض ، والوفود تقدم ، فكانت القصة تعاد ، لیسمع من لم یسمع ، استصلاحاً ولطفاً . لأن فى إعادة قصة واحدة ، فى مواضع بألفاظ مختلفة ، كل واحد منها فى نهاية الحسن ، من إعجاز القرآن . « فَكُلَا مِنْ حَيْثُ » أى من كل مكان « شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » أى فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ أَيْتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)

« فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ » أى : إبليس بأكل الشجرة خيلاً لهما النفع « لِيُبْدِيَ لَهُمَا » أى : يظهر لهما « مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ أَيْتِهِمَا » أى : عوراتهما ، واللام فى (لِيُبْدِيَ) إما للعاقبة ، لأنه لم يعلم صدوره منهما ، أى : فكان عاقبة وسوسته أن أظهر سوائتهما ؛ أو للتعليل والغرض ، وهو الأصل فيها ، بناء على حدسه أو علمه بطريق ما .

تنبيه :

فى الآية دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور ، وأنه مستهجن فى الطباع ، ولذلك سميت سواة ، لأنه يسوء صاحبها .

قال الحاكم : وقد استدل قوم بالآية على وجوب ستر العورة ، وأنه كان في شريعة آدم عليه السلام . قال القاضي : لا دليل في الآية على الوجوب ، لأنه ليس فيها إلا أنهما فعلاً ذلك . قال الأصم : في الآية دليل على أنهما كرها التعرّى ، وإن لم يكن لهما ثالث ، ففي ذلك دليل على قبح التعرّى ، وإن لم يكن مع المتعرى أحد ، إلا الحاجة .

« وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا » أى : إلا كراهة أن تكونا « مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ » أى : من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين . وقد استدل بهذا من رأى تفضيل الملائكة على الأنبياء ، لارتكابهما ذلك طمعاً في نيل ما ذكر . وأجاب ، من لم يرهذا ، باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوة آدم . ولئن كانت بعدها ، فلعل آدم رغب في الملكية للقوة والشدة والقدرة ، أو لخلقة الذات ، بأن يصير جوهرًا نورانيًا - أشار له الرازي -

وقال الناصر : لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل ، أن يكون الأمر كذلك في علمه تعالى . ألا ترى إبليس قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين ، وهو في ذلك كاذب مبطل فلا دليل فيه إذاً ، وليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك ، ولا تصديقه فيه ، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما وغرّهما ، إذ قال الله تعالى : (فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ) فلعل تفضيله الملائكة على النبوة من جملة غروره - انتهى - .

قال السيوطي في (الإكليل) : وأنا أقول : لا أزال أتعجب ممن أخذ يستدل من هذه الآية . والكلام الذى فيها ، حكاه الله تعالى عن قول إبليس في معرض المناذاة عليه بالكذب والفورور والزور والتدليس . وإنما يستدل من كلامه تعالى ، أو من كلام حكاه عن بعض أنبيائه . وإن لم يكن ذلك ، فكلام حكاه راضياً به مقرّاً له - انتهى - .

على أنه قرئ (مَلِكَيْنِ) بكسر اللام ، كان يقرؤها كذلك ابن عباس ويحيى بن أبي

كثير . قال الواحدى : إنما أتاها إبليس من جهة الملك . ويدل على هذا قوله تعالى (هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى)^(١) - انتهى - .
والقراءة الشاذة قد تكون تفسيراً للمتواترة ، كما لا يخفى ، وبه يندفع ما للرازى هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

« وَقَاسَمَهُمَا » أى أقسم لهما « إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ » أى : فى هذا الأمر . قال ابن كثير : أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما . وقد يخدع المؤمن بالله - انتهى - . وعن قتادة : إنما يخدع المؤمن بالله . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة ، أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق ، ف قيل له : إنهم يخدعونك ! فقال : من خدعنا بالله نخدعنا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الْأَشْجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ » أى : أطمعهما . وأصله : الرجل العطشان يدلى فى البئر ليروى من مائها ، فلا يجد فيها ماءً ، فيكون مدلياً فيها بغرور ، فوضعت التدلوية موضع الإطعام فيما لا يجدى نقماً . وفيه إشعار بأنه أهبطهما بذلك من درجة عالية ، إلى رتبة سافلة . فإن

(١) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذُكَّ

عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى .

التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل . وقيل : معنى دلاها جرأها بفروره ، والأصل فيه (دلهما) ، والدلّ والدالة الجرأة كما قال ^(١) :

أَظَنَّ الْحِلْمَ دَلًّا عَلَى قَوْمٍ وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ
فأبدل أحد حرفي التضعيف ياءً .

« فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تُهْمَا » أى : أخذتهما العقوبة وشؤم العصية فتهافت عنهما اللباس ، فظهرت لهما عوراتهما . قال السيوطى فى (الإكمال) : استدل به بعضهم على أن من ذاق الخمر عصى - انتهى - وهذا وقوف مع ظاهر ما ههنا ، فإن الذوق وجود الطعم بالشم ، وظاهر أنه قد يعبر به عن الأكل اليسير ، وهو المراد هنا ، لأنه وقع فى آية أخرى مصرحاً بالأكل فيها « وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ » أى : أخذتا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة « عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » أى : ليسترا به .

قال الجشمى : تدل على أن ستر العورة كان من شريعة آدم عليه السلام . وقد استدل قوم بالآية على وجوب الستر . قال القاضى : وليس فى الآية ما يوجب الوجوب ، إذ ليس فيها أكثر من أنهما فعلا ذلك . قال الأصم : وتدل على أن الستر من خلق آدم وحواء ، وأنهما كرها العرى وإن لم يكن لهما ثالث ، فى ذلك دليل على قبح التعرى إلا عند الحاجة .

« وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا » أى يذكرهما النهى السابق والأمر والتجنب عن الشيطان « أَلَمْ أَنُهَاكُمَا أَنْ تَلَكُمَا الشَّجَرَةَ » أى : عن الأكل منها « وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ » .

(١) قاله قيس بن زهير . وقد استشهد به فى اللسان فى مادة (دل ل) ج ١١ ص ٢٤٧

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَاهُ أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) « قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَاهُ أَنْفُسَنَا » أى أضررناها بالمعصية « وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا » أى ماسلف « وَتَرْحَمْنَا » أى بالتوبة وقبولها « لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى لنصيرن ممن خسر جميع ما حصل له من الكلمات . قال الضحاك بن مزاحم (فى قوله : رَبَّنَا ظَلَمْنَاهُ ...) الآية - هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه .

لطيفة :

قال الجسمى : يقال إن آدم عليه السلام سعد بخمسة أشياء : اعترف بالذنب ، وندم عليه ، ولام نفسه ، وسارع إلى التوبة ، ولم يقنط من الرحمة . وشق إبليس بخمسة أشياء : لم يقر بالذنب ، ولم يندم ، ولم يلم نفسه بل أضاف إلى ربه فلم يتب ، وقنط من الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ)

« قَالَ أَهْبِطُوا » أى من الجنة إلى ما عداها . وقال أبو مسلم : معناه اذهبوا . وهو خطاب لآدم وحواء وإبليس . قال ابن كثير : والعمدة فى العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال فى سورة طه : (قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ...) الآية (١) - وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهى تبع لإبليس . وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم . ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها ، ولو كان فى تعيين تلك

(١) [٢٠ / طه / ١٢٣] ونصها : قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَأَمَّا يَا تَبِئَتِكُمْ مَنِ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

البقاع فائدة ، تعود على المكلفين ، في أمر دينهم أو دنياهم ، لذكرها الله تعالى في كتابه ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم - انتهى - « بِمَضْبُكُم لِبَعْضِ عَدُوِّكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا » أى استقرار أو موضع استقرار . « وَمَتَّعَ » أى تمتع ومعيشة « إِلَىٰ حِينٍ » أى : إلى تقضى آجالكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

« قَالَ فِيهَا » أى الأرض « تَحْيَوْنَ » تعيشون « وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » أى يوم القيامة للجزاء ، كقوله تعالى ^(١) : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ » . ثم ذكرهم سبحانه بنعمته في تبوئة الدار والمستقر في الأرض ، وكسوتهم لباساً يسترهم به سوءاتهم ، بعد ما نزع عنهما لباس الجفنة ، وذلك لما هم ، بعد الإهباط ، من الحاجة إلى اللباس والمعاش . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يٰبَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَّكَّرُونَ)

« يٰبَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا » يعنى ما يلبس من الثياب وغيره . قال الزمخشري : جعل ما في الأرض منزلاً من السماء ، لأنه قضى ثمة وكتب ، أى قضى وقسم لكم ، وقضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء ، حيث كتب في اللوح المحفوظ . وقال أبو البقاء : لما كان الريش واللباس ينبتان بالمطر ، والمطر ينزل ، جعل ماهو المسبب بمنزلة السبب - انتهى - .

(١) [٢٠ / طه / ٥٥] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاوى له في معنى النزول : لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة ، فإن اللباس ينزل من ظهور الأنعام ، فامتقن سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث ، وهذا - والله أعلم - معنى إنزاله ، فإنه ينزله من ظهور الأنعام ، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأبار والأشعار ، وينتفع به بنو آدم في اللباس والرياش ، فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب ، فهي لدفع الحر والبرد ، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان .

« يُؤَرِّى سَوْءَ تِكْمٍ » أى يستر عوراتكم التى قصد إبليس إبداءها من أبويكم حتى اضطرا إلى خصف الأوراق ، وأنتم مستغنون عن ذلك « وَرِيشًا » عطفه إما من عطف الصفات ، فوصف اللباس بشيئين : مواراة السوءة ، والزينة . فالريش بمعنى الزينة ، لأنه زينة الطير فاستعير منه . وأما من عطف الشئ على غيره . أى أنزلنا لباسين : لباس مواراة ولباس زينة ؛ فيكون مما حذف فيه الموصوف ، أى لباساً ريشاً أى ذاريش ، والريش مشترك بين الاسم والمصدر . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وحكاه البخارى^(١) عنه : الريش المال . وحكاه غير واحد من السلف . قال الإمام ابن تيمية : وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص . قال ابن زيد : جالاً . وقرئ : ريشاً . قال

(١) أخرجه البخارى في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١ - باب خلق آدم صلوات الله

عليه وذريته ونصه :

قال ابن عباس : لَمَّا عَلِمَهَا حَافِظٌ : إلا عليها حافظ . كبكيدٍ : فى شدة خلق . وَرِيشًا

(ريشاً) : المال .

وفى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧ - سورة الأعراف . ونصه :

قال ابن عباس : وريشاً ، المال .

وانظر كتابنا (معجم غريب القرآن، مستخرجاً من صحيح البخارى) مادة (رىش) ص ٧٧

ابن السكيت : الرياش هو الأثاث من المتاع ، ما كان من لباس أو حشو من فراش أو دثار ،
والريش : المتاع والأموال ، وقد يكون في الثياب دون الأموال . وإنه لحسن الريش ، أى :
الثياب - انتهى - .

ويقال : راش فلان ، أى جمع الريش ، وهو المال والأثاث . وراش الصديق أطعمه
وسقاه وكساه ، وأصله من الريش ، كأن الفقير المملق لانهوض له ، كالمقصود منه الجناح وكل
من أوليته خيراً ، فقد رشته - كذا في تاج العروس - .

فائدة

روى الإمام أحمد^(١) عن أبي أمامة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : من استجدّ ثوباً فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به
عورتى ، وأتجمل به فى حياتى . ثم عمد إلى الثوب الذى أخلق فتصدق به ، كان فى ذمة الله تعالى
وفى جوار الله ، وفى كنف الله حياً وميتاً . ورواه الترمذى^(٢) وابن ماجه^(٣) . وروى

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث
رقم ٣٠٥ (طبعة المعارف) .

(٢) وأخرجه الترمذى فى : ٢٢ - كتاب اللباس ، ٢٩ - باب ما يقول إذا لبس ثوباً
جديداً . ونصه :

عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا استجدّ ثوباً سماه باسمه (عمامة أو قميصاً
أو رداء) ثم يقول « اللهم ! لك الحمد . أنت كسوتنيه . أسألك خيره وخير ما صنع له .
وأعوذ بك من شره وشر ما صنع » .

قال : وفى الباب عن عمر وابن عمر .

(٣) وأخرجه ابن ماجه فى : ٢٢ - كتاب اللباس ، ٢ - باب ما يقول الرجل إذا لبس
ثوباً جديداً ، حديث رقم ٣٥٥٧ (طبعتنا) ونصه كنص المسند .

الإمام أحمد^(١) عن أبي مطر أنه رأى علياً رضي الله عنه أتى غلاماً حدثاً، فاشتري منه قميصاً بثلاثة دراهم، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى السكبين، يقول وَلَبَّسَهُ : الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتى . فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبي الله ﷺ ؟ قال : هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ عند الكسوة : الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتى .

ولما بين تعالى ساتر الظاهر وزينته، أشار إلى ساتر عيوب الباطن وزينته بقوله : « وَلِبَاسُ التَّقْوَى » أى : خشية الله، أو الإيمان، أو السمات الحسن، والكل متقارب، ورفع بالابتداء، خبره جملة « ذَلِكَ خَيْرٌ » أو خير، وذلك صفته، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير .

قال المهيبي : لأن الظاهر محل نظر الخلق، والباطن محل نظر الحق والعيوب الباطنة أخفى من العورات الظاهرة . وقال القاشاني : لباس التقوى صفة الورع والحذر من صفة النفس، ذلك خير لأنه من جملة أركان الشرائع، لأنه أصل الدين وأساسه، كالحماية في العلاج - انتهى - .

قال أبو علي الفارسي : معنى الآية : ولباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله تعالى، مما خلق من اللباس والرياش الذى يتجمل به . قال : وأضيف اللباس إلى التقوى، كما أضيف إلى الجوع في قوله : فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ^(٢) . - انتهى -

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٣٥٤ (طبعة المعارف) .

(٢) [١٦ / النحل / ١١٢] ونصها : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

أى : فهو استعارة مكنية وتخيلية بأن يتوهم للتقوى حالة شبيهة باللباس ، تشتمل على جميع بدنه ، بحسب الورع والحشية من الله ، اشتمال اللباس على اللابس ، أو من قبيل (لُجَيْنِ الْمَاءِ) .
وقرأ نافع وابن عامر والكسائي (وَلِبَاسَ التَّقْوَى) بالنصب ، عطفًا على (لباساً) .
« ذَلِكَ » أى إنزال اللباس « مِنْ آيَةِ اللَّهِ » الدالة على فضله ورحمته على عباده
« أَعْلَمَهُمْ يَذَكِّرُونَ » أى : نعمته عليهم فيعرفون عظمتها فيشكرونها .

قال الزمخشري : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوات ،
وخصف الأراق عليها ، إظهاراً للعنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى ، وكشف العورة
من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على عظيم نعمه تعالى بهذه النعم التي عدّها . وذهب على بن
موسى القمي إلى أنها تدل على وجوب ستر العورة . وقال آخرون : لا تدل ، وليس في الظاهر
إلا الإناعام به من حيث نفى الحر والبرد وستر العورة والتجمل به ، فأما أنه واجب ، فبعيد .
ولو ثبت وجوبه عليه ، احتجنا إلى وجوبه في شريعتنا إلى دليل مستأنف . وقد ثبت في هذه
الشريعة وجوبه بالخبر المستفيض والإجماع ، فلا حاجة إلى الرجوع إلى شريعة أخرى . وتدل
على أنه تعالى ، كما أنعم بنعم الدنيا ، أنعم بنعم الدين ، فإن الأقرب أن لباس التقوى العلم والعمل
الصالح ، فكأنه ضم إلى نعم الدنيا نعم الدين التي بها يحصل الفوز بالثواب ، فتحصل نعمة الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَبْنِيْ اٰدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْنَاكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ
يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اٰتِمِهِمَا ، لَآئِهٖ وَ يَرٰكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ
مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ اَوْلِيَآءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ)
« يَبْنِيْ اٰدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ » أى لا يخذلكنكم عن دخول الجنة ، بنزع لباس

الشرعية والتقوى عنكم ، فيخرجكم من نظر الله بالرحمة إليكم « كَمَا أَخْرَجَ أَبْوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ » نعت لمصدر محذوف ، أى لا يفتنكم فتنةً مثل إخراج أبويكم « يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا » أى الظاهر بسبب نزع لباس التقوى « لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهَمَا » أى الظاهرة الدالة على السوء الباطنة . وجملة (ينزع) حال من (أبويكم) أو من فاعل (أخرج) ، أى : أخرجهما نازعاً لباسهما ، بأن كان سبباً فى أن نزع عنهما ؛ وصيغة المضارع لاستحضار الصورة .

تنبيهان :

الأول - قال السيوطى فى (الإكمال) : استدل بهذه الآية أيضاً على وجوب ستر العورة ، واستدل بالآيتين من قال : إن العورة هى السوأتان خاصة - انتهى .

الثانى - قال الإمام الرازى : اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها ، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم ، وبين فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده ، أتبعها بأن حذر أولاده من قبول وسوسة الشيطان ، فقال : (يَبْنِيْءَ آدَمَ ...) الآية - وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيدته ، ولطف وسوسته ، وشدة اهتمامه ، إلى أن قدّر على إلقاء آدم فى الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة - فبأن يقدر على أمثال هذه المضار فى حق بنى آدم أولى . فبهذا الطريق حذر تعالى بنى آدم بالاحتراز عن وسوسته .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ يُرْسِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ » أى : جنوده من الشياطين « مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » أى من مكان لا ترونهم فيه . والجملة استئناف لتعليل النهى ، وتأكيده التحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المداجى ، يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون . عن مالك ابن دينار : إن عدوا يراك ولا تراه ، لشديد المؤنة ، إلا من عصم الله .

تنبيهه .

قال السيوطى فى (الإكمال) : قال ابن الفرس : استدل بها بعضهم على أن الجن لا يرون وأن من قال إنهم يُرَوْنَ فهو كافر - انتهى - ومراده بالبعض ، المعتزلة ، ولذا

قال الزمخشريّ : فيه دليل بين أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة - انتهى -
وقال الجشميّ : تدل على بطلان قول العامة إن الشيطان يتصور لنا ونراه . ثم قال : ومتى قيل : أليس يُروّن زمن الأنبياء ، ويرى المعائن الملك ؟ فجوابنا : أنه يزداد قوة الشعاع ، أو تتكاثف أبدانهم ، فيكون معجزة للنبي - انتهى -

وأجاب أهل السنة كما في (العناية) : بأنه قد ثبتت رؤيتهم ، بالأحاديث الصحيحة المشهورة ، وهي لا تعارض ما في الآية . لأن المنفي فيها رؤيتهم إذا لم يتمثلوا لنا .

وقال في فتح البيان : وقد استدلل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة ، وليس في الآية ما يدل على ذلك . وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه وليس فيها أنا لا نراه أبداً ، فإن انتفاء الرؤية منّا له ، في وقت رؤيته لنا ، لا يستلزم انتفاءها مطلقاً . والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة ، وتكون الآية مخصوصة بها ، فيكونون مرئيين في بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض - انتهى - .

وقد أوضح الغزاليّ رحمه الله رؤيا الجن والشياطين برؤيا الملائكة حيث قال في (الركن الثاني) : الملائكة والجن والشياطين جواهر قائمة بأنفسها مختلفة بالحقائق اختلافاً يكون بين الأنواع . ثم قال : ويمكن أن تشاهد هذه الجواهر - أعني جواهر الملائكة - وإن كانت غير محسوسة . وهذه المشاهدة على ضربين : إما على سبيل التمثيل ، كقوله تعالى : (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) ^(١) . وكما كان النبيّ عليه الصلاة والسلام ^(٢) ، يرى جبريل في صورة دحية الكلبيّ .

(١) [١٩ / مريم / ١٧] ونصها : فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ١٠٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٥٨٥٦ و ٥٨٥٧ (طبعة المعارف) ونصهما :
=

والقسم الثاني أن يكون لبعض الملائكة بدن مخصوص ، كما أن نفوسنا غير محسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها الخاص بها ، فكذلك بعض الملائكة ، وربما كان هذا البدن المحسوس موقوفاً على إشراق نور النبوة ، كما أن محسوسات عالمنا هذا موقوفة عند الإدراك على إشراق نور الشمس ، وكذا في الجن والشياطين - انتهى - .

وقوله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » قال الزجاج : يعنى سلطانهم عليهم : يزيدون في غيهم - انتهى - والجملة لتعليم آخر للنهي ، وفيه تحذير أبلغ من الأول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِافْحِشَاءَ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)
« وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً » أى : ما تنهى قبحه من الذنوب ، كالشرك وكشف العورة في الطواف

= عن يحيى بن يعمر . قلت لابن عمر : إن عندنا رجالاً يزعمون أن الأمر بأيديهم ، فإن شاءوا عملوا وإن شاءوا لم يعملوا ؟ فقال : أخبرهم أنى منهم برى . وأتهم منى برءاء . ثم قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ! ما الإسلام ؟ فقال « تعبد الله لا تشرك به شيئاً . وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال « نعم » قال : صدقت . فما الإحسان ؟ قال « تخشى الله تعالى كأنك تراه ، فإذا تسكن تراه فإنه يراك » قال : فإذا فعلت ذلك فأنا محسن ؟ قال « نعم » قال : صدقت . فما الإيمان ؟ قال « تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث من بعد الموت والجنة والنار والقدر كله » قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟ قال « نعم » قال : صدقت .

وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثله . قال : وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية .

« قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا وَآيَاتِ اللَّهِ أَمْرًا نَافِيًا » أى؟ إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها ، فافتدوا بهم ، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها ، حيث أقرنا عليها ، إذ لو كرهها لنقلنا عنها ، وهما باطلان ، لأن أحدهما تقليد للجهال ، والتقليد ليس بطريق للعلم ، والثانى افتراء على ذى الجلال .

قال الشهاب : فى قوله تعالى : (وَاللَّهُ أَمْرًا) : مضاف مقدر ، أى أمر آباءنا ، فلا يقال الظاهر أمرهم بها ، والعدول عن الظاهر إشارة إلى ادعاء أن أمر آباءهم أمر لهم .
« قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ » أى : هذا الذى تصنعونه فاحشة منكورة ، والله لا يأمر بمثل ذلك ، لأن عاداته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بحسن الأفعال والحث على مكارم الخصال « أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » إنكار لإضافتهم الأمر بالفحشاء إليه سبحانه ، يتضمن النهى عن الافتراء عليه تعالى ، وفيه شهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط قال الشهاب : ولا دليل فى الآية لمن نفى القياس ، بناء على أن ما يثبت به مظنون لا معلوم ، لأنه مخصوص فى عمومها بإجماع الصحابة ومن يمتد به ، أو بدليل آخر .

تنبيه :

قال مجاهد^(١) : كان المشركون يطوفون بالبيت عراة ، يقولون : نطوف بك ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على قُبْلِهَا النَّسْعَةَ أو الشيء وتقول :

اليومَ يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله (وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً ...) الآية - قال ابن كثير : كانت العرب ، ما عدا قريشاً ، لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها ، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها . وكانت قريش - وهم الحمس - يطوفون فى ثيابهم ، ومن أعاره أحسبى ثوباً طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقى ، فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوباً جديداً ، ولا أعاره أحسبى ثوباً ؛

(١) الأثر رقم ١٤٤٦٢ من تفسير الطبرى .

طاف عرياناً ، وربما كانت امرأة ، فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر ، فتقول : اليوم يبدو ... البيت - وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ، فأنكر تعالى عليهم ذلك .

وذكر السيوطي في (الإكليل) عن ابن عباس أيضاً ؛ أنها نزلت في طوافهم بالبيت عراة ، رواه أبو الشيخ وغيره . قال : ففيها وجوب ستر العورة في الطواف .

تنبيهان :

الأول - ذهب المعتزلة إلى أن الإرادة مدلول الأمر ، ولازمة له ، والفحشاء - أعنى الشرور والمعاصي - غير مأمور بها بنص الآية ، فلا تكون مرادة له تعالى .

وأجاب أهل السنة بأن الأمر قد يفك عن الإرادة ، بمعنى أنه يوجد بدون الإرادة ، فلا تكون الإرادة تابعة له وجوداً . ومما يوضح أن الشيء قد يؤمر به ولا يكون مراداً ، أن السيد إذا أراد أن يظهر على الحاضرين عصيان عبده ، يأمره بالشيء ولا يريده منه . ومنها أن الأمر أمران : أمر تكويني يحصل به وجود الأشياء ، وهو خطاب (كن) وهو تابع للإرادة ، ويعم جميع الكائنات . فالطاعات والمعاصي كلها مأمورة ومرادة بهذا الأمر ، ولا يتعلق بهذا الأمر الطاعة والعصيان والثواب والعقاب . لأنه يتعلق بالأشياء حال العدم . وأمر تشريعي تدويني : أي شرعه الله لعباده ، وكلفهم به ، مما دون في كتب الشريعة وُيِّن . وهذا الأمر يتعلق به الطاعة والعصيان والثواب والعقاب والرضا والسخط . والكفر والمعاصي ليست مأمورة بهذا الأمر . والمعتزلة لم يفرقوا بين الأمرين ، وقالوا : إن الكفر والمعاصي لو كانت مرادة تعالى ، لكانت مأموراً بها ، وإتيان المأمور به طاعة ، فيكون الكافر والفاسق مطيعين ، فإنهما مأمور بهما بالأمر الأول ، وليس مأموراً بهما بالأمر الثاني ، حتى يكون إتيانهما طاعة .

قال السيلكوتى : ولا يخفى عليك أن تقسيم الأمر إلى أمرين ، إنما يستقيم إذا كان قوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذْ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ)^(١) على ظاهره ، كما ذهب إليه البعض . وأما إذا كان عبارة عن الإيجاد من غير أن يتعلق بها خطاب ، كما ذهب إليه الأشعرى ومن تبعه ، فلا . انتهى - والمسألة مبسوسة في محالها المعروفة .

الثانى - قوله تعالى (قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) جواب عن شبهتهم الثانية . ولم يذكر جواباً عن الأولى . قال الإمام : لأنها إشارة إلى محض التقليد . وقد تقرر في العقول أنه طريقة فاسدة ، لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة . فلو كان التقليد حقاً ، لزم القول بحقية الأديان المتناقضة . فلما كان فساد ظاهره ، لم يذكره تعالى .

الثالث - قال في (فتح البيان) : في هذه الآية الشريفة أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ ، للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر ، لا بأهل الحق ، فإنهم القائلون : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ)^(٢) والقائلون : (وَجَدْنَا عَلَيْهِمْ آباءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) . والمقلد ، لولا اغتراره بكونه وجد آباءه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به ، وأنه الحق - لم يبق عليه . وهذه الخصلة هي التي بقى بها اليهودى على يهوديته ، والنصرانى على نصرانيته ، والمبتدع على بدعته . فإبقاءهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية والنصرانية والبدعة ، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به ، ولم ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب ، ولا بحثوا عن الله كما ينبغى . وهذا هو التقليد البحت ، والقصور الخالص . ثم قال : وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق ، اختيار المقلدة لآراء

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] .

(٢) [٢٣ / الزخرف / ٢٣] ونصها : وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ...

الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم، ووجود من يأخذونهما عنه بين أيديهم، ووجود آله الفهم لديهم ، وملكة العقل عندهم - انتهى - .

ولما نفي تعالى ما تقولوه عليه ، وأخبر أنه لا يأمر بالفحشاء ، بين ما أمر به بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَأَذْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

« قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ » أى : بالعدل . وللسلف فيه هنا وجوه : ما ظهر في العقول كونه حسناً ، أو التوحيد ، أو كلمة الإخلاص . وعن أبي مسلم : جميع الطاعات . قال الحاكم : وهو الوجه : ولا يخفى أن الجميع مما يشمله (القسط) فلا منافاة . « وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ » معطوف على الأمر الذي ينحلّ إليه المصدر مع (أن) . أى : بأن أقسطوا وأقيموا ، والمصدر ينحلّ إلى الماضي والمضارع والأمر ، كما نقله المَعْرِب . أو معطوف على (أَمَرَ رَبِّي) أى : قل أقيموا . قال الجرجاني : الأمر معطوف على الخبر ، لأن المقصود لفظه ، أو لأنه إنشاء معنى . انتهى - و (الوجوه) مجاز عن الذوات . ومسجد إما مصدر ، والوقت مقدر قبله ، و (عند) بمعنى (في) . أى : أقيموا ذواتكم في كل وقت سجود ، وذلك بمنعها عن الالتفات إلى الغير فيه ، وبمراعاة موافقة الأمر مع صدق النية ، أو باستقبال القبلة فيه . وإما اسم زمان أو مكان بالمعنى اللغوي ، أى في كل وقت سجود أو مكانه . والسجود على هذه الأوجه مجاز عن الصلاة ، أو المسجد هو المصطلح عليه . والمعنى : في أى مسجد حضرتم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم . والأمر على هذا الوجه للندب . قيل : وهو لا يناسب المقام . وإما على ما قبله ، فهو للوجوب .

وهذه الوجوه مستفادة مما روى عن السلف . قال في (الباب) : معنى الآية في قول

مجاهد والسديّ : وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة إلى الكعبة . وقال الضحاك : المعنى إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلّوا فيه ، ولا يقولن أحدكم : أصلي في مسجدي ، أو مسجد قومي . وقيل : معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً .

« وَادْعُوهُ » أي : اعبدوه « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أي : الطاعة بتخصيصها له ، لأنه استحق عبادتكم بإبدائه إياكم ، ولا يسعكم تركها ، إذ إليه عودكم بالآخرة ؛ فإنه « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » أي : كما أنشأكم ابتداء ، يعيدكم إليه أحياء ، فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة . وإنما شبه الإعادة بالابتداء ، تقريراً لإمكانها والقدرة عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ)

« فَرِيقًا هَدَىٰ » بأن وفقهم للإيمان « وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ » وهم الكافرون « إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ » أي : أنصاراً وأرباباً « مِنْ دُونِ اللَّهِ » حيث أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصي « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ » أي : أنهم على هداية وحق فيما اعتقدوا .

تنبيهان :

الأول - قال ابن جرير^(١) : قوله تعالى (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) من أين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عناداً منه لربه فيها . لأن ذلك لو كان كذلك ، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل ، وهو يحسب أنه مهتد ، وفريق الهدى - فرق . وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية - انتهى - .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨٨ من الجزء الثاني عشر من تفسيره (طبعة المعارف) .

وحاصله ، كما قال القاضي : إن الآية دلت على أن الكافر المخطئ والمماند سواء في استحقاق الذم . قال القاضي : وللفارق أن يحمله على المقصر في النظر ، أى : يحمل الضمير في (اتَّخَذُوا) على الكافر المقصر في النظر . وأما الذين اجتهدوا وبذلوا الوسع فمعذورون ، كما هو مذهب البعض - كذا في (العناية) .

الثاني - قال الرازي : هذه الآية تدل على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين ، بل لا بد فيه من الجزم والقطع واليقين ، لأنه تعالى عاب الكفار بأنهم يحسبون بكونهم مهتدين . ولولا أن هذا الحسبان مذموم ، لما ذمهم بذلك - انتهى - .

قال المايي : ومما حسبوا فيه أنهم مهتدون بمتابعة الشيطان ، تركهم التزين والتلذذ مع العبادة ، فطافوا عراة . وتركهم اللحم والدسم مع الإحرام ، فقال عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (يَبْنِيْٓ اٰدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا ۗ اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ)

« يَبْنِيْٓ اٰدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ » أى : من اللباس « عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » أى : بيت بنى للعبادة ، على أنه اسم مكان ، أو مصدر بمعنى السجود ، مراداً به الصلاة والعبادة . فإن العبادة أولى أوقات التزين « وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا » أيام الحج تقويّاً على العبادة « وَلَا تُسْرِفُوْا » أى : إسرافاً يوجب الانهماك في الشهوات ويشغل عن العبادة ، أو لا تحرموا الطيبات من الرزق واللحم والدسم « اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ » المعتدين .

تنبيهات :

الأول - كنا أسلفنا في مقدمة هذا التفسير ، أن من فوائد معرفة سبب النزول الوقوف على المعنى ، وإزالة الإشكال . وهذه الآية إنما أجملنا تفسيرها بما ذكرنا ، لأنها نزلت في ذلك .

فقد روى مسلم^(١) عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُرْيَانَةٌ ، فتقول : من يعيرني تطوفاً؟^(٢) ؟ تجعله على فرجها وتقول :

اليومَ يبدو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية (خُذُوا زِينَتَكُمْ ...) الآية . ونزلت (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ...) الآية .

وعند ابن جرير^(٣) عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليومَ يبدو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فنزلت (خُذُوا زِينَتَكُمْ) . قال في (الباب) : وفي رواية أخرى عنه^(٤) : فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا . وروى العوفي^(٥) عن ابن عباس أيضاً في الآية قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ، وهو ما يوارى السوءة ، وما سوى ذلك من جيد البرّ والمتاع ، فأمرُوا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد . وأخرج أبو الشيخ عن طاووس قال : أمرُوا بلبس الثياب ، وأخرج من وجه آخر عنه قال : الشملة

(١) أخرجه مسلم في : ٥٤ - كتاب التفسير ، حديث ٢٥ (طبعنا) .

(٢) تطوفاً : هو ثوب تلبسه المرأة تطوف به . وكان أول الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض ولا يأخذونها أبداً . ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى ، ويسمى اللقأ . حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة ، فقال تعالى : خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ . وقال النبي ﷺ « لا يطوف بالبيت عريان » .

(٣) الأثر رقم ١٤٥٠٤ .

(٤) الأثر رقم ١٤٥٠٧ .

(٥) الأثر رقم ١٤٥٠٨ من تفسير ابن جرير .

من الزينة . وقال مجاهد : كان حتى من أهل اليمن إذا قدم أحدهم حاجاً أو معتمراً يقول : لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت فيه ، فيقول : من يعيرني مئزراً ؟ فإن قدر عليه وإلا طاف عرياناً . فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون : (خُذُوا زِينَتَكُمْ ...) الآية . وقال الزهري : إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحنس - وهم قريش وأحلافهم - فمن جاء من غير الحنس ، وضع ثيابه ، وطاف في ثوب أحسنى ، ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه . فإن لم يجد من يعيره من الحنس فإنه يأتى ثيابه ، ويطوف عرياناً . وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها ، إذا قضى طوافه وحرّمها ، أى جعلها حراماً عليه ؛ فلذلك قال تعالى : خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ . والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة . قال مجاهد : ما يورى عوراتكم ، ولو عباءة - انتهى - قال ابن كثير : هكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير وقتادة والسدي ، والضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها : أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة - انتهى - فظهر أن المراد بالزينة ما يستر العورة لأنه اللازم المأمور به الذي بيّنه سبب النزول ، دون لباس التجميل المتبادر منه ، لأن المستفاد من (خُذُوا) هو وجوب الأخذ ، ولباس التجميل مسنون - قاله الشهاب - وأقول دلّت الآية بما أفاده سبب نزولها على أن الزينة لا تختص ، لغةً ، بالجد من اللباس كما توهم . وبين ذلك العوفي عن ابن عباس فيما نقلناه .

وفي (التهذيب) : الزينة اسم جامع لكل شيء يترين به . ومثله في (الصحاح) و(القاموس) وعبارته : الزينة ما يترين به .

وقال الحراني : الزينة تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة .

وقال الراغب : الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله ، ولا في الدنيا ولا في الآخرة - انتهى - .

وقد نقل الرازي إجماع المفسرين على أن المراد بـ (الزينة) لبس الثياب التي تستر العورة .

قال : والزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات . قال : وأيضاً إنه تعالى قال في الآية المتقدمة (قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِبَشًا) فبين أن اللباس الذي يوارى السوء من قبيل الرياش والزينة . ثم إنه تعالى أمر بأخذ الزينة في هذه الآية . فوجب أن يكون المراد من هذه الزينة هو الذي تقدم ذكره في تلك الآية . وأيضاً ف قوله (خُذُوا زِينَتَكُمْ) أمر ، والأمر للوجوب . فثبت أن أخذ الزينة واجب ، وكل ما سوى اللبس فقير واجب ، فوجب حمل الزينة على اللبس عملاً بالنص بقدر الإمكان . ولا يقال : إن قوله (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) أمر إباحة ، فيسكون المعطوف عليه كذلك ، لأنه لا يلزم من ترك الظاهر في المعطوف ، تركه في المعطوف عليه .

هذا ، وقد روى الحافظ بن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي عن قتادة عن أنس مرفوعاً : أنها نزلت في الصلاة في النعال . وكذا أخرجه أبو الشيخ عنه ، وعن أبي هريرة مثله . قال ابن كثير : وفي صحته نظر - والله أعلم - قلت : لانظر ، لأن ذلك مما تشمله الزينة ، وقد أسلفنا في المقدمة أن قولهم : (نزلت في كذا) لا يقصد به أن حكم الآية مخصوص به ، بل مخصوصة بنوعه ، فنعلم ما أشبهه ، فتذكر . والأحاديث في مشروعية الصلاة في النعل كثيرة جداً ، منها : عن أبي مسلمة ^(١) سعيد بن يزيد ، قال : سألت أنساً : أكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي في نعليه ؟ قال : نعم (متفق عليه) . قال العراقي في (شرح الترمذي) : ومن كان يفعل ذلك - يعني لبس النعل في الصلاة - عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وعويمر بن ساعدة وأنس بن مالك وسلمة بن الأكوع وأوس الثقفي ، ومن التابعين : سعيد بن المسيب والقاسم وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله وعطاء ابن يسار وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وطاووس وشريح القاضي وأبو مجلز وأبو عمر الشيباني والأسود بن يزيد وإبراهيم النخعي وإبراهيم التيمي وعلي بن الحسين وابنه أبو جعفر . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في ٨ - كتاب الصلاة ، ٢٤ - باب الصلاة في النعال حديث رقم ٢٥٦ .

وقد أخرج أبو داود^(١) من حديث أبي سعيد الخدري أنه قال : قال ﷺ : إذا جاء أحدكم إلى المسجد فليُنظر فإن رأى في نعليه قدراً أو أذى فليمسحه وليصلّ فيهما . وحديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : رأيت رسول الله ﷺ يصلي حافياً ومتملاً . أخرجه أبو داود^(٢) وابن ماجه^(٣) .

الثاني : دلت الآية على وجوب الستر عند الطواف ، لأنه سبب النزول ، قالوا : واللفظ شامل للصلاة لأنها مفعولة في المسجد .

الثالث : حاول بعضهم استنباط التجمل عند الصلاة منها حيث قال : لما دلت على وجوب أخذ الزينة بستر العورة في الصلاة ، فهم منها ، في الجملة ، حسن التزين بلبس ما فيه حسن

(١) أخرجه أبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ٨٨ - باب الصلاة في النعل ، حديث ٦٥٠ ونصه :

عن أبي سعيد الخدري قال : بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه ، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره .

فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم .

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال « ما حملكم على إلقاءكم نعالكم ؟ » قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن جبريل صلى الله عليه وسلم ، أتاني فأخبرني أن فيهما قدراً » وقال « إذا جاء أحدكم إلى المسجد فليُنظر . فإن رأى في نعليه قدراً أو أذى ، فليمسحه وليصلّ فيهما » .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢ - كتاب الصلاة ، ٨٨ - باب الصلاة في النعل ، حديث ٦٥٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٦٦ - باب الصلاة في النعال ، حديث ١٠٣٨ (طبعتنا) .

وجمال فيها . قال الكيا المراسي : ظاهر الآية الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد للفضل الذي يتعلق به تعظيماً للمسجد والفعل الواقع فيه ، مثل الاعتكاف والصلاة والطواف . وقال ابن الفرس : استدل مالك بالآية على كراهية الصلاة في مساجد القبائل بغير أزدية . واستدل بها قوم من السلف على أنه لا يجوز للمرأة أن تصلي بغير قلادة أو قرطين . كذا في (الإكيل) .
والأخير من الغلو في النزاع . وقال ابن كثير : وهذه الآية وما ورد في معناها من السنة ، يستحب التجميل عند الصلاة ، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد . والطيب لأنه من الزينة . والسواك لأنه من تمام ذلك . ومن أفضل اللباس البياض لما روى الإمام أحمد ^(١) وأبو داود ^(٢) والترمذي ^(٣) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم . وإن من خير أكل الحلال الإثم ، يجلو البصر وينبت الشعر ولأحمد ^(٤) وأهل السنن ، عن سمرّة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : عليكم بالثياب البيض فلبسوها فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم . وروى الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين : أن تيمماً الداري اشترى رداءً بألف ، وكان يصلي فيه .

الرابع : وجه تأثر الأمر بأخذ الزينة ، بالأمر بالأكل والشرب في قوله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) ما رواه الكلبي أن بني عامر كانوا لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً ، يعظمون بذلك حجهم . فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٢١٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٧ - كتاب الطب ، ١٤ - باب في الأمر بالكحل ، حديث ٣٨٧٨ .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٨ - كتاب الجنائز ، ١٨ - باب ما يستحب من الأكفان .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلٍ (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) . وقال السدّي : كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرّمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم . فقال الله تعالى لهم : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا . . . الآية .
الخامس : فسر الإسراف بمجاوزة الحد فيما أحلّ ، وذلك بتحريمه ، وقال الجشمي البنيّ في تفسيره (التهذيب) : تدل الآية على المنع من الإسراف . وذلك على وجهين :
أولهما : إتفاق في معصية كالنخار واللعب والزنى والخمر ونحوها . وثانيهما : أن يتعدى الحدود وذلك مختلف بحال اليسار والإعسار . لأن من له قدر يسير ، لو أنفق في ضيافة أو طيب أو ثياب خز ، وهو وعياله يحتاجون إليه ، فهو سرف محرم . ومثله في الموسرين لا يقيح ولا يكون سرفاً . وتدل على أن الأشياء على الإباحة . والعقل يدل على ذلك . لأنه تعالى خلقه لمنافعهم . والسمع ورد مؤكداً . ولذلك قال : (مَنْ حَرَّمَ) مطالباً بدليل سمعيّ اهـ .
وقد روى الإمام أحمد ^(١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال :
كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير نخيلة ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده . وأخرج النسائي ^(٢) وابن ماجه ^(٣) نحوه .
وقال البخاري ^(٤) : قال ابن عباس : كل ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك اثنتان :

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٨١ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) الحديث رقم ٦٦٩٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه النسائي في : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٦٦ - باب الاختيال في الصدقة .

(٣) أخرجه ابن ماجه في : ٣٢ - كتاب اللباس ، ٢٣ - باب البس ماشئت ،

ما أخطأك سرف أو نخيلة ، حديث رقم ٣٦٠٥ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخاري في : ٧٧ - كتاب اللباس ، ١ - باب قول الله تعالى : قُلْ مَنْ

حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

سرف أو مخيلة . ورواه ابن جرير ^(١) عنه أيضاً بلفظ : أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة . قال الشهاب : هذا (أى ما قاله ابن عباس) لا يناق ما ذكره الثعالبي وغيره من الأدباء ؛ أنه ينبغي للإنسان أن يأكل ما يشتهي ، ويلبس ما يشتهي الناس ، كما قيل :
نصيحة نصيحة قالت بها الأكياس
كل ما اشتهيت والبس نَّ ما اشتهته الناس

فإنه لترك ما لم يعتد بين الناس ، وهذا لإباحة كل ما اعتاده . و (المخيلة : السكبر) .
و (ما) دوامية زمانية . و (أخطأتك) من قوطم : أخطأ فلان كذا ، إذا عدمه . وفي الأساس : من المجاز لن يخطئك ما كتب لك ، وأخطأ المطر الأرض : لم يصبها ، وتخطأته النبل : تجاوزته وتخطأته . انتهى .
وفي قوله تعالى : (إِنَّهُ وَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) وعيد وتهديد لمن أسرف في هذه الأشياء .
لأن من لم يحبه الله لم يرض عنه .

السادس - تناقل المفسرون وغيرهم ما قيل إن قوله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا) الآية - جمع الطب كله . وأصله ما حكاه الزمخشري والكرمانى في عجائبه ؛ أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق ، فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان . فقال له : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه . قال : وما هي ؟ قال : قوله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) ، فقال النصراني : ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب ! فقال : قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة . قال : وما هي ؟ قال قوله ^(٢) : المعدة بيت الداء ، والحمية

(١) الأثر رقم ١٤٥٢٩ من التفسير .

(٢) قال في كشف الخفاء ، رقم ٢٣٢٠ ما يأتي :

قال في (المقاصد) : لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ . بل هو من كلام الحارث بن كعدة طبيب العرب ، أو غيره .

رأس الدواء ، وأعط كل بدن ما عودته . فقال النصرانيّ : ما ترك كتابكم ولا نبيكم
لجالينوس طبياً .

قال في (العناية) : وترك بعضهم تمام القصة ، لأن في ثبوت هذا الحديث كلاماً للمحدثين .
وفي شعب الإيمان للبيهقيّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ، فإذا سحت المعدة ، صدرت العروق بالصحة ،
وإذا فسدت المعدة ، صدرت العروق بالسقم . - انتهى - .

أقول : إن سحت هذه الحكاية ، فصواب جواب النصرانيّ في سؤاله الثاني بالتفنيد
والفرية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر عنه من بدائع الطب وأصناف العلاج ما لم
يؤثر عن نبيّ قط . وللمحدثين ، في عهد السلف ، منه قسم كبير في جوامعهم ومسانيدهم . وأما
أعلام المتأخرين فقد اضطروهم وفرة ما روى في ذلك إلى تدوينه في أسفار مطولة ومختصرة
بمعنوان (الطب النبويّ) . وقد بين الإمام ابن القيم : عليه الرحمة ، اشتمال التنزيل العزيز على
أصول الطب ، والسنة المطهرة على بدائعه ، في كتابه (زاد المعاد) ، بياناً يدهش الألباب ،
وفوق كل ذي علم عليم . قال ، عليه الرضوان ، في كتابه (زاد المعاد ، في هدى خير العباد) :

فصل

قد أتينا على جمل من هديه ﷺ في المغازي والسير والبعوث والسرائي والرسائل والكتب
التي كتب بها إلى الملوك ونوابهم ، ونحن نتبع ذلك بذكر فصول نافعة في هديه في الطب الذي
تطب به ، ووصفه لغيره ، ونبين ما فيه من الحكمة التي يعجز أكثر عقول أكثر الأطباء عن
الوصول إليها ، وأن نسبة طبهم إليها كنسبة طب العجائز إلى طبهم ، فنحن نقول وبالله المستعان :
المرض نوعان : مرض القلوب ، ومرض الأبدان . وهما مذكوران في القرآن . ومرض

القلب نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغى ؛ وكلاهما فى القرآن . قال تعالى فى مرض الشبهة : **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** ^(١) ، وقال تعالى : **وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا** ^(٢) . وقال تعالى فى حق من دعى إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض : **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ** * **وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَى اللَّهِ مُذْغِبِينَ** * **أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أُرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْجِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ** ، **بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ^(٣) .
فهذا مرض الشبهات والشكوك .

وأما مرض الشهوات فقال تعالى : **يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنًا كَأَٰحِدٍ مِّنَ النِّسَاءِ** ، **إِنْ أَتَقَيْنَ** ^(٤) **فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ^(٥) . فهذا مرض شهوة الزنى - والله أعلم .

وأما مرض الأبدان فقال تعالى ^(٥) : **لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ** . وذكر مرض البدن فى الحج والصوم والوضوء لسرّ بديع ، يبين

(١) [٢ / البقرة / ١٠] ... وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

(٢) [٧٤ / المدثر / ٣١] ونصها : وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ .

(٣) [٢٤ / النور / ٤٨ - ٥٠] .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٢] .

(٥) [٢٤ / النور / ٦١] ... وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا بِيُوتِكُمْ =

ذلك عظمة القرآن والاستغناء به ، لمن فهمه وعقله ، عن سواء . وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظ الصحة ؛ والحماية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة . فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في هذه المواضع الثلاثة . فقال في آية الصوم : فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ^(١) . فأباح الفطر للمريض لعذر المرض ؛ والمسافر ، طلباً لحفظ صحته وقوته ، لئلا يذهبها الصوم في السفر ، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبها من التحليل وعدم الغذاء الذى يخلف ما تحلل ، فتخور القوة وتضعف ، فأباح للمسافر الفطر حفظاً لصحته وقوته عما يضعفها . وقال في آية الحج : فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ^(٢) . فأباح للمريض ، ومن به أذى من رأسه ، من قل أو

= أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ١٨٤] أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، ... وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ وَ... ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ وَ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

حكمة أو غيرها ، أن يخلق رأسه في الإحرام استفرغاً لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر ، وإذا خلق رأسه تفتحت المسامات فخرجت تلك الأبخرة منها . فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤدي انحباسه . والأشياء التي يؤدي انحباسها ومدافعتها عشرة : الدم إذا هاج ، والمني إذا سبغ ، والبول والغائط والريح والقيء والعطاس والنوم والجوع والعطش . وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داءً من الأدواء بحبسه . وقد نبه سبحانه ، باستفراغ أذناها وهو البخار المحتقن في الرأس ، على استفراغ ما هو أصعب منه ، كما هي طريقة القرآن ؛ التنبيه بالأدنى على الأعلى .

وأما الحمية ، فقال في آية الوضوء : وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا^(١) . فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب رحمة له أن يصيب جسده ما يؤديه . وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له ، من داخل أو خارج . فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب ، ومجامع قواعده ونحن نذكر هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، ونبين أن هديه فيه أكمل هدى .

فأما طب القلوب ، فسلم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم ، وعلى أيديهم . فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها ، وبأسماؤه وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ولحاجته ، متجنبه لمناهيه ومساخطه . ولا صحة لها ولا حياة لها البتة إلا بذلك ، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل . وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم ، فغلط ممن يظن ذلك . وإنما ذلك حياة نفسه

(١) [٤ / النساء / ٤٣] يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، ... فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا غَفُورًا .

البهيمة الشهوانية وصحتها وقوتها . وحياة قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل . ومن لم يميز بين هذا وبين هذا ، فليكن على حياة قلبه ، فإنه من الأموات . وعلى نوره ، فإنه منغمس في بحار الظلمات - انتهى - :

وقد قرر رحمه الله هذا المقام بأسلوب آخر في كتابه (طريق المهجرتين) نوره أيضاً لبداية أسلوبه . قال عليه الرحمة :

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعى بفساد يعرض له ، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فإما أن يذهب إدراكه بالسكية كالعمى والصمم والشلل ، وإما أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه ، كما يدرك الحلومراً ، والخبيث طيباً ، والطيب خبيثاً . وأما فساد حركته الطبيعية ، فمثل أن تضعف قوته الهاضمة أو الماسكة أو الدافعة أو الجاذبة . فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة ؛ وسبب هذا الخروج عن الاعتدال ، إما فساد في الكمية أو في الكيفية فالأول إما نقص في المادة فيحتاج إلى زيادتها ، وإما زيادة فيها فيحتاج إلى نقصانها . والثاني إما بزيادة الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو اليبوسة أو نقصانها عن القدر الطبيعى ، فيداوى بمقتضى ذلك . ومدار الصحة على حفظ القوة والحماية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة . ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة . وقد تضمنها الكتاب العزيز ، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة . فأما حفظ القوة فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا في رمضان ، ويقضى المسافر إذا قدم ، والمريض إذا برأ ، حفظاً لقوتيهما عليهما . فإن الصوم يزيد المريض ضعفاً ، والمسافر محتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر ، فالصوم يضعفها . فأما الحماية عن المؤذى ، فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل إذا كان يضره ، وأمره بالعدول إلى التيمم ، حماية له

عن ورود المؤذى عليه من ظاهر بدنه ، فكيف بالمؤذى له فى باطنه ؟ وأما استفراغ المادة الفاسدة ، فإنه سبحانه أباح للمحرّم الذى به أذى من رأسه أن يحلقه ، فيستفرغ الحلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفّها ، فنبّه به على ما هو أحوج إليه منه .
وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا فقال : والله ! لو سافرت إلى الغرب فى معرفة هذه الفائدة ، لكان سفرًا قليلًا - أو كما قال - انتهى .

ثم ردّ تعالى على من حرّم شيئًا من المأكّل والمشرب والملابس ، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ، تأكيّدًا لما سبق ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، كَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« قُلْ » أى لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم « مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ » أى من الثياب وسائر ما يتجمل به « الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ » من النبات كالقطن والكتان ، والحيوان كالحرير والصوف ، والمعادن كالدرّوع . هكذا عمّم المفسرون هنا . ووجهه أن تخصّيصه يعنى عنه ما مرّ « وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » أى المستلذات من المأكّل والمشرب .

قال المهايى : يعنى إن زعموا أن التزين والتلذذ ينافيان التذلّل الذى هو العبادة ، فيحرمان معها ، فأعلمهم أنه قد أخرجها لعباده الذين خلقهم لعبادته ليتزينا بها حال العبادة ، فعل عبید الملوك إذا حضروا خدمتهم ، ولا ينافى ذلك تذللهم لهم ، وكذلك الطيبات التى خلقها لتطيب قلوب عباده ليشكروه ، والشكر عبادة ، فلا ينافى التلذذ العبادة ، بل قد يكون داعية إليها . انتهى .

تنبيهات

الأول - فسرت (الطيبات) : (الحلال ، وفسرت : (اللحم والدسم) الذى كانوا يحرمونه أيام الحج كالتقدم ، وفسرت : (البحائر والسوائب) كما قال تعالى ^(١) : قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا . وظاهر أن لفظ الآية أعم من ذلك ، وإن كان يدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ، لأنها إنما وردت نعيماً عليهم فيه ، والعبرة بعموم اللفظ .

قال الرازى : لفظ (الزينة) يتناول جميع أنواع التزين ، ومنه تنظيف البدن ، ومنه المركوب ، ومنه أنواع الحلى (يعنى للنساء) . ثم قال : ويدخل تحت (الطيبات) كل ما يستلذ ويشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ، ويدخل تحته التمتع بالنساء والطيب . وقد رد النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) على عثمان بن مظعون ، ما هم به من الاختصاص والتبطل .

الثانى - دلت الآية على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة ، لأن الاستفهام فى (مَنْ) لإنكار تحريمها على وجه بليغ ؛ لأن إنكار الفاعل يوجب إنكار الفعل لعدمه بدونه .

الثالث - فى الآية رد على من تورّع من أكل المستلذات ولبس الملابس الرقيقة ، لأنه لا زهد فى ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية معفونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرم ذلك على نفسه ، أو حرّمه على غيره . وما أحسن ما قال ابن جرير الطبرى : لقد أخطأ

(١) [١٠ / يونس / ٥٩] . . . قُلْ آلهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ .

(٢) جاء فى طبقات ابن سعد (ج ٣ ص ٣٩٤ ، طبعة بيروت) قال : أخبرنا سليمان ابن داود الطيالسى قال : أخبرنا إبراهيم بن سعد عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيّب ، عن سعد بن أبى وقاص قال : لقد ردّ رسول الله ﷺ ، على عثمان بن مظعون ، التبطل . ولو أذن له فى ذلك ، لاختصى .

من أثر لباس الشعر والصوف، على لباس القطن والكتان ، مع وجود السبيل إليه من حله،
وَمَنْ أَكَلِ الْبَقُولَ وَالدُّمُسُ ، واختاره على خبز البرّ ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من
عارض الشهوة - انتهى - .

الرابع - قال ابن الفرس : واستدل بالآية من أجاز لبس الحرير والخزّ للرجال . وقد
أخرج ابن أبي حاتم عن سنان بن سلمة أنه كان يلبس الخزّ ، فقال له الناس : مثلك يلبس
هذا ؟ فقال لهم : من ذا الذي يحرم زينة الله التي أخرج لعباده ؟ ولكن أخرج عن طاووس
أنه قرأ هذه الآية وقال : لم يأمرهم بالحرير ولا بالدباج ، ولكنه كانوا إذا طاف أحدهم وعليه
ثيابه ضرب وانتزعت عنه . كذا في (الإكليل) .

أقول : عدم شمول الآية للحرير غنى عن البيان ، لأن ما خصه الدليل لا يتناول العام .
والأحاديث في تحريم الحرير لا تحصى كثرة ، فاستنباط حله منها مردود على زاعمه .
« قُلْ هِيَ » أى زينة الله والطيبات ، مخلوقة « لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »
بالأصالة ، والكفرة وإن شاركهم فيها فتبع « خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى : لا يشاركهم
فيها غيرهم ؛ لأن الله حرم الجنة على الكافرين . وانتصابها على الحالية . وقرئ بالرفع ، أى
على أنه خبر بعد خبر .

لطيفة :

قال المباحي : إنما خلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذات الآخرة ، فيرغبوا فيها مزيد رغبة ،
لكن شاركهم الكفرة فيها لئلا يكون هذا الفرق ملجئاً لهم إلى الإيمان . فإذا ذهب هذا
المعنى ، تصير خالصة لهم يوم القيامة ، فلو حرمت على المؤمنين لكانت مخلوقة للكافرين ، وهو
خلاف مقتضى الحكمة . وإن خلقت للمؤمنين فأولى أوقات الانتفاع بها وقت جريانهم
على مقتضى الإيمان ، وهو العبادة والتقوى ، ولكن من غير انهماك في الشهوات .
« كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى الحكمة في خلق الأشياء ، واستعمال

الأشياء على نهج ينفع ولا يضر . فإن زعموا أنه يُخاف من التزين والتلذذ الوقوع في الكبر ،
والانهماك في الشهوات ، فيحرمان على أهل العبادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قُلْ » إنهما من المنافع الخالصة في أنفسهما . والإفشاء احتمال غير محقق . فإذا أفضى ،
فالحرّام هو المفصّل إليه بالذات لأنه « إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ » أى : ما تفاحش قبحه
من الذنوب ، أى ترايد (وهى الكبائر) وهى ما يتعلق بالفروج « مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ »
أى : ما جاهر به بعضهم بعضاً ، وما ستره بعضهم عن بعض ، وما ظهر من أفعال الجوارح ،
وما بطن من أفعال القلوب « وَالْإِثْمَ » أى : ما يوجب الإثم ، وهو عام لكل ذنب ،
وذكره للتعميم بعد التخصيص . ويقال : إن الإثم هو الخمر ، قال الشاعر^(١) :

نهانا رسول الله أن تقرّب الزنى وأن نشرب الإثم الذى يوجب الوزر
وأنشد الأخفش^(٢) :

شربتُ الإثم حتى ضلّ عقلى كذلك الإثم تذهبُ بالعقول

وهو منقول عن ابن عباس والحسن . وذكره أهل اللغة كالأصمعي وغيره . قال الحسن :
ويصدق قوله تعالى : قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ^(٣) . وقال ابن الأنباري : لم تسم العرب الخمر

(١) لم أقف على هذا البيت في محل ما ، ولم أعرف اسم هذا الشاعر .

(٢) استشهد به في اللسان ، مادة (ا ث م) بالصفحة رقم ٦ من المجلد الثانى عشر

(طبعة بيروت) .

(٣) [٢ / البقرة / ٢١٩] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا =

إنَّمَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامَ ، والشعر المذكور موضوع . وردَّ بأنه مجاز ، لأنه سببه . وقال أبو حيان : هذا التفسير غير صحيح هنا ، لأن السورة مكية ، ولم تحرم الخمر إلا بالمدينة بعد أحد ، وقد سبقه إلى هذا غيره . وأيضاً ، الحصر يحتاج إلى دليل . كذا في (العناية) « وَالْبَغْيَ » أى : الاستطالة على الناس وظلمهم . إنما أفرد به بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، للمبالغة في الزجر عنه . وذلك لأن تخصيصه بالذكر يقتضى أنه تَمَيَّزَ من بينها حتى عدَّ نوعاً مستقلاً « بِغَيْرِ الْحَقِّ » متعلق بـ (البغى) ، مؤكداً له معنى . وقيل : البغى قد يخرج عن كونه ظاهراً إذا كان بسبب جازٍ في الشرع ، كالقصاص ، إلا أن مثله لا يسمى بغياً حقيقة ، بل مشاكلة « وَ » قد حرّم « أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا » أى : برهاناً أى : ما لم يقم عليه حجة . قال الزمخشري : فيه تهكم ، لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره . وفي (العناية) : إنما جاء التهكم من حيث أنه يوهّم أنه لو كان عليه سلطان لم يكن محرماً ، دلالة على تقليدهم في الغي . والمعنى على نفى الإنزال والسلطان معاً على الوجه الأبلغ - انتهى - قال الرازي : وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل . وتبعه القاضي فقال : في الآية تنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان « وَ » قد حرّم عليكم « أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : تتقولوا عليه ، وتفتروا الكذب في التحليل والتحريم ، أو في الشرك .

تنبيه :

قال الجسّمي : تدل الآية على تحريم جميع الذنوب ، لأن قوله (أَلْفَوْحِشَ وَالْإِثْمَ) يشتمل على الصغير والكبير ، والأفعال القبيحة ، والعقود المخالفة للشرع ، والأقويل الفاسدة ، والاعتقادات الباطلة . ودخل في قوله (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب

= إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

والخيانة ، والمكر ، والخديعة . ودخل تحت قوله (وَالْبَغْيَ) كل ظلم يتعدى على الغير ، فيدخل فيه ما يفعله البغاة والخوارج ، والأمراء إذا انتصروا بغير حق . ودخل تحت قوله (وَأَنْ تُشْرِكُوا) تحريم كل شرك وعبادة لغير الله . ودخل تحت قوله (وَأَنْ تَقُولُوا) كل بدعة وضلالة وفتوى بغير حق ، وشهادة زور ونحوه . فالآية جامعة في المحرمات ، كما أن ما قبلها جامعة في المباحات . وفيه تعليم للأدب ، ديناً ودنياً ، وتدل على بطلان التقليد ، لأنه أوجب اتباع الحجة ، لقوله (مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا) ، والسلطان الحجة . وتدل على أن لكل أحد وقت حياة ، ووقت موت ، لا يجوز فيه التقديم والتأخير ، فيبطل قول من يقول : المقتول مات قبل أجله . انتهى .

ثم أوعد تعالى أهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عنده سبحانه ، كما نزل بالأمم ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى : مدة أو وقت لنزول العذاب بهم « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ » أى : ميقاتهم المقدر لهم « لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » أى : لا يتركون بعد الأجل شيئاً قليلاً من الزمان ، ولا يهلكون قبله كذلك . والساعة مثل في غاية القلة من الزمان .

لطائف

١ - وقع هذا التركيب في موضع من التنزيل ، وفيه بحث مشهور : وهو أنه لما كان الظاهر عطف (لا يستقدمون) على (لا يستأخرون) كما أعربه الحوفي وغيره ، أُورِدَ عليه أنه فاسد ، لأن (إذا) إنما يترتب عليها الأمور المستقبلة لا الماضية ، والاستقدام حينئذ بالنسبة إلى مَجَلِّ الأجل متقدم عليه ، فكيف يترتب عليه ما تقدمه ؟ ويصير باب الإخبار

بالضروري الذي لافائدة فيه ، كقولك : إذا قت فيما يأتي ، لم يتقدم قيامك فيما مضى . وأجيب بأن المراد بالحيء الدنو ، بحيث يمكن التقدم في الجملة ، كجىء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة فيه . وقيل : إن جملة (لَا يَسْتَقْدِمُونَ) مستأنفة . وقيل : إنها معطوفة على الشرط وجوابه ، أو على القيد والمقيّد . أو أن مجموع (لا يستأخرون ولا يستقدمون) كناية عن أنهم لا يستطيعون تغييره . والتحقيق أنه عطف على (يَسْتَأْخِرُونَ) لكن لا لبيان انتفاء التقدم ، مع إمكانه في نفسه كالتأخر ، كما يتوهم ، بل للبالغة في انتفاء التأخر . يعني أن التأخر مساوٍ للتقدم في الاستحالة ، ولذا نظمهم معه في سلك ، كافي قوله سبحانه ^(١) : (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمْوَتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) فإن من مات كافراً مع ظهور أن لا توبة له رأساً ، قد نظم في عدم القبول ، في سلك من سوفها إلى حضور الموت . إيذاناً بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة .

٢ - تقديم بيان انتفاء الاستئجار ، لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب . وأما (ما) في قوله تعالى : (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) ^(٢) من سبق (السابق) في الذكر ؛ فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير إهلاكهم مع استحقاقهم له ، حسبما ينبي عنه قوله تعالى : (ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُؤْمِنُوا بِالْآلَمَلِ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) ^(٣) . فالأهم هناك بيان انتفاء السابق .

٣ - صيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك ، مع طلبهم له ، أفاده أبو السعود . ثم أنذر تعالى بني آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً يهدونهم ، وبشر وأنذر بقوله سبحانه :

(١) [٤ / النساء / ١٨] . . . أَوْ لَعَلَّكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٢) [١٥ / الحجر / ٥] .

و [٢٣ / المؤمنون / ٤٣] .

(٣) [١٥ / الحجر / ٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يَبْنِيْٓءَادَمَٓ اِمًا يٰٓاَتِيْنَكَمْ رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَاقُصُوْنَ عَلَيْكُمْ ؕ اٰتٰىتِىْ فَمَنْ اٰتٰتٰى وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ)

« يَبْنِيْٓءَادَمَٓ اِمًا يٰٓاَتِيْنَكَمْ رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَاقُصُوْنَ عَلَيْكُمْ ؕ اٰتٰىتِىْ » شرط ذكره بحرف الشك ، للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب . وضمت إليها (ما) لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك أكد فعلها بالنون الثقيلة أو الخفيفة . والمراد ببني آدم جميع الأمم ، وهو حكاية لما وقع مع كل قوم . وليس المراد بالرسول نبينا ﷺ وبني آدم أمته ، كما قيل ، فإنه خلاف الظاهر - كذا في (القاضى وحواشيه) - وجواب الشرط قوله تعالى « فَمَنْ اٰتٰتٰى » أى التكذيب « وَاصْلَحَ » أى عمله « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من العذاب « وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ » فى الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَاۙ اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ)

« وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا » أى تكبروا « عَنْهَا » فلم يؤمنوا بها
اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ » :

تنبيه :

قال الجسمى : تدل الآية على وجوب اتباع الرسل ، وقبول ما يؤدّون . وتدل على أن الصلاح فى الرسل أن تكون من جملة من بعث إليهم ، لأنهم يكونون بطريقته أعرف ، ومن النفار عنه أبعد ، وإلى السكون إليه أقرب . وتدل على أن الغرض بالرسول ما يؤدى من الأدلة ، فلذلك قلنا لا يجوز أن يكون رسولاً إلا ومعه ما يؤديه : وتدل على أن الجنة تنال بشيئين :

بالأعمال الصالحة ، واتقاء المعاصي ، فبطل قول المرجئة . وتدل على أن المؤمن في الآخرة لا يخاف ولا يحزن، خلاف ما يقوله الأحسده (كذا) والحشوية - هكذا قاله أكثر أصحابنا .
وقال أبو بكر أحمد بن علي : قوله (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) كقول الطبيب للمريض (لا بأس عليك) يعني أن أمره يؤول إلى العافية . وليس هذا بالوجه لأنه نفى الخوف والحزن مطلقاً . وتدل على الوعيد للمكذبين ، كما تدل على الوعد للمطيعين ، ترغيباً وترهيباً . وتدل على أن التقوى والصلاح والتكذيب فعل العبد ، فبطل قولهم في الخلق والاستطاعة . انتهى كلامه رحمه الله .

ثم ذكر تعالى وعيد المكذبين الذين تقدم ذكرهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » أي من تقول على الله كذباً بالتحليل والتحریم ، أو بنسبة الولد والشریک ، أو كذب بآياته المنزلة « أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ » أي يصيبهم حظهم مما كتب لهم من الرزق والعمر وغير ذلك . أي مع ظلمهم وافتراءهم وتكذيبهم ، لا يُخْرَمُونَ ما قدر لهم من العمر والرزق إلى انقضاء آجالهم . وفي الآية وجوه أخر ، هذا أظهرها وأقواها في المعنى ، وتتمة الآية تدل عليه ، وحينئذ تتلاق مع نظائرهما ، كقوله تعالى : قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ^(١) .

(١) [١٠ / يونس / ٦٩ و ٧٠] .

وقوله تعالى : وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُمْ - إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ... (١) الآية - « حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُخَوِّفُهُمْ » أى : ملائكة الموت تقبض أرواحهم « قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها ليكنوا لكم شفعاء ، فلا نراهم يخلصونكم مما تحقق عليكم من هذه الشدائد . وفائدة السؤال وجهان : توبيخ وتبكيه لهم يزيدهم غمًا إلى غم ، ولطف بالمكاف لأنه إذا تصور ذلك صرفه عن التكذيب . و (ما) وقعت موصولة بـ (أين) فى خط المصحف العثماني ، ومقتضى الاصطلاح الفصل لأنها موصولة « قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » أى : غابوا عنا فلم يخلصونا من شيء « وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ » أى : عابدين لما لا يستحق العبادة . اعترفوا بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه ، وأنهم لم يحمده فى العاقبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَاهُمْ عَذَابًا مِنْ النَّارِ ، قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ)

« قَالَ » أى الله ، سبحانه ، لهم فى الآخرة « ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ » أى فى جملة أُمَمٍ قد مضت « مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ » يعنى كفار الأمم الماضية من النوعين « فِي النَّارِ » متعلق بـ (ادخلوا) « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ » أى فى النار « لَعَنَتْ أُخْتَهَا » أى التى

(١) [٣١ / لقمان / ٢٣ و ٢٤] ... ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

قبلها لضلالها بها، كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام^(١): ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ... الآية - « إِذَا أَدَارَ كُؤًا فِيهَا جَمِيعًا » أى تداركوا، بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار « قَالَتْ أُخْرَاهُمْ » وهم الأتباع « لِأُولَاهُمْ » أى : لأجل أولاهم، إذ الخطاب مع الله سبحانه ، لامعهم . قال ابن كثير : أى قالت أخراهم دخولاً وهم الأتباع ، لأولاهم وهم المتبعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السبيل، فيقولون: « رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا » أى سنوا لنا الضلال، ودعوا إليه ، فاقتدينا بهم « فَأَنزَلْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ » أى مضاعفاً لأنهم ضلّوا وأضلّوا « قَالَ » أى تعالى « لِكُلِّ ضِعْفٍ » أى عذاب مضاعف. أما القادة والرؤساء فبالضلال والإضلال . وأما الأتباع والسفلة ، فبالضلال وتقليد أهل الضلال ، مع وجود الهادين بالبراهين القاطعة « وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ » أى مالكم ، أو مالكل فرقة . وقرئ بالياء . وعليها ، فهو تذييل لم يقصد إدراجه في الجواب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

« وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ » أى لافضل لكم علينا في ترك الكفر والضلال حتى يكون عذابنا مضاعفاً دونكم ، فقد ضللتكم كما ضللنا ، ففحن وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب. وقوله تعالى: « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » من قول القادة ، أو من قول الله تعالى للفريقين ، وهو أظهر .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] ونصها : وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن لَّصِيرِينَ .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على أن الكفار والضلال والمبتدعة ، وإن تناصروا وتعاونوا على ضلالتهم ، وتوادوا في الدنيا ، فإنهم في الآخرة يتلاعنون ويتقاطعون ويسألون العذاب لمن أضلهم . وتدل على فساد التقليد ، والاعتزاز بقول علماء سوء . وتدل على أن الداعي إلى الضلال مضل . وتدل على أن إضلال غيره إياه ليس بعذر له . وتدل على أن اشتراكهم في العذاب لا يوجب لهم راحة ، بخلاف الاشتراك في محن الدنيا . وتدل على أن ذلك الإضلال فعلهم ، فيبطل قول المجبرة في المخلوق ، والهدى والضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِلَاطِ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ » أى لا تفتح لأعمالهم ، ولا لدعائهم ، ولا لشئ مما يريدون به طاعة الله . أى لا يقبل ذلك منهم ، لأنه ليس صالحاً ولا طيباً . وقد قال سبحانه : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)^(١) قال ابن عباس : أى لا يرفع لهم منها عمل صالح ، ولا دعاء رواه جماعة عنه . وقاله مجاهد وابن جبير . أو المعنى : لا تنزل عليهم البركة والرحمة ، ولا يغاثون ، لأنه أجرى العادة بإزالة الرحمة من السماء ، كما في قوله : (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ)^(٢)

(١) [٣٥ / فاطر / ١٠] مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا . . . وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْورُ .
(٢) [٥٤ / القمر / ١١] .

أو المعنى : لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة ، على ما روى أن الجنة في السماء . أو المعنى لا تفتح لأرواحهم ، إذا ماتوا ، أبواب السماء ، كما تفتح لأرواح المؤمنين - رواه الضحاك عن ابن عباس - ورواه ابن جرير^(١) عن البراء ؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملائكة من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون فلان ! (بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا) حتى يفتوها بها إلى السماء ، فيستفتحون له ، فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ (لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ . . .) الآية - قال ابن كثير : هكذا رواه . وهو قطعة من حديث طويل ، رواه الإمام أحمد^(٢) مطولا وأبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق .

(١) الأثر رقم ١٤٦١٤ من التفسير .

(٢) هأنذا أثبت هذا الحديث مطولا . فقد رواه في المسند بالصفحتين ٢٨٧ و ٢٨٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ونصه :

عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار . فأنهينا إلى القبر ولمّا يلحد . فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير . وفي يده عود ينسكت في الأرض فرفع رأسه فقال « استمعيدوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثا ثم قال « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس . معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر . ثم يحجىء ملك الموت ، عليه السلام ، حتى يجلس عند رأسه . فيقول : أيتها النفس الطيبة ! اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها . فإذا أخذها ، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها . فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط . ويخرج منها كأطيب

تنبيهات :

الأول - قال الشهاب كون السماء لها أبواب ، وأنها تفتح للدعاء الصالح ، وللأعمال الصاعدة أو للأرواح - وورد في النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، فلا حاجة إلى تأويل . انتهى .

= نفحة مسك وجدت على الأرض . قال فيصعدون بها . فلا يعمرون (يعني بها) على ملائكة من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا) حتى ينتموا بها إلى السماء الدنيا . فيستفتحون له فيفتح لهم . فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة . فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض . فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت .

فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى . فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة .

قال فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره .

قال ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت تعدّه . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجرى بالخير . فيقول : أنا عمك الصالح . فيقول : رب ! أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال ، وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح . فيجلسون منه مدّ البصر . ثم يجيء =

وهذا على قاعدة أهل الظاهر في مثل ذلك ، إلا أن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة .
والتنزيل الكريم ، إنما ورد على مناحٍ للعرب معروفة في لسانهم - والله أعلم .

= مَلَك الموت حتى يجلس عند رأسه فقول : أيتها النفس الخبيثة ! اخرجي إلى سخط
من الله وغضب .

قال فتفرق في جسده . فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول . فيأخذها . فإذا
أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك الوسوح . ويخرج منها كأنن ربح
جيفة وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها . فلا يمرون بها على ملاٍ من الملائكة إلا
قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها
في الدنيا) حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا . فيستفتح له فلا يفتح له . » .

ثم قرأ رسول الله ﷺ « لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ
الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ . » فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض
السفلى . فتطرح روحه طرحا .

ثم قرأ : وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ
الرَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . « فتعاد روحه في جسده . ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له :
من ربك ؟ فيقول : هاهاه . لا أدري . فيقولان له ما دينك ؟ فيقول : هاهاه . لا أدري .
فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاهاه . لا أدري . فينادى مناد
من السماء : أن كذب . فافرشوا له من النار . وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرها
وسمومها . ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه . ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ،
منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوءك . هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت ؟
فوجهك الوجه يجيء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب ! لا تقم الساعة . » .
وأخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنّة ، ٢٤ - باب في المسألة في القبر وعذاب القبر ،

حديث ٤٧٥٣ .

الثانى - التضعيف فى (تفتح) لتكثير المفعول ، لا الفعل لعدم مناسبة المقام .
الثالث - قرئ بالتخفيف فى (تفتح) وبالتخفيف ، والياء . وقرئ على البناء للفاعل ،
ونصب الأبواب ، على أن الفعل للآيات مجازاً ، وبالياء على أنه لله تعالى .
« وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ » أى يدخل « الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ » أى ثقب
الإبرة ، وهو غير ممكن ، فكذا دخولهم .

اطائف

الأولى - قرأ الجمهور (الجمل) بفتح الجيم والميم ، وفسروه : بأنه الجمل المعروف وهو البعير
قال الفراء : الجمل زوج الناقة . وقال شمر : البكر والبكرة بمنزلة الغلام والجارية ، والجمل
والناقة بمنزلة الرجل والمرأة . وقرئ فى الشواذ (الجمل) كسكّر وصرّد وقفل وغنق وجبل
بمعنى جبل السفينة الغليظ الذى يقال له (القلّس) .
وقال أبو البقاء : يقرأ فى الشاذ بسكون الميم ، والأحسن أن يكون لغة ، لأن تخفيف
الفتوح ضعيف ؛ ويقرأ بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ، وهو الجبل الغليظ ، وهو جمع
مثل صُومَ وقُومَ ؛ ويقرأ بضم الجيم والميم مع التخفيف وهو جمع مثل أسد وأسد ؛ ويقرأ
كذلك إلا أن الميم ساكنة ، وذلك على تخفيف المضموم - انتهى - .
وذكر الكواشى أن القراءات المذكورة كلها لغات فى البعير ما عدا « جَمَلًا » كسكّر
وقفل ، ونوقش فى ذلك - انتهى - .

وقراءته (كسكّر) على معنى الجبل المذكور ، رواها مجاهد وعكرمة عن ابن عباس ،
واختارها سعيد بن جبير .

قال الرّمحشرى : وعن ابن عباس رضى الله عنه ، أن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه
بالجمل ، أن الجمل مناسب للخيط الذى يسلك فى سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه . إلا أن
قراءة العامة أوقع ، لأن سم الإبرة مثل فى ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خرت الإبرة .

وقالوا للدليل الماهر (خَرَّيْتُ) للابتداء به في المضايق المشبهة بأخترات الإبر ؛ والجلُّ مثل في عظم الجرم ، قال (١) :

*** جسم الجمال وأحلام العصافير ***

إن الرجال ليسوا بِجَزَرٍ تراد منهم الأجسام ، فقيـل : لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان ، الذي لا يلج إلا في باب واسع ، في ثقب الإبرة .. وعن ابن مسعود : أنه سئل عن الجمل ؟ فقال : زوج الناقة ، استجهاً للسائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف - انتهى - .

وحاصله أن الجمل لما كان مثلاً في عظم الجسم ، لأنه أكبر الحيوانات جسماً عند العرب ، وخرق الإبرة مثلاً في الضيق ، ظهر التناسب . على أن في إثبات الجمل ، وهو مما ليس شأنه الولوج في سم الإبرة ، مبالغة في استبعاد دخولهم الجنة .

الثانية - (السَّم) : الثقب الضيق . قال أبو البقاء : بفتح السين وضمها ، لغتان - انتهى وصرح بالتثليث فيه ، وفي القاتل المعروف ، صاحبُ القاموس وغيره ، إلا أنهم قالوا : المشهور في الثقب الفتح كما في التنزيل . والأفصح في القاتل الضم .

(١) صدر البيت :

*** لا بَأْسَ بالقوم من طُولٍ ومن عِظَم ***

وقائله حسان بن ثابت الأنصاري ، ورواية المعجز في الديوان :

*** جسمُ البغالِ وأحلامُ العَصَافِيرِ ***

قاله من قصيدة يهجو بها النجاشي الشاعر ومطلعها :

حَارِبِ بْنِ كَعْبٍ أَلَا أَحْلَامُ تَزْجُرُكُمْ عَنَا وَأَنْتُمْ مِنَ الْجُوفِ الْجَمَّاعِينَ

قوله : تزجركم عنا ، أي عن هجائنا . والجوف ، جمع أجوف ، وهو واسع الجوف . والجماهير جمع جمخور ، وهو الواسع الجوف أيضاً . والمراد الضعفاء المستريحون .

قال العلامة الفاسي : قال الزبيدي : لم أر من تعرض لكسرهما ، وكأنها عامية .
قلت : قال الزمخشري : وقرئ (فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) بالحركات الثلاث ، وكفى به مرجعاً .
الثالثة - (الْخِيَاطِ) ككتاب ومنبر ، ماخبط به الثوب ، والإبرة - كذا في القاموس -
قال الزمخشري : وقرأ عبد الله (في سم الخياط) . قال الشهاب : بكسر الميم وفتحها ،
كما ذكره المعرب ، وهي قراءة شاذة .

الرابعة - قال السيوطي في (الإكمال) : في قوله تعالى (حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ ... الْخِ)
جواز فرض الحال ، والتعليق عليه كما يقع كثيراً للفقهاء - انتهى - .

والتعليق على الحال معروف في كلام العرب ، كقوله :

إِذَا شَابَ الْغَرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّابِنِ الْحَلِيبِ

وقوله تعالى « وَكَذَٰلِكَ » أي مثل ذلك الجزاء الفظيع « نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

« لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ » أي : فرش من تحتهم « وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » أي أغطية ،
إذ أحاطت بهم الخطيئة « وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » أي بالكفر ، وإنما عبر عنهم
بالمجرمين تارة ، وبالظالمين أخرى ، إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات ، اتصفوا بكل واحد
من ذينك الوصفين القبيحين . وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة ، والظلم مع
التعذيب بالنار الذي هو أشد من الحرمان المذكور - تنبيهاً على أنه أعظم الجرائم .
ثم تأثر تعالى وعيده بوعده ، على سنته في تنزيله الكريم ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » قال أبو البقاء : والذين آمنوا مبتدأ ، وفي الخبر وجهان : أحدهما - (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ، والتقدير (منهم) ، فحذف العائد ، كما حذف في قوله : وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ^(١) .

والثاني - أن الخبر (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) و (لَا نُكَلِّفُ) معترض بينهما - انتهى - وعلى الثاني اقتصر غير واحد من المحققين . قالوا : وسر الاعتراض ، الرغبة في اكتساب ما يؤدي إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله ، وتيسير تحصيله . والذي حسنه سبق العمل الصالح قبله . أي وإذا علم أن مبنى التكليف على الوسع ، زادت الرغبة في ذلك الاكتساب ، لحصوله بما فيه يسر لا عسر .

لطيفة :

الوسع : ما يقدر عليه الإنسان بسهولة ويستمر . قاله الرازي ، أخذاً من قول معاذ في الآية (يسرها لا عسرها) قال : وأما أقصى الطاقة فيسمى جهداً لا وسعاً . وغلط من ظن أن الوسع بذل المجهود .

قلت : في القاموس : الوسع (مثثلة) الجدة والطاقة كالسعة . وفيه : الجهد الطاقة (ويضم) والمشقة - انتهى - .

قال ابن الأثير : الجهد (بالفتح) المشقة ، وقيل : المبالغة والغاية ، وبالضم الوسع والطاقة ،

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٣] .

وقيل : هما لفتان في الوسع والطاقة ، فأما في المشقة والغاية ، فالفتح لا غير - انتهى -
وبه يعلم أن ما جرى عليه الرازي قول للغويين ، ليس وفاقاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ كُفْرُ الْجِنَّةِ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ » أى : نخرج من قلوبهم أسباب الحقد والحسد والعداوة ، أو نظهرها منها ، حتى لا يكون بينهم إلا التواد والتعاطف . وصيغة الماضي للإيدان بتحقيقه وتقرره وتقرره « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ » وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا » أى لما جزأوه هذا ، أى : لأسباب هذا العلو ، بإرسال الرسل والتوفيق للعمل « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ » أى ما كنا لنرشد لذلك العمل الذى هدا ثوابه ، لولا أن وفقنا الله بدلاً لله والطفه وعنايته « لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » أى : فاهتدينا بإرشادهم قال الزمخشري : يقولون ذلك ، أى (الْحَمْدُ لِلَّهِ ... الخ) سروراً واعتباطاً بما نالوا ، وتلذذاً بالتكلم به ، لا تقرباً ولا تعبدًا ، كما ترى من رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ، ولا يمالك أن لا يقوله ، للفرح والتوبة « وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ كُفْرُ الْجِنَّةِ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى : أعطيتموها بسبب أعمالكم في الدنيا . فاليراث مجاز عن الإعطاء ، تجوز به عنه إشارة إلى أن السبب فيه ليس موجباً ، وإن كان سبباً بحسب الظاهر ، كما أن الإرث ملك بدون كسب ، وإن كان النسب مثلاً سبباً له . وعلى ما تقرر ، فلا يقال إنه معارض لما ثبت في الصحيحين^(١) من قوله ﷺ : واعلموا أن أحداكم لن يدخله عمله الجنة ! قالوا

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ١٨ - باب القصد والمداومة على العمل ،

حديث ٢٤٢٧ ونصه :

=

ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل . ولا يحتاج إلى الجواب عنه ، ولا أن يقال الباء للعرض لا للسبب . وهذا تفجير للوعد بإثابة المطيع ، لا بالاستحقاق والاستيجاب ، بل هو بمحض فضله تعالى ، كالإرث - كذا في العناية - .
 روى الإمام مسلم^(١) عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً . فذلك قوله عز وجل (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ ...) الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

« وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ » أى إذا استقروا فى منازلهم « أَصْحَابَ النَّارِ » توبيخاً

= عن عائشة عن النبي ﷺ قال « سدّدوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لا يدخل أحداً الجنة عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة » .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٧٨ (طبعتنا) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٢٢ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي سعيد الخدرى وأبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال « ينادى منادٍ : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً . وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً . وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً . وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » .

فذلك قوله عز وجل : (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

وتحسيراً لهم « أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » حيث نلنا هذه المراتب العالية « فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » من تنزيلكم إلى أسفل سافلين ، لاستكباركم على الآيات والرسول « قَالُوا نَعَمْ » أى وجدناه حقاً « فَأَذَّنَ » أى نادى « مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ » أى بين الفريقين ليسمعهم ، زيادة فى شتامة أحد الفريقين وندامة الآخر « أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ) « الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى : يمنعون أنفسهم وغيرهم عن دينه القويم الذى بيّنه على السنة رسله لمعرفة وعمارته الدارين « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى : يبتغونها زيغاً وميلاً عما هى عليه ، حتى لا يتبعها أحد « وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ » أى وهم ببقاء الله فى الدار الآخرة جاحدون لا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون ، فيأتون المنكر من القول والعمل ، لأنهم لا يرجون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلِمَاتٍ بِسَيِّئِهِمْ ، وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) « وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ » أى : بين الفريقين سور وستر ، أو بين الجنة والنار ، لينعم وصول أثر إحداها إلى الأخرى . وقد سمي هذا الحجاب سوراً فى آية^(١) (فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا مِّنْ بَابٍ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) وقوله تعالى « وَعَلَى الْأَعْرَافِ » (١) [٥٧ / الحديد / ١٣] ونصها : يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِسْ مِنْ ثَوْرِكُمْ فَيَلَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَىٰ مِنْهُمْ فَلْتَمَسُوا نَوْراً . . .

رَجَالٌ» أى على أعراف الحجاب وشرفاته وأعالیه ، وهو السور المضروب بينهما ، جمع عَرَفَ ، مستعار من عرف الفرس ، وعرف الديك . وكل ما ارتفع من الأرض عرف ، فإنه بظهوره أعرف مما انخفض .

وقد حكى المفسرون أقوالاً كثيرة فى رجال الأعراف، عن التابعين وغيرهم ، أنهم فضلاء المؤمنين ، أو هم الشهداء ، أو الأنبياء ، أو قوم أودوا فى سبيل الله ، فاطلعوا على أعدائهم ليشتموا بهم ، فعرفوهم بسيماهم ، وسلموا على أهل الجنة . واللفظ ، لإيهامه ، يحتمل ذلك ، لأن السياق يدل على سمو قدرهم ، لا سيما يجعل منازلهم الأعراف ، وهى الأعلى ، والشرف ، كما تقدم ومن ذكر كلهم جديرون بذلك - والله أعلم - .

« يَعْرِفُونَ كَلَّالًا » أى من أهل الجنة والنار « بِسِيمَاهُمْ » أى بعلامتهم التى أعلمهم الله بها ، كبياض الوجه وسواده .

فائدة

السيما مقصورة وممدودة ، والسيمة والسيما ب كسرهن العلامة . قال القاضى : السيمى فعلى مَنْ (سام إبله) إذا أرسلها فى المرعى معاملة . أو من (وسم) على القلب (كالجاء) من (الوجه) . انتهى . وعلى الثانى اقتصر ابن دريد « وَنَادَوْا » أى رجالُ الأعراف « أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » أى حين رأوهم من أعرافهم ، وقد عرفوهم من سيماهم أنهم أهل الجنة « أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ » بطريق الدعاء والتحية ، أو بطريق الإخبار بنجاتهم من المسكاره . والوجه الأول هو المأثور عن ابن عباس رضى الله عنه فيما رواه عنه العوفى . قال رضى الله عنه : أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا مَنْ فى الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، ويتعذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم فى ذلك يحيمون أهل الجنة بالسلام « لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ » الضميران فى الجملتين لأصحاب الأعراف ، والأولى حال من الواو ، والثانية حال من فاعل (يَدْخُلُوهَا) ، أى نادَوْهم وهم لم يدخلوا الجنة بعد ، حال كونهم طامعين فى دخولها ، مترقبين .

قال الجشمي رحمه الله: قيل: إذا كان أصحاب الأعراف أفاضل المؤمنين، فلم تأخر دخولهم؟ قلنا: هم تعجلوا اللذة بالشهادة من الأعداء، وإن تأخر دخولهم، لظهور فضلهم، وجلالة طريقهم إلى منازلهم اهـ.

ولا يبعد عندي أن يكون جملة (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) حالاً من (أصحاب الجنة) أي نادوهم بالسلام وهم في الموقف على طمع دخول الجنة يبشرونهم بالأمان والفوز من العذاب، إشارة إلى سبق أهل الأعراف على غيرهم في دخول الجنة، وعلو منازلهم على سواهم - والله أعلم - .

وذهب أبو مجلز إلى أن الضميرين لأصحاب الجنة، أي: نادى أهل الأعراف أصحاب الجنة بالسلام، حال كون أصحاب الجنة لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها. وهو وجه جيد. فالجملة الأولى حال من المفعول وهو (أصحاب الجنة) والثانية حال من فاعل (يدخلوها) .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ » أي: أبصار أهل الأعراف أو أهل الجنة .

قال الجشمي: وإنما قال (صُرِفَتْ) لأن نظرهم إلى أهل النار نظر عداوة . فلا ينظرون إلا أن تصرف وجوههم إليهم . فأما أهل الجنة فوجوههم إليهم سروراً بهم ، فلا يحتاج إلى تكلف . وقيل: لأنهم مع أهل الجنة بعداء من أهل النار، فيحتاجون إلى صرف أبصارهم تلقاء أصحاب النار. ثم قال الجشمي: تدل الآية على وجوب الاجتناب من الظلمة في الدنيا، كيلا يكون معهم في الآخرة - انتهى - .

« تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ » أي: إلى جهنم « قَالُوا » من شدة خوفهم تعوذاً بالله « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أي: في النار . وقال أبو السعود: في وصفهم

بالظلم - دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذى هو الموجب للدعاء - إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفس العذاب فقط ، بل ما يوجبه ويؤدى إليه من الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

«وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا» يعنى من عطاء أهل الضلالة «يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ» أى : التى تدل على أعيانهم ، وإن تغيرت صورهم «قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ» أى : كثرتكم أو جمعكم للأموال التى تدفع بها الآفات «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» عن الحق ، أو على الخلق . وقرئ (تَسْتَكْبِرُونَ) من الكثرة ، أى : من الأتباع الذين يستعان بهم فى دفع الملأت .

قال ابن القيم : يعنى ما نفعمكم جمعكم وعشيرتكم وتجروكم على الحق ولا استكباركم . وهذا إما نفي وإما استفهام وتوبيخ ، وهو أبلغ وأخف . ثم نظروا إلى الجنة فأروا من الضعفاء الذين كان الكفار يستردلونهم فى الدنيا ، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم فى الدنيا ، فيقول لهم أهل الأعراف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (أَهْـؤِلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

«أَهْـؤِلَاءَ» الضعفاء من المؤمنين «الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ» برفع درجاتهم فى الآخرة ، فهاهم فى الجنة يتمتعون ويتنعمون ، وفى رياضها يُحَبَّرُونَ . وقوله تعالى : «أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ» أى : لا خوف عليكم من

العذاب النازل بالكفار ، ولا تحزنون كحزن الكفار على فوات النعيم ، وهذا إما من قول أصحاب الأعراف ، يتأمرمون بينهم بدخول الجنة بعد تبكيت أهل النار ، فيقول بعضهم لبعض : ادخلوا الجنة ؛ وإما من كلام أهل الأعراف للمؤمنين ، أى يقولون لهم : ادخلوا الجنة ، أو من تتممة مخاطبة أهل الأعراف للرجال ، كأنه قيل لهم : انظروا إلى هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ، كيف نالوها ، حيث قيل لهم من قِيلِهِ تعالى : ادخلوا الجنة . وعلى كلِّ فالجملة مبنية على قول محذوف إيجازاً ، للعلم به .

لطيفة :

بيّن الزمخشريّ سرّ حبسهم على الأعراف ، ثم إدخالهم الجنة أبعد بيان ، فقال رحمه الله : يقال لأصحاب الأعراف : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف ، وينظروا إلى الفريقين ، ويعرفوهم بسيماهم ، ويقولوا ما يقولون . وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن التقدم والتأخر على حسبها ، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرسوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يُعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع السوء عن إساءته ، ويزيد المحسن في إحسانه ، وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد ، حتى أقصر الناس عملاً - انتهى - .

ثم بيّن تعالى ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرايهم وطعامهم ، بعد التكبر عليهم ، وبعد ما أقسموا لا ينالهم الله برحمة ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَا عَلَى الْكَافِرِينَ)
« وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ » أى : الذى

رحمكم الله به ليسكن حرارة النار والعطش . قال الجشمي : وذكروا لفظ (الإفاضة) لأن أهل الجنة أعلى مكاناً. « أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أي : من الأطعمة والفواكه « قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » أي : منعهما عنهم ، لأنه أنعم عليهم في الدنيا ، فلم يشكروه ، فنعمهم نعمه في الآخرة . فالتحريم تحريم منع ، لا تحريم تعبد . ثم وصف الكافرين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

« الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا » أي : مما زينه لهم الشيطان . واللهو : كل ماصد عن الحق . واللعب : كل أمر باطل . أي : ليس دينهم في الحقيقة إلا ذلك ، إذ هو دأبهم وديدهم « وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » بزخارفها العاجلة ، فلم يعملوا « فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ » أي : تركهم ترك المنسى ، فلا نرحمهم بما نرحم به من عمل للآخرة « كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا » أي : كما فعلوا بلفائه ، فعل الناسين ، فلم يُخطروه ببالهم ، ولم يهتموا به .

لطيفة :

قال الشهاب : (نَسَاهُمْ) تمثيل . شبه معاملته تعالى مع هؤلاء بالمعاملة مع من لا يعتد به ، ويلتفت إليه ، فينسى . لأن النسيان لا يجوز على الله تعالى ، أي لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ، كما قال (١) : (فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى) والنسيان يستعمل بمعنى الترك كثيراً في لسان العرب . ويصح هنا أيضاً ، فيكون استعارة تحقيقية ، أو مجازاً مرسلًا ؛ وكذا نسيانهم لقاء الله أيضاً ، لأنهم لم يكونوا ذا كرى الله حتى ينسوه ، فشبّه عدم إخطارهم لقاء الله والقيامة ببالهم ، وقلة مبالاةهم - بحال من عرف شيئاً ، ثم نساه . وليست الكاف للتشبيه ، بل للتعليل ، ولا مانع من التشبيه أيضاً - انتهى . -

(١) [٢٠ / طه / ٥٢] قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي ...

وقال تعالى: « وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » أى وكما كانوا منكربين أنها من عند الله تعالى . روى الترمذى^(١) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله : ألم أجمع لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحراث ، وتركتك رأساً وترَبَّعَ ، فكنت تظن أنك ملاق يومك هذا ؟ قال فيقول : لا ! فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتنى .

وفى حديث أبى هريرة عند مسلم^(٢) : فيلقى العبد ربه ، فيقول : أى فل ! ألم أكرمك

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٦ - باب منه ، حدثنا سويد بن نصر .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرفائق ، حديث ١٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال : قالوا : يارسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ، ليست فى سحابة » ؟ قالوا : لا . قال « فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ، ليس فى سحابة » ؟ قالوا : لا . قال « فوالذى نفسى بيده ! لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . قال فيلقى العبد ، فيقول : أى فل ! ألم أكرمك وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك رأساً وترَبَّعَ ؟ فيقول : بلى . قال أظننت أنك ملاق ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول : أى فل ! ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك رأساً وترَبَّعَ ؟ فيقول : بلى . أى رب ! فيقول : أظننت أنك ملاق ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك . فيقول : يارب ! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدق . ويثنى بخير ما استطاع . فيقول : ههنا إذاً . قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك . ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد على ؟ فيختم على فيه . ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطق . فتتطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله . وذلك ليعذر من نفسه .

وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه .

وَأَسْوَدَكَ وَأَزْوَاجَكَ وَأَسْخَرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَتْرَكَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ ؟ فيقول : بلى يا رب !
 فيقول : أظننت أنك ملاق ؟ فيقول : إني أنساك كما نسيتني !
 ولما أخبر تعالى عن خسارتهم في الآخرة ذكر أنه أراح عليهم في الدنيا بإرسال الرسل ،
 وإنزال الكتب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
 «وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ» أى بينا فيه الاعتقادات والأحكام والأمور الأخروية
 تفصيلاً مبيناً «عَلَىٰ عِلْمٍ» أى عالين كيف تفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه ،
 حتى جاء محكماً قيماً غير ذى عوج ، وهذا كقوله تعالى : أَنْزَلَهُ وَبِعِلْمِهِ^(١) . «هُدًى» أى
 دلالة ترشدهم إلى الحق ، وتنجيهم من الضلالة «وَرَحْمَةً» أى ينجيهم من العذاب لما فيه
 من الدلائل ورفع الشبه «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» لأنهم المقتنون لفوائده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ
 قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ
 غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

«هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ» أى ما ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمره ، من تبين
 صدقه ، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد . قال الشهاب : (فالنظر) هنا بمعنى (الانتظار)

(١) [٤/ النساء / ١٦٦] لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ، أَنْزَلَهُ وَبِعِلْمِهِ
 وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .

لا بمعنى الرؤية . والتأويل بمعنى العاقبة ، وما يقع في الخارج ، وهو أصل معناه ، ويطلق على التفسير أيضاً . والمعنى : أنهم قبل وقوع ما هو محقق ، كالمنتظرين له ، لأن كل آت قريب ، فهم على شرف ملاقة ما وعدوا به . فلا يقال : كيف ينتظرونه مع جحدهم ؟ فإنهم وإن جحدوه ، إلا أنهم بمنزلة المنتظرين وفي حكمهم ، من حيث إن تلك الأحوال تأتيتهم لا محالة « يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ » « يعني يوم القيامة ، لأنه يوم الجزاء ، وما تؤول إليه أمورهم » يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ « أى تركوه ترك المنسى ، حين كان ينفعهم الذكر ، فلم يؤمنوا به عند معاناة العذاب » قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ « أى بما هو واقع من الاعتقادات والوعد والوعيد » فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا « في إزالة العذاب » أَوْ نُرَدُّ « إلى مكان العمل » فَتَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ « من الجحود واللغو واللعب وأعمال الدنيا . قال عز وجل : « قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » بصرف أعمالهم في الكفر « وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى ذهب عنهم ما كانوا يفترون من أن معبوديهم شفعاؤهم عند الله ، وعلموا أنهم كانوا في دعواهم كاذبين .

ولما قدم سبحانه ذكر الكفار وعبادتهم غيره ، سبحانه ، احتج عليهم ، مبيناً بأفعاله أنه لا معبود سواه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)
 « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » أى إن سيدكم ومالككم ومدبركم الذى يجب أن تعبدوه أيها الناس ، الذى أنشأ أعيان السموات والأرض في مقدار ستة أيام .

وفي هذه الآية مسائل :

الأولى : قال الشهاب : اليوم في اللغة مطلق الوقت ، فإن أريد هذا ، فالعنى في ستة أوقات ، كقوله تعالى : وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ^(١) . وإن أريد المتعارف ، وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها ، فالعنى في مقدار ستة أيام ، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات ، فيقدر فيه مضاف - انتهى .

وفي شرح القاموس : إن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ، أو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، وإن الثانى تعريف شرعى عند الأكثر . ونقل عن الفاسى شارحه : أن اليوم عند المنجمين من الطلوع إلى الطلوع ، أو من الغروب إلى الغروب .

ثم قال الزبيدى : ويستعمل بمعنى مطلق الزمان ، نقله عن ابن هشام ، وحكاه عن سيبويه في قولهم : (أنا ، اليوم ، أفعل كذا) فإنهم لا يريدون يوماً بعينه ، ولكنهم يريدون الوقت الحاضر . قال : وبه فسروا قوله تعالى (أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)^(٢)

(١) [٨ / الأنفال / ١٦] ... إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

(٢) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، أَلْيَوْمَ يَأْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

ثم قال : وقد يراد باليوم الوقت مطلقاً ، ومنه والحديث ^(١) : تلك أيام الهرج . أى وقته ولا يختص بالنهار دون الليل - انتهى - .

وإرادة الوقت مطلقاً منه ، عين إرادة مطلق الزمان قبله ، كما يتبادر . والظاهر أن إطلاقه على المتعارف والوقت مطلقاً ، لغوى فيهما - كما نقله شارح القاموس - خلافاً لظاهر كلام الشهاب السابق ، فتثبت هذا .

الثانية - قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه خلق العالم ، سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ؛ والستة الأيام : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام . واختلفوا في هذه الأيام : هل كل يوم منها كهذه الأيام ، كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كآلف سنة ، كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ؟ ويروى من رواية الضحاك عن ابن عباس .

فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ، لأنه اليوم السابع ، ومنه سمي السبت ، وهو القطع . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد ^(٢) فى مسنده عن أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق فى

(١) أخرجه البخارى فى : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٥ - باب ظهور الفتن ، حديث رقم

٢٥٤٨ ونصه :

عن أبى وائل ، عن عبد الله (وأحسبه رفعه) قال : بين يدى الساعة أيام الهرج . يزول العلم ويظهر فيها الجهل .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٢٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل - فقد رواه مسلم^(١) بن الحجاج في (صحيحه) والنسائي ، من غير وجه . وفيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قد قال : في ستة أيام ، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث ، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ، ليس مرفوعاً - والله أعلم - انتهى .

وقد بسطت الكلام فيه في شرحي على (الأربعين العجلونية) .

الثالثة - قال القاضي : في خلق الأشياء مدرجاً ، مع القدرة على إيجادها دفعة - دليل للاختيار . أى لأنه لو كان بالإيجاب ، لصدر دفعة واحدة . وفيه حث على التأني في الأمور . وقوله تعالى : « ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » اعلم أن الاستواء ورد على معان اشترك لفظه فيها ، فجاء بمعنى الاستقرار ومنه : أَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى^(٢) ، وبمعنى القصد ومنه^(٣) : ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ؛ وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له وإليه . قال الفراء : تقول العرب : استوى إلى يخاصمني ، أى أقبل على . ويأتى بمعنى الاستيلاء قال الشاعر^(٤) :

* قد استوى بشر على العراق *

(١) أخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٧ (طبعنا) .
(٢) [١١ / هود / ٤٤] ونصها : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَاةَ أَقْلَمِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَغُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .
(٣) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .
و [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

(٤) عجزه : * من غير سيفٍ ودمٍ مُهرَاقٍ *

استشهد به في اللسان ص ٤١٤ من المجلد الرابع عشر (طبعة بيروت) .

ويقينى أن هذا البيت مصنوع مصنوع .

وقال آخر^(١) :

فَلَمَّا عَمَلُوا وَاسْتَوَيْنَا عَلَيْهِمْ تَرَكْنَاهُمْ صَرَعى لِنَفْسٍ وَكَاسِرٍ
وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْعَالَوِ ، وَمِنْهُ آيَةٌ : فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ^(٢) : وَمِنْهُ
هَذِهِ الْآيَةُ .

قال البخاري في آخر (صحيحه) ، في كتاب الردّ على الجهمية ، في باب قوله تعالى :
(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)^(٣) : قال مجاهد : استوى ، علا على العرش - انتهى - .
وفي كتاب (العلوّ) للحافظ الذهبي : قال إسحق بن راهويه : سمعت غير واحد من
المفسرين يقول : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى)^(٤) أى ارتفع . ونقل ابن جرير^(٥) عن
الربيع بن أنس أنه بمعنى ارتفع . وقال : إنه في كل مواضعه بمعنى علا وارتفع ، وأقول : لا
حاجة إلى الاستكثار من ذلك ، فإن الاستواء غير مجهول ، وإن كان السكيف مجهولاً .
روى الإمام أحمد بن حنبل في كتابه (الرد على الجهمية) عن شريح بن النعمان ،
عن عبد الله بن نافع قال : قال مالك بن أنس : الله في السماء ، وعلمه في كل مكان ، لا يخلو
منه شيء .

(١) لم أعرف قائله ولم أجده في مكان .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢٨] ونصها : فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

(٣) [١١ / هود / ٧] ونصها : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ
مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

(٤) [٢٠ / طه / ٥] .

(٥) الأثر رقم ٥٨٨ من التفسير (طبعة المعارف) .

وروى البيهقي عن ابن وهب قال : كنت عند مالك ، فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله !
(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي) كيف استوى ؟ فأطرق مالك ، وأخذته الرُّحْضَاءُ ، ثم
رفع رأسه فقال : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي) كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف .
و(كيف) عنه مرفوع . وأنت صاحب بدعة . وفي رواية قال : الكيف غير معقول ، والاستواء
منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

قال الحافظ الذهبي في كتاب (العلو) - بمد ما ساق هذا - ما نصه :

وهو قول أهل السنة قاطبة ، أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجعلها ، وأن استواءه
معلوم ، كما أخبر في كتابه ، وأنه كما يليق به ، لا نتعمق ولا نتحدلق ، ولا نخوض في لوازم
ذلك نقياً ولا إثباتاً ، بل نسكت ونقف ، كما وقف السلف ، ونعلم أنه لو كان له تأويل ، لبادر
إلى بيانه الصحابة والتابعون ، ولما وسعهم إقراره وإيماره ، والسكوت عنه . ونعلم يقيناً مع
ذلك أن الله جل جلاله ، لا مثل له في صفاته ، ولا في استوائه ، ولا في نزوله ، سبحانه وتعالى
عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ثم قال الذهبي : قال الإمام العلم ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري صاحب
التصانيف الشهيرة ، في كتابه (مختلف الحديث) : نحن نقول في قول الله تعالى : (مَا يَكُونُ
مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ) ^(١) أنه معهم ، يعلم ما هم عليه ، كما تقول للرجل وجهته
إلى بلد شاسع : احذر التقصير فإنني معك ، يريد أنه لا يخفى على تقصيرك . وكيف يسوغ
لأحد أن يقول : إن الله سبحانه بكل مكان ، على الحلول فيه ، مع قوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ

(١) [٥٨/المجادلة/٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ،
مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ
ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

أُسْتَوَى^(١) ومع قوله : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)^(٢) كيف يصعد إليه شيء هو معه ، وكيف تخرج الملائكة والروح إليه وهي معه ؟ قال : ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم ، وما ركبت عليه ذواتهم ، من معرفة الخالق ، لعلموا أن الله عز وجل هو العلى وهو الأعلى ، وأن الأيدي ترفع بالدعاء إليه ، والأمم كلها عجميها وعربيها يقول : إن الله في السماء ، ما تَرَكْتُ عَلَى فِطْرَتِهَا - انتهى .

ثم قال الذهبي أيضاً : عن يزيد بن هرون شيخ الإسلام ، أنه قيل له : مَنْ الجهمية ؟ قال : من زعم أن (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى) على خلاف ما يقرّ في قلوب العامة ، فهو جهمي .

قال الذهبي : والعامة ، مراده بهم ، جمهور الأمة وأهل العلم ، والذي وقر في قلوبهم من الآية ، هو ما دل عليه الخطاب ، مع يقينهم بأن المستوى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)^(٣) هذا هو الذي وقر في فطرتهم السليمة ، وأذهانهم الصحيحة . ولو كان له معنى وراء ذلك ، لتفوّهوا به ، ولما أهملوه . ولو تأول أحد منهم الاستواء ، لتوفرت الهمم على نقله ، ولو نقل لاشتهر . فإن كان في بعض جهلة الأغبياء من يفهم من (الاستواء) ما يوجب نقصاً أو قياساً للشاهد على الغائب ، وللمخلوق على الخالق - فهذا نادر . فمن نطق بذلك زُجر وعُلّم ، وما أظن أن أحداً من العامة يقرّ في نفسه ذلك - والله أعلم - انتهى .

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُؤُهُ لَبِئْسَ مَا يَكُونُ .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذُرُّكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

وقال الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين ، الشيخ عبدالقادر الجيلاني قدس الله روحه في كتابه (تحفة المتقين وسبيل العارفين) في باب اختلاف المذاهب في صفات الله عز وجل ، وفي ذكر اختلاف الناس في الوقف عند قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ)^(١) : قال إسحاق : في العلم . إلى أن قال : والله تعالى بذاته على العرش ، علمه محيط بكل مكان والوقف عند أهل الحق على قوله (إِلَّا اللَّهُ) . وقد روى ذلك عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا الوقف حسن لمن اعتقد أن الله بذاته على العرش ، ويعلم ما في السموات والأرض . إلى أن قال : ووقف جماعة من منكرى استواء الرب عز وجل على قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ) وابتدأوا بقوله (أَسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) يريدون بذلك نفي الاستواء الذي وصف به نفسه ، وهذا خطأ منهم ، لأن الله تعالى استوى على العرش بذاته .

وقال في كتابه (الغنية) : أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار ، فهو أن تعرف وتيقن أن الله واحد أحد . إلى أن قال : لا يخلو من علمه مكان ، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان ، بل يقال إنه في السماء على العرش ، كما قال جل ثناؤه (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى)^(٢) وقوله (ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ)^(٣) وقال تعالى :

(١) [٣ / آل عمران / ٧] ونصها : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . (٢) [٢٠ / طه / ٥] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٩] ونصها : الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا .

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) ^(١) والنبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) حكم بإسلام الأمة لما قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . وقال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) (في حديث أبي هريرة رضى الله عنه) : لما خلق الله الخلق ، كتب كتاباً على نفسه ، وهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي . وفي لفظ آخر : لما قضى الله سبحانه الخلق ، كتب على نفسه في كتاب ، فهو عنده فوق العرش : أن رحمتي سبقت غضبي . وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش ، لا على معنى القعود والمهاسة ، كما قالت المجسمة والكرامية ، ولا على معنى العلو والرفعة ، كما قالت الأشعرية ، ولا على الاستيلاء والغلبة ، كما قالت المعتزلة ، لأن الشرع لم يرد بذلك ، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ، ذلك ، بل المنقول عنهم محمله

(١) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٢) من حديث طويل أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) .

عن معاوية بن الحكم السلمي . ونص هذه القصة ، قال :

وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قَبَلَ أَحَدٍ وَالْجَوَانِيَةِ (موضع في شمال المدينة) فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل من بني آدم . آسف كما يأسفون . لكنني صككتها صكة . فأتيته رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعظم ذلك علي . قلت : يا رسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال « ائتنى بها » فأتيته بها . فقال لها « أين الله » ؟ قالت : في السماء . قال « من أنا » قالت : أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ، حديث ١٥٠٩ .

على الإطلاق . وقد روى عن أم سلمة ^(١) زوج النبي ﷺ في قوله عز وجل (أَلَرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى) ^(٢) : وكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به واجب ، والجحود به كفر . وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ في (صحيحه) ، وكذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب : أخبار الصفات تمرُّ كما جاءت ، بلا تشبيه ولا تعطيل . وقال أيضاً (في رواية بعضهم) : لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام في شيء من هذه الأماكن ، في كتاب الله عز وجل ، أو حديث عن النبي ﷺ ، أو عن أصحابه رضي الله عنهم ، أو عن التابعين . فأما غير ذلك ، فإن الكلام فيه غير محمود ، فلا يقال في صفات الرب عز وجل (كيف) ؟ و (لِمَ) ؟ لا يقول ذلك إلا شكّاك . وقال أحمد رضي الله عنه (في في رواية عنه ، في موضع آخر) : نحن نؤمن بأن الله عز وجل على العرش كيف شاء ، وكما شاء ، بلا حد ولا صفة يبلغها واصف ويحدها حاد ، لما روى عن سعيد بن المسيّب ، عن كعب الأخبار ، قال ، قال الله تعالى في (التوراة) : أنا الله فوق عبادي ، وعرشي فوق جميع خلق ، وأنا على عرشي ، عليه أدير عبادي ، ولا يخفى على شيء من عبادي . وكونه عز وجل على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ، بلا كيف ، ولأن الله تعالى - فيما يزل - موصوف بالعلو والقدرة والاستيلاء والغلبة على جميع خلقه ، من العرش وغيره . فلا يحمل الاستواء على ذلك . فالاستواء من صفات الذات ، بعد ما أخبرنا به ، ونص عليه وأكده في سبع آيات من كتابه ، والسنة المأثورة به ، وهو صفة لازمة له ، ولائقة به ، كاليد والوجه والعين والسمع والبصر والحياة والقدرة ، وكونه خالقاً ورازقاً ومحياً ومميتاً ، موصوف بها ، ولا نخرج من الكتاب والسنة ، نقرأ الآية والخبر ، ونؤمن بما فيهما ، ونسكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل ،

(١) لم أجد هذا الحديث .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله : كما وصف الله تعالى نفسه في كتابه ، فتفسيره قراءته . لا تفسير له غيرها ، ولم تنكف غير ذلك ، فإنه غيب لا مجال للعقل في إدراكه ، ونسأل الله تعالى العفو والعافية ، ونعوذ به من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله عليه السلام - انتهى كلام الجيلانيّ قدس سره - .

وروى أبو إسماعيل الأنصاريّ في (ذم الكلام وأهله) عن أبي زرعة الرازيّ : أنه سئل عن تفسير (أَلَرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى) فغضب وقال : تفسيره كما تقرأ ، هو على عرشه ، وعلمه في كل مكان ، من قال غير هذا فعليه لعنة الله .

وأسند عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : سألت أبي وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة في أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار ، وما يعتقدان من ذلك ؟ فقالا : أدركنا العلماء في جميع الأمصار ، حجازاً وعراقاً ، ومصرأً وشاماً ويمناً . فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه ، بائن من خلقه ، كما وصف نفسه ، بلا كيف ، أحاط بكل شيء علماً .

تنبيهات

الأول - في بطلان تأويل (استوى) : (استولى) :

قال الإمام عبد العزيز بن يحيى السكنانيّ ، صاحب الشافعيّ رحمهما الله تعالى ، في كتاب (الرد على الجهمية) : زعمت الجهمية أن معنى استوى (استولى) من قول العرب : استوى فلان على مصر ، يريدون استولى عليها . قال : فيقال له : هل يكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس بمستول عليه ؟ فإذا قال لا ، قيل له : فن زعم ذلك فهو كافر ، فيقال له : يلزمك أن تقول : إن العرش أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ، وذلك لأنه أخبر أنه سبحانه خلق العرش قبل السموات والأرض ، ثم استولى عليه بعد خلقهن ، فيلزمك أن تقول : المدة التي كان العرش قبل خلق السموات والأرض ليس الله بمستولٍ عليه فيها . ثم ذكر كلاماً طويلاً في تقرير العلوّ والاحتجاج عليه .

وقال ابن عرفة في كتاب (الرد على الجهمية) : حدثنا داود بن عليّ قال : كنا عند ابن الأعرابيّ ، فأتاه رجل فقال : مامعنى قوله تعالى (أَلَرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي) ؟ قال : هو على عرشه كما أخبر . فقال : يا أبا عبد الله ! إنما معناه استولى . فقال : اسكت . لا يقال : استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضادّ ، فأيهما غلب ، قيل : استولى . والله تعالى لا مضادّ له ، وهو على عرشه كما أخبر . ثم قال : الاستيلاء بعد المغالبة ، كما قال النابغة (١) :

إِلا لِمَثْلِكَ أَوْ مَنْ أَنْتَ سَابِقُهُ سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوَى عَلَى الْأَمْدِ

وروى الخطيب البغداديّ عن محمد بن أحمد بن الفضر قال : كان ابن الأعرابيّ جارنا، وكان ليله أحسن ليل ، وذكر لنا أن ابن أبي دؤاد سأله : أتعرف في اللغة استوى بمعنى استولى ؟ فقال لا أعرفه ! وفي رواية : أرادني ابن أبي دؤاد أن أطلب له في بعض لغات العرب ومعانيها

(١) قاله من قصيدته التي مطلعها :

يَا دَارَ مِيَّةَ بِالْعُلَيَاءِ فَالْسَّنْدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ

مية ، اسم امرأة . والعلياء مكان مرتفع من الأرض . والسند سند الوادي في الجبل ، وهو ارتفاعه حيث يسند فيه ، أي يصعد . وأقوت خلت . والسالف الماضي . والأبد الدهر ، وجمعه آباد .

(معنى البيت) إنه لما وقف على الدار وتذكر من كان فيها من أحبة ، أقبل عليها يخاطبها استراحة منه إليها ، وتوجّعاً على من ذهب عنها . ثم تحوّل من مخاطبة الحاضر إلى مخاطبة الغائب اتساعاً ومجازاً . وكذلك تفعل العرب ، تحوّل مخاطبة الحاضر إلى مخاطبة الغائب . قال الله عز وجل : حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَجَرَّيْنَ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ . إنما الكلام : حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم ريح طيبة . وكذلك البيت إنما كان : يدار مية أقويت وطال عليك سالف الأبد .

وفي البيت المستشهد به : استولى : غلب . والأمد : الغاية التي تجري إليها ..

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) استوى بمعنى استولى ، فقلت له : والله ما يكون هذا ، ولا وجدته . وابن الأعرابي أبو عبد الله كان لغوى زمانه - كما قال الذهبي - .
وقال الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه (الإبانة في أصول الديانة) ، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه ، وعليه يعتمدون في الذب عنه ، عند من يطعن عليه ، فقال :

فصل

في إبانة قول أهل الحق والسنة

فإن قال قائل : قد أنكرت قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون . قيل له : قولنا الذي نقول به التمسك بكتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وما روى عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتمدون ، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل ، نصر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ، قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وقع به بدع المبتدعين ، وزيف الزائعين .

ثم قال في (باب الاستواء على العرش) : إن قال قائل : ماتقولون في الاستواء؟ قيل له : نقول : إن الله مستو على عرشه ، كما قال (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وقد قال الله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) ^(٢) وقال (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) ^(٣)

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٣) [٤ النساء / ١٥٨] وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

وقال (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ) ^(١) وقال حكاية عن فرعون (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَمَنُ ابْنِي بِي صِرَاحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ وَكَذِبًا) ^(٢). كذب موسى في قوله: إن الله فوق السموات. وقال (ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ) ^(٣) فالسموات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السموات قال : ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ ، لأنه مستو على العرش الذى هو فوق السموات ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات ، وليس إذا قال : ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ ، يعنى جميع السماء ، وإنما أراد العرش الذى هو أعلى السموات . ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا) ^(٤) فلم يرد أن القمر يملؤهن ، وأنه فيهن جميعاً . ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم ، إذا دعوا ، نحو السماء ، لأن الله على العرش الذى هو فوق السموات ، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش ، كما لا يحطونها ، إذا دعوا ، إلى الأرض .

ثم قال :

فصل

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن معنى قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله عز وجل في كل مكان ،

(١) [٣٢ / السجدة / ٥] ... فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ وَ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦ و ٣٧] ... وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِّفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

(٣) [٦٧ / الملك / ١٦] ... فَإِذَا هِيَ تَمُورُ .

(٤) [٧١ / نوح / ١٦] ... وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا .

وجحدوا أن يكون الله على عرشه ، كما قال أهل الحق . وذهبوا في الاستواء إلى (القدرة) ، فلو كان هذا كما ذكره ، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة ، لأن الله قادر على كل شيء ، فالله قادر على الأرض ، وعلى الحشوش ، وعلى كل مافي العالم . فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى (الاستيلاء) ، وهو عز وجل مستولٍ على الأشياء كلها ، لكان مستوياً على العرش ، وعلى الأرض ، وعلى السماء ، وعلى الحشوش والأقذار لأنه قادر على الأشياء ، مستولٍ عليها ، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول إن الله مستولٍ على الحشوش والأخيلية ، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش (الاستيلاء) ، الذي هو عامٌ في الأشياء كلها ، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش دون الأشياء كلها . وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل - انتهى - .

قلت : وكلام أبي الحسن الأشعري الأخير مأخوذ من كتاب رد الإمام أحمد على الجهمية ، حيث قال في كتابه المذكور :

ومما أنكرت الجهمية الضلال أن يكون الله سبحانه على العرش ، فقلنا : لم أنكرتم ذلك ؟ إن الله سبحانه على العرش ، وقد قال سبحانه (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى)^(١) وقال : (ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، الرَّحْمَنُ فَسَّطَ بِهِ خَيْرًا)^(٢) قالوا : هو تحت الأرضين السابعة كما هو على العرش ، فهو على العرش ، وفي السموات ، وفي الأرض ، وفي كل مكان ، لا يخلو منه مكان ، ولا يكون في مكان دون مكان . وتلوا آيات من القرآن (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)^(٣) فقلنا : قد عرف المسلمون أما كن كثيرة ، وليس فيها من عظمة

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٥٩] الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ

أَيَّامٍ ...

(٣) [٦ / الأنعام / ٣] ... يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

الله شيء ، فقالوا : أى مكان ؟ فقلنا : أحشاؤكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب سبحانه شيء ؛ وقد أخبرنا أنه فى السماء ، فقال سبحانه : (ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ ...)^(١) الآية - وقال (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)^(٢) وقال (وَلَهُ وَمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِنْدَهُ)^(٣) وقال : (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)^(٤) وقال : (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)^(٥) وقال : (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ)^(٦) وقال : (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ)^(٧) وقال : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)^(٨) - فهذا أخبر الله أنه فى السماء ، ووجدنا كل شيء أسفل مذموماً . قال الله تعالى : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)^(٩) . (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)^(١٠) وقلنا لهم : أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه ،

(١) [٦٧ / الملك / ١٦] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ١٩] . . . لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ .

(٤) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها : إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَرَأْنِي فَاعْبُدْ .

إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٥) [٤ / النساء / ١٥٨] . . . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٦) [١٦ / النحل / ٥٠] . . . وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

(٧) [٧٠ / المعارج / ٤] . . . فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .

(٨) [٦ / الأنعام / ١٨] .

(٩) [٤ / النساء / ١٤٥] . . . وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا .

(١٠) [٤١ / فصلت / ٢٩] .

والشياطين مكانهم ؟ فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس ، ولكن إنما معنى قوله تبارك وتعالى : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) ^(١) يقول : هو إله من في السموات ، وإله من في الأرض ، وهو على العرش ! وقد أحاط بعلمه ما دون العرش ، لا يخلو من علم الله مكان ، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان ، وذلك قوله : (لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) ^(٢) .

قال : ومن الاعتبار في ذلك : لو أن رجلاً كان في يده قدح من قوارير صافٍ ، وفيه شيء ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح ، فالله سبحانه - وله المثل الأعلى - قد أحاط بجميع خلقه ، من غير أن يكون في شيء من خلقه . وخصلة أخرى : لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها ، ثم أغلق بابها وخرج منها ، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيتاً في داره ، وكم سعة كل بيت ، من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار . فالله سبحانه - وله المثل الأعلى - قد أحاط بجميع ما خلق ، وقد علم كيف هو ، وما هو ، من غير أن يكون في شيء مما خلق .

قال أحمد رضى الله عنه : ومما تأول الجهمية من قول الله سبحانه : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ...) إلى أن قال : (..) إن الله بكل شيء عليم ^(٣) قالوا : إن الله عز وجل معنا وفينا . فقلنا : لِمَ قطعتم الخبر من أوله ؟ إن الله يقول (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ) يعني أن الله بعلمه رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم بعلمه فيهم ، يفتح الخبر بعلمه ، ويختمه بعلمه - انتهى - .

(١) [٦ / الأنعام / ٣] ... يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ١٢] [اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ...]

ثم قال الإمام أحمد في آخر كتابه المذكور : وقلنا للجهمية : زعمتم أن الله في كل مكان ، لا يخلو منه مكان ، فقلنا لهم : أخبرونا عن قول الله جل ثناؤه : فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا^(١) . لِمَ تجلى ، إذا كان فيه بزعمكم ؟ ولو كان فيه ، كما تزعمون ، لم يكن يتجلى لشيء . لكن الله تعالى على العرش ، وتجلى لشيء لم يكن فيه ، ورأى الجبل شيئاً لم يكن يراه قط قبل ذلك .

وقلنا للجهمية : الله نور ؟ فقالوا : نور كله . فقلنا : قال الله عز وجل : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا^(٢) . فقد أخبر جل ثناؤه أن له نوراً ، قلنا : أخبرونا ، حين زعمتم أن الله في كل مكان ، وهو نور ، فلم لا يضيء البيت المظلم من النور الذى هو فيه إذا زعمتم أن الله في كل مكان ؟ وما بال السراج إذا أدخل البيت المظلم يضيء ؟ فغند ذلك تبين كذبهم على الله . فرحم الله من عقل عن الله ، ورجع عن القول الذى يخالف الكتاب والسنة ، وقال بقول العلماء ، وهو قول المهاجرين والأنصار ، وترك دين الشيطان ، ودين جهم وشيعته - انتهى - . وقال الإمام الحافظ ابن عبد البر في كتاب (التمهيد) فى شرح حديث^(٣) (ينزل ربنا

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ وَقَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ وَفَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] . . . وَوَضِعُ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ١٤ - باب الدعاء نصف الليل ، حديث رقم ٦٢٩ ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، ومن يستغفرنى فأغفر له ؟ » .

وأخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٦٨ (طبعنا) .

كل ليلة . . .) الحديث - ما نصه : هذا الحديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته ، وفيه دليل على أن الله تعالى في السماء ، على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة . وهو حجبتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم : (إن الله في كل مكان ، وليس على العرش) والدليل على صحة ما قاله أهل الحق في ذلك قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى) ^(١) ثم ساق عدة آيات في ذلك - وقال : هذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة . وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء ، وقولهم في تأويل (أَسْتَوَى) استولى ، فلا معنى له ، لأنه غير ظاهر في اللغة . ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة ، والله تعالى لا يغالبه أحد ، وهو الواحد الصمد . ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا تعالى ، إلا على ذلك ، وإنما يوجه كلام الله عز وجل على الأشهر والأظهر من وجوهه ، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم . ولو ساء ادعاء المجاز لكل مدع ، ما ثبت شيء من العبادات . وجلّ الله أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين . والاستواء معلوم في اللغة مفهوم ، وهو العلو والارتفاع على الشيء ، والاستقرار والتمكن فيه . قال أبو عبيدة في قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى) ^(٢) قال : علا ، قال : تقول العرب : استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت . وقال غيره : استوى أى استقر ، واحتج بقوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) ^(٣) انتهى شبابه واستقر ، فلم يكن في شبابه مزيد . قال ابن عبد البر : الاستواء : الاستقرار في العلو ، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه فقال :

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

(٣) [٢٨ / القصص / ١٤] أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ) ^(١) وقال تعالى : (وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) ^(٢) وقال تعالى : (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ) ^(٣) وقال الشاعر ^(٤) :

فأوردتهم ماءً بفيفاءٍ قفرةٍ وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد (استوى) ، لأن النجم لا يستوى . وقد ذكر النضر ابن شميل - وكان ثقة مأموناً جليلاً في علم الديانة واللغة - قال : حدثني الخليل - وحسبك بالخليل - قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابي ، وكان من أعلم ما رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال : (استوا) فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال ، فقال لنا أعرابي إلى جانبه : إنه أمركم أن ترفعوا ، فقال الخليل : هو من قول الله (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) ^(٥) فصعدنا إليه . قال : وأما من نزع منهم بحديث يرويه عبدالله بن داود الواسطي

(١) [٤٣ / الزخرف / ١٣] . . . وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ .

(٢) [١١ / هود / ٤٤] ونصها : وَقِيلَ يٰٓأَرْضُ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَسْمَاةُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٢٨] . . . فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

(٤) لم أعرف اسم الشاعر ولم أهتد إلى هذا البيت في موضع .

والفيف والفيفاء : المفازة لا ماء فيها .

(٥) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

و [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، فَاتَّخَذْتُمَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ^(١) قال : استولى على جميع بريته ، فلا يخلو منه مكان - فالجواب : أن هذا حديث منكر على ابن عباس رضى الله عنهما ، ونقلته مجهولة وضعفاء ؛ فأما عبد الله بن داود الواسطى وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان . وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف . وهم لا يقبلون أخبار الآحاد ، فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بثقل هذا الحديث ، لو عقلوا وأنصفوا ؟ أما سمعوا الله سبحانه حيث يقول : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ وَكَذِبًا ^(٢) ؟ فدل على أن موسى عليه الصلاة السلام كان يقول : إلهي في السماء وفرعون يظنه كاذباً . قال الشاعر :

فسبحان من لا يَقْدِرُ الخلقُ قدرَهُ ومن هو فوق العرشِ فرْدٌ مُوحَّدٌ
ملكٌ على عرشِ السماءِ مُهَيَّمٌ لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الوجوهُ وَتَسْجُدُ
وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت . وفيه يقول في وصف الملائكة :

وَسَاجِدُهُمْ لَا يَرْفَعُ الدَّهْرَ رَأْسَهُ يَعْظُمُ رَبًّا فَوْقَهُ وَيُمَجِّدُ
قال : فإن احتجوا بقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) ^(٣)
وبقوله تعالى : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) ^(٤) وبقوله تعالى : (مَا يَكُونُ مِنْ

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦ و ٣٧] . . . وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ
عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] . . . وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ^(١) ، وزعموا أن الله سبحانه في كل مكان بنفسه وذاته - تبارك وتعالى جدّه - قيل : لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس في الأرض دون السماء بذاته ، فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء ، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض ، وكذا قال أهل العلم بالتفسير . وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش ، فلا اختلاف في ذلك ساقط ، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر . وأما قوله في الآية الأخرى : (وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) فالإجماع والاتفاق قد بين أن المراد أنه معبود من أهل الأرض . فتدبر هذا فإنه قاطع .

ومن الحجة أيضاً في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع ، أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم ، إذا كَرَّهَهُمْ أمر ، أو نزلت بهم شدة ، رفعوا وجوههم إلى السماء ، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى السماء ، يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى ، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته . لأنه اضطراري لم يخالفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم ، وقد قال ﷺ للأمة التي أرادموها اعتقها^(٢) ،

(١) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣

(طبعتنا) وهو قطعة من حديث طويل ونصها :

عن معاوية بن الحَكَم السَّلَمِيّ قال : وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد الجوانية (موضع في شمال المدينة) فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل =

إن كانت مؤمنة . فاختبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . ثم قال لها : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة . فاعتق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها برفع رأسها إلى السماء ، واستغنى بذلك عما سواه .

قال : وأما احتجاجهم بقوله تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاٰهُمْ)^(١) فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية ، لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرآن قالوا تأويل هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه في كل مكان ، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله . وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاٰهُمْ)^(٢) قال : هو على عرشه ، وعلمه معهم أينما كانوا . قال : وبلغني عن سفيان الثوري مثله . قال سنيد : حدثنا حماد بن زيد عن عاصم ابن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : الله فوق العرش ، وعلمه في كل مكان ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم . ثم ساق من طريق يزيد بن هرون عن حماد ابن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء إلى الأخرى خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة إلى الكرسيّ مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسيّ إلى الماء مسيرة خمسمائة عام ، = من بنى آدم . آسف كما يأسفون . لكنني صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليّ . قلت : يا رسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال « ائتنى بها » فأتيته بها فقال لها « أين الله » ؟ قالت : في السماء . قال « من أنا » ! قالت أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٢٠ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٢٠ .

والعرش على الماء ، والله على العرش ، ويعلم أعمالكم . وذكر هذا الكلام أو قريباً منه في كتاب (الاستذكار) .

وقال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في (الرسالة المدنية) : إذا وصف الله نفسه بصفة أو وصفه بها رسوله ﷺ ، أو وصفه بها المؤمنون الذين اتفق المسلمون على هدايتهم ودرأيتهم - فصرفها عن ظاهرها اللائق بجلاله سبحانه ، وحقيقتها المفهومة منها ، إلى باطن يخالف الظاهر ، ومجاز يخالف الحقيقة ، لا بد فيه من أربعة أشياء :

أحدها : أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي ، لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاءوا باللسان العربي ، ولا يجوز أن يراد منه خلاف لسان العرب ، أو خلاف الألسنة كلها ، فلا بد أن يكون ذلك المعنى المجازي مما يراد به اللفظ ، وإلا فيمكن كل مُبْطِل أن يفسر أى لفظ بأى معنى ناسخ له ، وإن لم يكن له أصل في اللغة .

الثاني : أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه ، وإلا فإذا كان يستعمل في معنى بطريق الحقيقة ، وفي معنى بطريق المجاز ، لم يجز حمله على المجازي بغير دليل يوجب الصرف بإجماع العقلاء ، ثم ادعى وجوب صرفه عن الحقيقة فلا بد من دليل قاطع عقلي أو سمعي يوجب الصرف . وإن ادعى ظهور صرفه عن الحقيقة - فلا بد من دليل مرجح للحمل على المجاز .

الثالث : أنه لا بد من أن يسلم ذلك الدليل الصارف عن معارض . وإلا فإذا قام دليل قرآني أو إيماني يبين أن الحقيقة مرادة ، امتنع تركها . ثم إن كان هذا الدليل لم يلتفت إلى نقيضه وإن كان ظاهراً فلا بد من الترجيح .

الرابع : أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره ، وضد حقيقته فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وإنما أراد مجازه ، سواء عينه أو لم يعينه ، لا سيما في الخطاب العلمي الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم ، دون عمل الجوارح ، فإنه سبحانه جعل القرآن نوراً وهدى وبياناً للناس وشفاء لما في الصدور ، وأرسل الرسول

ليبين للناس ما نزل إليهم^(١) ، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه^(٢) ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل^(٣) . ثم هذا الرسول الأُمِّي العربي بعث بأفصح اللغات ، وأبين الألسنة وال عبارات . ثم الأمة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علماً ، وأنصحهم للأمة ، وأبينهم للسنة ، فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره ، إلا وقد نصب دليلاً يمنع من حمله على ظاهره ، إما بأن يكون عقلياً ظاهراً مثل قوله (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)^(٤) فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد (أُوتِيَتْ مِنْ جنس ما يؤتاه مثلها) . وكذلك قوله (خَلَقُ كُلِّ شَيْءٍ)^(٥) يعلم المستمع أن المراد أن الخالق لا يدخل في هذا العموم . أو سمعياً ظاهراً مثل الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعضها الظواهر .

(١) يشير إلى [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) يشير إلى [٢ / البقرة / ٢١٣] ونصها : كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه ، وَمَا اختلف فيه إِلَّا الَّذِينَ أَوْتَوْهُ مِنْ كِبَعٍ مَاجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بُدِّنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٣) [٤ / النساء / ١٦٥] ونصها : رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٤) [٢٧ / النمل / ٢٣] ونصها : إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

(٥) [٦ / الأنعام / ١٠٢] ونصها : ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفي لا يستنبطه إلا أفراد الناس، سواء كان سمعياً أو عقلياً، لأنه إذا تكلم بالكلام الذى يفهم منه معنى ، وأعاده مرات كثيرة ، وخطب به الخلق كلهم، وفيهم الذكي والبليد ، والفقيه وغير الفقيه ، وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ، ويعقلوه ويتفكروا فيه ، ويعتقدوا موجهه ، ثم أوجب أن لا يقصدوا بهذا الخطاب شيئاً من ظاهره ، لأن هناك دليلاً خفياً يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره - كان تدليساً أو تلبساً ، وكان تقيض البيان ، وضد الهدى . وهو بالأنغاز والأحاجى أشبه منه بالهدى والبيان . فكيف إذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره ، أقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفى على أن الظاهر غير مراد ، كيف إذا كان ذلك الخفى شبهة ليس لها حقيقة؟ - انتهى . -

الثانى - يتوهم كثير أن القول بالعلو والاستواء يلزم منهما القول بالتجسيم ، وقد رى بذلك كثير من المحدثين ، ومن رماهم بذلك الجلال الدوانى فى شرح العقائد العضدية حيث قال - عفا الله عنه - : وأكثر المجسمة هم الظاهريون المتبعون لظاهر الكتاب والسنة ، وأكثرهم المحدثون . ولا بن تيمية أبى العباس وأصحابه ميل عظيم إلى إثبات الجهة، ومبالغة فى القدح فى نفيها . ورأيت فى بعض تصانيفه أنه لا فرق عند بديهة العقل بين أن يقال : هو معدوم ، أو يقال : طلبته فى جميع الأمكنة فلم أجده ، ونسب النافين إلى التعطيل . هذا مع علو كعبه فى العلوم العقلية والنقلية ، كما يشهد به من تتبع تصانيفه .

وحصل كلام بعضهم فى بعض المواضع ؛ أن الشرع ورد بتخصيصه تعالى بجهة (الفوق) ، كما خصص الكعبة بكونها بيت الله تعالى ، ولذلك يتوجه إليها فى الدعاء . ولا يخفى أنه ليس فى هذا القدر غائلة أصلاً ، لكن بعض أصحاب الحديث من المتأخرين لم يرض بهذا القول ، وأنكر كون (الفوق) قبلة الدعاء ، بل قال : قبلة الدعاء هو نفسه ، كما أن نفس الكعبة قبلة الصلاة ، وقد صرح بكونه جهة الله تعالى حقيقة من غير تجوز انتهى كلام الدوانى . -

وتعقبه غير واحد :

منهم : الشيخ إبراهيم الكورانيّ في حاشيته عليه السّماة (بمجلى المعاني) قال : إن ابن تيمية ليس قائلًا بالتجسيم ، فقد صرح بأن الله تعالى ليس جسمًا ، في رسالة تكلم فيها على حديث النزول . وقال في رسالة أخرى : من قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان ، أو إن الله تعالى يماثل شيئًا من المخلوقات فهو مفترٍ على الله سبحانه . بل هو على مذهب السلف قائل بأن الله تعالى فوق العرش حقيقة ، مع نفى اللوازم ، ونقل عليه إجماع السلف ، صرح به في الرسالة القدريّة - انتهى - .

ومنهم : وليّ الله الدهلويّ قدس سره ، قال في كتابه (حجة الله البالغة) : واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث ، وسموهم بحسمة ومشبهة ، وقالوا : هم المتسترون بالبلكفة ، وقد وضع على وضوحًا بيّنًا أن استطالتهم هذه ليست بشيء ، وأنهم مخطئون في مقاتلهم رواية ودراية ، وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى - انتهى - .

ومنهم : الشهاب الألوسيّ المفسر ، فإنه كتب على كلام الدوانيّ ما نصه : حاشا لله تعالى أن يكون - يعنى ابن تيمية - من الجسمة ، بل هو أبرأ الناس منهم . نعم يقول بالفوقية ، وذلك مذهب السلف ، وهو بمنزل عن التجسيم . وجلال الدين وأضرابه أجهل الناس بالأحاديث ، وكلام السلف الصالح ، كما لا يخفى على العارف المنصف . نقله عنه ابنه في (محاكمة الأحمدين) .

وأقول . إن كل من رمى مثل هذا الإمام بالتجسيم فقد افتري وما درى ، إلا أن عذره أنه لم ينقب عن كلامه في فتاويه التي أوضح فيها الحق ، وأثار بها مذهب السلف قاطبة . وهالك شذرة من درره . قال رحمه الله في بعض فتاويه :

والأصل في هذا الباب أن كل ما ثبت في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ وجب التصديق به ، مثل علوّ الرب ، واستوائه على عرشه ، ونحو ذلك . وأما الألفاظ المبتدعة

في النفي والإثبات ، مثل قول القائل : هو في جهة ، أو ليس في جهة ، وهو متحيز ، أو ليس بمتحيز ، ونحو ذلك من الألفاظ التي تنازع فيها الناس ، وليس مع أحدهم نص ، لا عن الرسول ﷺ ، ولا عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان ، ولا أئمة المسلمين - هؤلاء لم يقل أحد منهم إن الله تعالى في جهة ، ولا قال ليس هو في جهة ، ولا قال هو متحيز ، ولا قال ليس بمتحيز ، بل ولا قال هو جسم أو جوهر ، ولا قال ليس بجسم ولا بجوهر . فهذه الألفاظ ليست منصوطة في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ؛ والناطقون بها قد يريدون معنى صحيحاً . فإن يريدوا معنى صحيحاً يوافق الكتاب والسنة كان ذلك مقبولا منهم . وإن أرادوا معنى فاسدا يخالف الكتاب والسنة كان ذلك المعنى مردوداً عليهم . فإذا قال القائل : إن الله تعالى في جهة ، قيل : ما تريد بذلك ؟ أريد بذلك أنه سبحانه في جهة موجودة تحصره وتحيط به ، مثل أن يكون في جوف السموات ، أم تريد بالجهة أمراً عديمياً ، وهو ما فوق العالم شيء من المخلوقات . فإن أردت الجهة الوجودية ، وجعلت الله تعالى محصوراً في المخلوقات ، فهذا باطل ، وإن أردت الجهة العدمية ، وأردت الله تعالى وحده فوق المخلوقات ، بائن عنها ، فهذا حق ، وليس في ذلك أن شيئاً من المخلوقات حصرة ، ولا أحاط به ، ولا علا عليه ، بل هو العالی عليها ، المحيط بها ، وقد قال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ...) (١) الآية - وقد ثبت في الصحيح (٢) عن النبي ﷺ أن الله عز وجل يقبض الأرض يوم القيامة ، ويطوى

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٧] ... سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٤٤ - باب يقبض الله الأرض ،

حديث ٢٠٣٩ ونصه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه . ثم يقول . أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ » .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٣ (طبعتنا) .

السموات بيمينه ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما السموات السبع ، والأرضون السبع ، وما فيهن ، وما بينهن ، فى يد الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم . وفى حديث آخر أنه يرميها كما يرمى الصبيان الكرة . فمن يكون جميع المخلوقات بالنسبة إلى قبضته تعالى ، إلى هذا الحقر والصغار ، كيف تحيط به وتحصره ؟ ومن قال إن الله تعالى ليس فى جهة ، قيل له : ما تريد بذلك ؟ فإن أراد بذلك أنه ليس فوق السموات ربٌّ يعبد ، ولا على عرشٍ إله ، ونبينا محمد ﷺ لم يرجع به إلى الله تعالى ، والأيدى لا ترفع إلى الله تعالى فى الدعاء ، ولا تتوجه القلوب إليه - فهذا فرعونى معطل ، جاحد لرب العالمين . وإن كان يعتقد أنه مقرَّب به فهو جاهل متناقض فى كلامه . ومن هنا دخل أهل الحلول والاتحاد وقالوا : إن الله تعالى بذاته فى كل مكان ، وإن وجود المخلوقات هو وجود الخالق . وإن قال : مرادى بقولى (ليس فى جهة) أنه لا تحيط به المخلوقات فقد أصاب فى هذا المعنى . وكذلك من قال إن الله تعالى متحيز أو قال ليس بمتحيز : إن أراد بقوله (متحيز) أن المخلوقات تحوزة وتحيط به فقد أخطأ ، وإن أراد به منحاز عن المخلوقات ، بائن عنها ، عال عليها ، فقد أصاب . ومن قال : (ليس بمتحيز) ، إن أراد المخلوقات لا تحوزه فقد أصاب ، وإن أراد إيس بباين عنها ، بل هو لا داخل فيها ، ولا خارج عنها ، فقد أخطأ . والناس فى هذا الباب ثلاثة أصناف : أهل الحلول والاتحاد ، وأهل النفي والجحود ، وأهل الإيمان والتوحيد والسنة .

فأهل الحلول يقولون : إنه بذاته فى كل مكان ، وقد يقولون بالاتحاد والوحدة ، فيقولون : وجود المخلوقات وجود الخالق .

وأما أهل النفي والجحود فيقولون : لا هو داخل العالم ، ولا خارج ، ولا مبين له ،

ولا حال فيه ، ولا فوق العالم ولا فيه ، ولا ينزل منه شيء ، ولا يصعد إليه شيء ، ولا يتقرب إليه بشيء ، ولا يدنو إليه شيء ، ولا يتجلى لشيء ، ولا يراه أحد ، ونحو ذلك .

وهذا قول متكلمة الجهمية المعلقة ، كما أن الأول قول عباد الجهمية . فتكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومتعبدة الجهمية يعبدون كل شيء ، وكلامهم يرجع إلى التعطيل والجحود ، الذي هو قول فرعون . وقد علم أن الله تعالى كان قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلقهما ، فإما أن يكون دخل فيهما ، وهذا حلول باطل ، وإما أن يكون دخلاً فيه ، وهو أبطل وأبطل ، وإما أن يكون الله سبحانه بائناً عنهما ، لم يدخل فيهما ، ولم يدخل فيه ، وهذا قول أهل الحق والتوحيد والسنة .

ولأهل الجحود والتعطيل في هذا الباب شبهات يعارضون بها كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها ، وما فطر الله تعالى عليه عباده ، وما دلت عليه الدلائل العقلية الصحيحة ، فإن هذه الأدلة كلها متفقة على أن الله تعالى فوق مخلوقاته ، عال عليها ، قد فطر الله تعالى على ذلك العجائز والأعراب والعصبيان في الكتاب ، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى . وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح ^(١) : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرؤوا إن شئتم (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٧٩ - باب إذا أسلم الصبي فأت

هل يصلّي عليه ، حديث ٧١٦ ونصه :

أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ »

ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .

وأخرجه مسلم في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ (طبعتنا) .

فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ^(١) وهذا معنى قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : عليك بدين الأعراب والصبيان في الكتاب ، عليك بما فطرهم الله تعالى عليه ، فإن الله سبحانه فطر عباده على الحق ، والرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويل الفطرة وتغييرها . وأما أعداء الرسل كالجهمية الفرعونية ونحوهم ، فيريدون أن يغيروا فطرة الله تعالى ، ودينه عز وجل ، ويوردون على الناس شبهات بكلمات مشتبهات ، لا يفهم كثير من الناس مقصودهم بها ، ولا يحسن أن يجيبهم . وقد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع . وأصل ضلالهم تكلمهم بكلمات مجملة لا أصل لها في كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولا قالها أحد من أئمة المسلمين . كلفظ : التحيز والجسم والجهة ونحو ذلك . فمن كان عارفاً بحال شبهاتهم بينها ، ومن لم يكن عارفاً بذلك فليعرض عن كلامهم ، ولا يقبل إلا ما جاء به الكتاب والسنة ، كما قال تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) ^(٢) . ومن تكلم في الله تعالى وأسمائه وصفاته بما يخالف الكتاب والسنة ، فهو من الخائضين في آيات الله تعالى بالباطل ، وكثير من هؤلاء ينسب إلى أئمة المسلمين ما لم يقولوه . وكثير منهم قرؤوا كتباً من كتب الكلام ، فيها شبهات أضلهم ، ولم يهتدوا لجوابهم ، فإنهم يجدون في تلك الكتب أنه لو كان الله تعالى فوق الخلق للزم التجسيم والتحيز والجهة ، وهم لا يعرفون حقائق هذه الألفاظ ، ولا ما أراد بها

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ونصها : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٨] ونصها : وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

أصحابها ، فإن ذكر لفظ (الجسم) في أسماء الله تعالى وصفاته ، بدعة لم ينطق بها كتاب ولا سنة ، ولا قالها أحد من سلف الأمة وأئمتها ، ولم يقل أحد منهم إن الله تعالى جسم ، ولا أن الله تعالى ليس بجسم ، ولا أن الله تعالى جوهر ، ولا أن الله تعالى ليس بجوهر . ولفظ الجسم لفظ مجمل ، فمعناه في اللغة هو البدن . ومن قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان فهو مفتر على الله عز وجل ، بل من قال إن الله تعالى يماثل شيئاً من مخلوقاته فهو مفتر على الله ضال ، ومن قال إن الله تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يماثل شيئاً من المخلوقات ، فالعنى صحيح ، وإن كان اللفظ بدعة . وأما من قال إن الله تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يرى في الآخرة ، وأنه لم يتكلم بالقرآن العربي ، بل القرآن العربي مخلوق ، أو هو تصنيف جبريل عليه السلام ، أو نحو ذلك ، فهو مفتر على الله تعالى فيما نفاه عنه . وهذا أصل ضلال الجهمية من المعتزلة ، ومن وافقهم على مذهبهم ، فإنهم يظهرون للناس التنزيه ، وحقيقة كلامهم التعطيل ، فيقولون : نحن لا نجسم ، بل نقول : الله ليس بجسم ، ومرادهم بذلك نفى حقيقة أسمائه وصفاته .

إلى أن قال : فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، منزّه عن كل نقص وعيب ، ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فيثبتون ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات ، وينزهونه عما نزه عنه نفسه من مماثلة المخلوقات ، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل . قال عز شأنه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)^(١) فقلوه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) رد على المثلة . وقوله تعالى : (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) رد على المعطلة - انتهى ملخصاً - .

وقال رضي الله عنه (في جواب على سؤال رفع إليه نصه : الاستواء هل هو حقيقة أو مجاز ؟) : ما نصه ملخصاً :

(١) [٤٢ / الشورى / ١١] .

القول في الاستواء والنزول كالقول في سائر الصفات التي وصف بها نفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى سمي نفسه بأسماء ، ووصف نفسه بصفات ، فالقول في بعض هذه الصفات ، كالقول في بعض . ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن نَصِفَ الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين . ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز إطلاق النفي على ما أثبتته الله تعالى لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات ، بل هذا جحد للخالق ، وتمثيل له بالمعدومات . وقد قال ابن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، لأنهم لا ينفون شيئاً من ذلك ، ولا يجدون فيه صفة محصورة . وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج ، فينسكرونها ولا يحملونها على الحقيقة ، ويزعمون أن من أقرّ بها مشبه ، وهم عند من أقرّ بها ، نافون للمعبود ، لا مثبتون . والحق فيما قاله القائلون ، مما نطق به الكتاب والسنة ، وهم أئمة الجماعة . هذا الذي حكاه ابن عبد البر .

ومن أنكر أن يكون شيء من هذه الأسماء والصفات حقيقة ، فإنما أنكر ، لجهله لمسمى الحقيقة ، أو لكفره وتعطيله لما يستحقه رب العالمين . وذلك أنه قد يظن أن إطلاق ذلك يقتضي أن يكون المخلوق مماثلاً للخالق ، فيقال له : هذا باطل ، فإن الله موجود حقيقة ، والعبد موجود حقيقة ، وله تعالى ذات حقيقة ، والعبد له ذات حقيقة ، وليس ذاته تعالى كذات المخلوقات ، وكذلك له علم وسمع وبصر حقيقة ، وللعبد سمع وبصر وعلم حقيقة ، وليس علمه وسمعه وبصره مثل علم العبد وسمعه وبصره . والله كلام حقيقة ، وليس كلام الخالق مثل كلام المخلوقين . والله استوى على عرشه حقيقة ، وللعبد استواء على الفلك حقيقة ، وليس استواء الخالق كاستواء المخلوق . فإن الله لا يفتقر إلى شيء ، ولا يحتاج إلى شيء ، بل هو

الغنى عن كل شيء، والله تعالى يحمل العرش وحملته، بقدرته^(١) وَ: يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا . فمن ظن أن معنى قول الأئمة (الله مستور على عرشه حقيقة) يقتضى أن يكون استواءه مثل استواء العبد على الفلك والأنعام ، لزمه أن يكون قولهم : إن الله له علم حقيقة وسمع وبصر حقيقة وكلام حقيقة ، يقتضى أن يكون علمه وسمعه وبصره وكلامه مثل علم المخلوقين وسمعهم وبصرهم وكلامهم ، فمن ظن أن الحقيقة إنما تتناول صفة العبد المخلوقة دون صفة الخالق ، كان فى غاية الجهل ، فإن صفة الله أكمل وأتم وأحق بهذه الأسماء الحسنى ، فلا نسبة بين صفة العبد وصفة الرب ، كما لا نسبة بين ذاته وذاته . فكيف يكون العبد مستحقاً للأسماء الحسنى حقيقة ، والرب لا يستحق ذلك إلا مجازاً ؟ ومعلوم أن كل كمال حصل للمخلوق فهو من الخالق سبحانه وتعالى ، فله المثل الأعلى . فكل كمال حصل للمخلوق ، فالخالق أحق به ، وكل نقص ينزه عنه مخلوق ، فالحق أحق أن ينزه عنه ، ولهذا كان لله المثل الأعلى ، فإنه لا يقاس بخلقه ، ولا يمثل بهم ، ولا تضرب به الأمثال ، فلا يشترك هو والمخلوق بمثل ولا فى قياس . ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات الصفات لله تبارك وتعالى ، بل صفات الكمال لازمة لذاته ، يتمتع بثبوت ذاته بدون صفات الكمال اللازمة له ، بل يتمتع بتحقيق ذات من الذات عريّة عن جميع الصفات ، وهذا كله مبسوط فى غير هذا الموضع . فإذا قال : وجود الله ، وذات الله ، وعلم الله ، وقدرة الله ، وسمع الله ، وبصر الله ، وكلام الله ، ورحمة الله ، وغضب الله ، واستواء الله ، وزول الله ، ومحبة الله ، ونحو ذلك ، كانت هذه الأسماء كلها حقيقة لله تعالى من غير أن يدخل فيها شيء من المخلوقات ، ومن غير أن يماثله فيها شيء من المخلوقات . وإذا قال . وجود العبد وذاته وماهيته وعلمه وقدرته وسمعه وبصره وكلامه واستواءه وزوله ، كان هذا حقيقة للعبد مختصة به ، من غير أن تماثل صفاته صفات

(١) [٣٥ / فاطر / ٤١] ونصها : إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

الله تعالى . بل أبلغ من ذلك؛ أن الله أخبر أن في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس والناكح والمساكن ما ذكره في كتابه . كما ذكر أن فيها لبنا وعسلا وخمرا ولحما وحريرا وذهبا وفضة وهورا وقصورا وغير ذلك . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء . فتلك الحقائق التي في الجنة ليست مماثلة لهذه الحقائق التي في الدنيا ، وإن كانت مشابهة لها من بعض الوجوه ، والاسم يتناولهما حقيقة ، ومعلوم أن الخالق أبعد عن مشابهة المخلوق ، والمخلوق عن مشابهة الخالق . فكيف يجوز أن يظن أن فيما أثبتته الله تعالى من أسمائه وصفاته مماثلا لمخلوقاته ، وأن يقال ليس ذلك بحقيقة ! وهل يكون أحق بهذا الأسماء الحسنى والصفات العليا من رب السموات والأرض ، مع أن مباينتهما للمخلوقات أعظم من مباينة كل مخلوق لكل مخلوق ؟ والجاهل يضل بأن يقول : العرب إنما وضعوا لفظ (الاستواء) لاستواء الإنسان على السرير أو الفُلك ، أو استواء السفينة على الجودي ، ولنحو ذلك من استواء بعض المخلوقات . فهو كما يقول القائل : إنما وضعوا لفظ السمع والبصر والكلام لما يكون محله حدقة وأجفانا ، وأصمخة وآذانا ، وشفتين ولسانا ، وإنما وضعوا لفظ العلم والرحمة والإرادة لما يكون محله مضغة لحم وفؤاد ، وهذا كله جهل منه . فإن العرب إنما وضعت للإنسان ما أضافت إليه ، فإذا قالت سمع العبد وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته مما يختص به ، يتناول ذلك خصائص العبد . وإذا قيل سَمِعَ اللهُ وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته ، كان هذا متناولا لما يختص به الرب ، لا يدخل في ذلك شيء من خصائص المخلوقين . وكذلك إذا قيل استواء الرب ، فهذا الاستواء المضاف إلى الله كالعلم والسمع والبصر المضاف إلى الله . لا يجوز أن يتناول ذلك شيئا من خصائص المخلوقين وهؤلاء الجهال يمثلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق ، ثم ينفون ذلك ويمطلونه ، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختص بالمخلوق ، وينفون مضمون ذلك ، فيكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته ، وألحدوا في أسماء الله تعالى وآياته ،

وخرجوا عن القياس العقليّ ، والنص الشرعيّ ، فلا يبقى بأيديهم لامعقول صريح ، ولا منقول صحيح . ثم لا بد لهم من إثبات بعض ما يثبت به أهل الإثبات من الأسماء والصفات : فإذا أثبتوا البعض ، ونفوا البعض ، قيل لهم : ما الفرق بين ما أثبتتموه وما نفيتموه؟ ولم كان هذا حقيقة ، ولم يكن هذا حقيقة؟ لم يكن لهم جواب أصلاً ، وظهر بذلك جهلهم وضلالهم شرعاً وعقلاً . ونظائر هذا كثيرة ، فمن ظن أن أسماء الله تعالى وأسماء صفاته ، إذا كانت حقيقة لزم أن يكون مماثلاً للمخلوقين ، وأن تكون صفاته مماثلة لصفاتهم ، كان من أجهل الناس ، وكان أول كلامه سفسطة ، وآخره زندقة لأنه يقتضي نفى جميع أسماء الله وصفاته ، وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد . وإن فرق بين صفة وصفة ، مع تساويهما في أسباب الحقيقة والمجاز ، كان متناقضاً في قوله ، متهافناً في مذهبه مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعض .

وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور ، تبين له أن مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسداد والصحة والاطّراد ، وأنه مقتضى المعقول الصريح ، والمنقول الصحيح . وأن من خالفه ، كان مع تناقض قوله المختلف الذي يؤفك عنه من أفك ، خارجاً عن موجب العقل والسمع ، مخالفاً للفطرة والشرع ، والله يتم نعمته علينا وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين ، ويجمع لنا ولهم خير الدنيا والآخرة - انتهى - .

فائدة

في منشأ هذا التعطيل

وبين رضي الله عنه ، في فتوى أخرى له في الصفات ، مورد هذا التعطيل . حيث قال رضي الله عنه :

ثم أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين ، وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة - أعنى أن الله ليس على العرش حقيقة وإنما (استوى)

استولى ونحو ذلك - أول ما ظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها . فتنسب مقالة الجهمية إليه ، والجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمان وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن أعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ . وكان الجعد هذا - فيما قيل - من أهل حرّان ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة ، بقايا أهل دين النمرود الكنعانيين ، الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم وكانوا يعبدون السكواكب ، وينفون لها الهياكل ، ومذهبهم في الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية ، أو مركبة منهما ، وهم الذين بُعث إبراهيم الخليل ﷺ إليهم ، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة ، وأخذها الجهم أيضاً - فيما ذكره الإمام أحمد وغيره - من السمنية بعض فلاسفة الهند ، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيّات ، فهذه أسانيد الجهم ترجع إلى اليهود والصائبين والمشرّكين . والفلاسفة الضالون هم إما من الصائبين ، وإما من المشرّكين . ثم لما عربّت الكتب الرومية في حدود المئة الثانية ، زاد البلاء مع ما ألقي الشيطان في قلوب الضلال ، ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم . ولما كان في حدود المئة الثانية ، انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية ، بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته ، وكلام الأئمة - مثل مالك رضى الله عنه وسفيان بن عيينة وأبي يوسف والشافعي وأحمد وإسحق والفضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهم - في بشر المريسيّ هذا كثير في ذمه وتضليله . وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس ، مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتاب (التأويلات) وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه (تأسيس التقديس) ويوجد كثير منها في كلام خلق غير هؤلاء ، مثل أبي علي الجبائي وعبد الجبار بن أحمد الهمداني وأبي الحسين البصري وابن عقيل وأبي حامد الغزالي وغيرهم . وهي بعينها التأويلات التي ذكرها بشر المريسيّ في كتابه . وإن كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً ، ولهم كلام حسن في أشياء ، فإنما بيّنت أن عين

تأويلاتهم هي عين تأويلات المريسي . وعلمنا ذلك بكتاب (الرد) الذى صنفه عثمان بن سعيد الدارمى أحد الأئمة المشاهير فى زمن البخارى ، صنف كتاباً سماه (نقض عثمان بن سعيد ، على الكاذب العنيد ، فيما افترى على الله فى التوحيد) حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي ، بكلام يقتضى أن المريسي أقعد بها ، وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من جهته ، ثم ردها عثمان بن سعيد بكلام ، إذا طالع العاقل الذكى ، علم حقيقة ما كان عليه السلف فتبين له ظهور الحجة لطريقهم ، وضعف حجة من خالفهم . ثم إذا رأى الأئمة - أئمة الهدى - قد أجمعوا على ذم المريسية ، وأكثرهم كفروهم ، أو ضللوهم ، وعلم أن هذا القول السارى فى هؤلاء المتأخرين ، هو مذهب المريسي - تبين له الهدى لمن يريد الله هدايته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم قال رضى الله عنه :

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، فيمطلون أسماء الحسنى ، وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون فى أسماء الله وآياته . وكل واحد من فريق التعطيل والتمثيل ، فهو جامع بين التعطيل والتمثيل . أما المطلون ، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالخلق . ثم شرعوا فى نفي تلك المفاهيم ، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل ، مثلوا أولاً ، وعطلوا آخرأ ، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات الثلاثة بالله سبحانه وتعالى . فإنه إذا قال القائل : لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً ، وكل ذلك محال ، ونحو ذلك من الكلام ، فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأى جسم كان ، على أى جسم كان ، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم ، أما استواء يليق بجلال الله ، ويختص به ، فلا يلزمه

شئ من اللوازم الثلاثة ، كما يلزم سائر الأجسام . وصار هذا مثل قول الممثل : إذا كان للعالم صانع ، فإما أن يكون جوهرًا أو عرضًا ، إذ لا يعقل موجود إلا هذان . أو قوله : إذا كان مستويًا على العرش ، فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير أو الفلك ، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا . فإن كليهما مثل ، وكلاهما عطل حقيقة ما وصف الله به نفسه ، وامتاز الأول بتعطيل كل مسمى للاستواء الحقيقي ، وامتاز الثاني بإثبات (استواء) هو من خصائص المخلوقين ، والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شئ عليم ، وعلى كل شئ قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك ، ولا يجوز أن ثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراف التي لعلم المخلوقين وقدرهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا ثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها .

واعلم أنه ليس في العقل الصحيح ، ولا في النقل الصحيح ، ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلًا ، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة عن الحق ، فمن كان في قلبه شبهة وأحب حلها ، فذلك سهل يسير - انتهى كلامه - . ومن أحاط عقله بهذه الغرر ، علم براءة ساحة السلف مما رموا به من التجسيم . وفي هذه النقائس من الفوائد ما يشفع لدى الواقف بطوله .

الثالث : يطلق العرش على معانٍ : السرير ، ومنه آية (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)^(١) . والملك ، يقال : ثل عرشهم . وسقف البيت ، ومنه آية : (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)^(٢)

(١) [٢٧ / النمل / ٢٣] ونصها : إِيَّانِي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُورِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٥٩] ونصها : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، =

وحديث (كالفنديل المعلق بالعرش) . أو البناء ، ومنه : (وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)^(١) أى يبنون . ومنه : العريش ، وهو ما يستظل به . والعرش المضاف إلى الله تعالى لا يحد .

قال فى القاموس : العرش ، عرش الله تعالى ، ولا يحد - انتهى - .

وقال الراغب : عرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة ، ولذا لم يصح فى صفته حديث ، وكل ما روى فى ذلك فليس من مرويات الصحاح .

قال البيهقي فى كتاب (الأسماء والصفات) : وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم ، خلقه الله تعالى ، وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتاً ، وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة ، وفى أكثر الآيات دلالة على صحة ما ذهبوا إليه ، وفى الأخبار والآثار الواردة فى معناه دليل على صحة ذلك - انتهى - .

وقال الحافظ الذهبي فى كتاب (العلوّ) : اعلم أن الله عز وجل ، قد أخبرنا ، وهو

== قَالَ كَمْ لَبِثْتُ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

[١٨ / الكهف / ٤٢] ونصها : وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَى مَا آتَقَفَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا .

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] ونصها : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَرْنَا مَا كَانِ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ .

أصدق القائلين ، بأن عرش بلقيس عرش عظيم ، فقال : (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)^(١) ثم ختم الآية بقوله : (اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)^(٢) ، فكان عرشها عظيماً بالنسبة إليها ، وما نحيط الآن علماً بتفاصيل عرشها ولا بمقداره ولا بماهيته . ثم قال : فما الظن بما أعد الله تعالى من السرر والقصور في الجنة لعباده ، فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذهُ العليّ العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته وقوأمه وماهيته وحملته الحافين من حوله ، وحسنه ورونقه وقيمته ؟ اسمع وتعقل ما يقال ، والجا إلى الإيمان بالغيب ، فليس الخبر كلاماً عينة ، فالقرآن مشحون ، بذكر العرش ، وكذلك الآثار ، بما يمتنع أن يكون المراد به (الملك) . فدع المكابرة والمراء ، فإن المراء في القرآن كفر . آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . لا إله إلا الله الحليم الكريم . لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم . الحمد لله رب العالمين . انتهى كلام الذهبي رحمه الله تعالى .

الرابع - سئل الشيخ تقي الدين بن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان ، عن العرش : هل هو كرى أم لا ، فإذا كان كرياً والله من ورائه محيط به بائن عنه ، فما فائدة توجه العبد إلى الله سبحانه حين الدعاء والعبادة ، فيقصد العلو دون غيره ، إذ لا فرق حينئذ بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعي ، ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً يطلب العلو ، لا يلتفت بمنة ولا يسرة . فأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا وقد فطرنا عليها . فأجاب رحمه الله بقوله :

إن لقائل أن يقول : لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكروية ، وإنما ذكره طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهيأة ، فأروا أن الأفلاك تسعة ، وأن التاسعة ، وهو الأطلس ، محيط بها ، وهو الذي يحركها الحركة الشرقية ، وإن كان لكل

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٧٣٧ .

(٢) [٢٧ / النمل / ٢٦] .

فلك حركة تخصه ، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء ذكر عرش الله سبحانه وكرسيه والسموات السبع ، فقالوا (بطريق الظن) : إن العرش هو الفلك التاسع ، لا اعتقادهم أنه ليس وراء ذلك شيء ، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق . ثم إن منهم من رأى أنه هو الذى يحرك الأفلاك كلها ، فجعلوه مبدأ الحوادث ، وربما سماه بعضهم الروح أو النفس . وجعله بعضهم هو اللوح المحفوظ ، وبعض الناس ادعى أنه علم ذلك بطريق الكشف ، وذلك غير صحيح ، بل أخذه من هؤلاء المتفلسفة ، كما فعل أصحاب (رسائل إخوان الصفاء) . والأخبار تدل على أن العرش مبين لغيره من المخلوقات ، وأنه قبل السموات والأرض . فقد ثبت في صحيح البخارى^(١) أنه ﷺ قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، وأن له قوائم - كما في حديث^(٢) أبى سعيد : فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش . وقد استدل من قال إنه مقبب ، بما رواه أبو داود^(٣) من قوله عليه الصلاة والسلام (وإن الله تعالى على عرشه ، وإن عرشه على سمواته ،

(١) أخرجه البخارى في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١ - باب ما جاء في قول الله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَذًى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، حديث ١٥٠٦ عن عمران بن حصين .
(٢) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٢٥ - باب قول الله تعالى : وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، حديث رقم ١١٩٣ ونصه ، عن أبى سعيد الخدرى عن النبي ﷺ قال « الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش . فلا أدري أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٨ - باب في الجهمية ، حديث رقم ٤٧٢٦ ونصه : عن جبير بن مطعم قال : أتى رسول الله ﷺ أعرابى فقال : يا رسول الله ! جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام ، فاستسقى الله لنا =

وسمواته فوق أرضه هكذا - وقال بأصابعه مثل القبة -) . وهذا لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، ولا مستدير مثل ذلك ، لكن لفظ (القبة) يستلزم استدارة من العلو ، لا من جميع الجوانب ، إلا بدليل منفصل . ولفظ (الفلك) يستدل به على الاستدارة مطلقاً ، كما قال ابن عباس في : (كُلُّ فِي فَلَكٍ)^(١) : في فلكة مثل فلكة المغزل . وأما لفظ (القبة) فإنه لا يتعرض لهذا المعنى ، لا بنفي ولا إثبات ، لكن يدل على الاستدارة من العلو .

واعلم أن العرش ، سواء كان هذا الفلك التاسع ، أو جسماً محيطاً به ، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض ، محيط به ، أو قيل فيه غير ذلك ، فيجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر ، كما قال تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٢) .

وفي الصحيحين^(٣) عن النبي ﷺ أنه قال : يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة = فإننا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويحك ! أتدري ما تقول » ؟ وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك ! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه . شأن الله أعظم من ذلك . ويحك ! أتدري ما الله ؟ إن عرشه على سمواته هكذا » وقال بأصابعه مثل القبة عليه « وإنه ليضطأ طيط بالرحل بالراكب » .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٣] ونصها : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٧] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٩ - سورة الزمر ، ٢ - باب وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، حديث رقم ٢٠٣٩ عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٣ (طبعنا) .

ويطوى السماء يمينه ثم يقول : أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ وفي الصحيحين^(١) عن عبد الله بن عمر ، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : يطوى الله عز وجل السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ وفي لفظ^(٢) : ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء .

وفي رواية أخرى قال : قرأ على المنبر : وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ وَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ... الآية - قال : مطوية في كفه ، يرمى بها كما يرمى الغلام بالكرة . ففي هذه الأحاديث وغيرها ، المتفق على صحتها ، ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمته عز وجل ، أصغر من أن تكون ، مع قبضه لها ، إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا ، حتى يدحوها كما تدحى الكرة .

ثم قال في الجواب : فما وصف الله تعالى من نفسه وأسمائه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم سميناه كما سماه ، ولم نتكلف علم ما سواه ، فلا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف . وإذا كان كذلك ، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة . وفي ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى ، وإن شاء لم يفعل . وبكل حال فهو مبين لها ، ليس بجانب لها . ومن

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٩ - باب قول الله تعالى : لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، حديث رقم ٢٦٠٠ .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٥٢٤ و٢٥٢٥ (طبعنا) وهذا لفظ مسلم .

(٢) نصه في مسلم : حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء منه ، حتى إنني لأقول : أساقط هو رسول الله ؟

وليس فيه (ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله) .

المعلوم أن الواحد منا - ولله المثل الأعلى - إذا كان عنده خردلة ؛ إن شاء قبضها ، فأحاطت بها قبضته ، وإن شاء لم يقبضها ، بل جعلها تحته ، فهو في الحالين مباين لها ، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات ، كإحاطة الكرة بما فيها أم قيل إنه فوقها وليس محيطاً بها كوجه الأرض الذي نحن عليها بالنسبة إلى جوفها ، وكالقبة بالنسبة إلى ما تحته ، أو غير ذلك - فعلى التقدير يكون العرش فوق المخلوقات ، والخالق سبحانه فوقه ، والعبد في توجيهه إليه عز وجل ، يقصد العلوّ ، دون التحت .

وتمام هذا البحث بأن يقال : لا يخلو إما أن يكون العرش كريا كالأفلاك ، ويكون محيطاً بها ، وإما أن يكون فوقها ، وليس بكريّ . فإن كان الأول ، فمن المعلوم - باتفاق من يعلم هذا - أن الأفلاك مستديرة كرية ، وأن الجهة العليا هي جهة المحيط ، وهو المحدود ؛ وأن الجهة السفلى هي المركز ، وليس للأفلاك إلا جهتان : العلوّ والسفل فقط . وأما الجهات الست فهي للحيوان ، فإن له ست جوانب : يؤم جهة فتكون أمامه ، ويخلف أخرى فتكون خلفه ، وجهة تحاذي شماله ، وجهة تحاذي يمينه ، وجهة تحاذي رأسه ، وجهة تحاذي رجله . وليس لهذه الجهات في نفسها صفة لازمة ، بل هي بحسب النسبة والإضافة ، فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا ، لكن جهة العلوّ والسفل للأفلاك لا تتغير ، فالمحيط هو للعلوّ ، والمركز هو السفل ، مع أن وجه الأرض التي وضعها الله تعالى للأنام ، وأرساها بالجبال ، هو الذي عليه الناس والبهائم وغيرها . فأما الناحية الأخرى منها فالبحر محيط بها ، وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم . ولو قدر أن هناك أحداً ، لكان على ظهر الأرض ، ولم يكن من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة ، ولا من في هذه تحت من في هذه . كما أن الأفلاك محيطة بالمركز ، وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر ، ولا القطب الشمالي تحت الجنوبي ، ولا بالعكس ، وإن كان الشمالي هو الظاهر لنا بحسب بعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً ، كان ارتفاع القطب عنده

ثلاثين درجة ، وهو الذى يسمى عرض البلد . فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها ، وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته ، فكذلك من يكون على الأرض لا يقال إنه تحت أولئك ، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان ، وهو (تحت) إضافي . كما لو كانت نملة تمشي تحت سقف ، فالسقف فوقها ، وإن كانت رجالها تحاذيانه ، وكذلك من علق منكوسا ، فإنه تحت السماء ، وإن كانت رجاله تلى السماء وكذلك قد يتوهم الإنسان إذا كان في أحد جانبي الأرض أو الفلك ، أن الجانب الآخر تحته . وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول إن الأفلاك مستديرة . وهذا كما أنه قول أهل الهيئة والحساب ، فهو الذى عليه علماء المسلمين ، كما ذكره أبو الحسين المناوي وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهم . وهو المأخوذ من قول ابن عباس وغيره . ومن ظن أن من يكون في الفلك من ناحية يكون تحته من في الفلك من الناحية الأخرى في نفس الأمر ، فهو متوهم عندهم . فإذا كان الأمر كذلك ، فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقها مطلقاً ، فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلو . ومن توجه إلى الفلك الثامن أو التاسع مثلاً من غير جهة العلو ، كان جاهلاً باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى ما فوقه ! وغاية ما يقدر أن يكون كرى الشكل ، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله ، فإن السموات السبع والأرض في يده أصغر من الحصاة في يد أحدنا . وأما قول القائل : إذا كان كرياً ، والله من ورائه محيط بأئن عنه ، فما الفائدة في التوجه إلى العلو دون التحت ، ومع هذا نجد في قلوبنا قصد العلو ؟ فيقال : هذا إنما ورد لتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض ، وتحت ما على وجه الأرض ، من الآدميين والبهائم ، وهذا غلط . فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة ، لكان تحتها من كل جهة ، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً ، وهذا قلب للحقائق إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً ؛ وأهل الهيئة يقولون : لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية

أرجلنا ، وألقى في الخرق شيئاً ثقيلاً كالحجر ونحوه ، لسان ينتهي إلى المركز ، حتى لو ألقى من تلك الناحية حجر آخر ، لا لتقياً جميعاً في المركز ، الذي هو النقطة المتوسطة في كرة الأرض . ولو قدر أن إنسانين التقيا في المركز بدل الحجر ، لالتقت رجلاهما ، ولم يكن أحدهما تحت الآخر ، بل كلاهما فوق المركز ، وكلاهما تحت الفلك . وإذا كان مطلوب أحد ما فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا ، لأن مطلوبه من تلك الجهة أقرب ، لأنه لو قدر أن رجلاً أو ملسكاً يصعد إلى السماء ، كان صعوده مما يلي رأسه ، ولا يقول عاقل إنه يحرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية ، أو يذهب يميناً أو شمالاً ثم يصعد . ولو أن رجلاً أراد مخاطبة القمر ، فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا ، مع أنه قد يشرق ويغرب ، فكيف بما هو فوق كل شيء لا بأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى . وكما أن حركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق ، وهو الخط المستقيم ، فالطلب الإرادي الذي يقوم بقلوب العباد ، كيف يعدل عن الصراط المستقيم ؟

مطاب في حديث الإدلاء

إلى أن قال :

وحديث الإدلاء ، الذي رواه أبو هريرة وأبو ذر ، قد رواه الترمذي ^(١) وغيره من حديث

(١) رواه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٧ - سورة الحديد ، ونصه : عن قتادة ، حدثنا الحسن عن أبي هريرة قال : بينما نبي الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما هذا » ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان ، هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » قال « هل تدرون ما فوقكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « بينكم وبينها مسير خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون =

الحسن عن أبي هريرة ، وهو منقطع ، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، ولكن يقوّيه حديث أبي ذر المرفوع . فإن كان ثابتاً ، فمعناه موافق لهذا . فإن قوله عليه الصلاة والسلام : لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله ، إنما هو تقدير مفروض ، أى لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لكن لا يمكن أن يدلى أحد على الله عز وجل شيئاً ، لأنه عال بالذات ، وإذا أهبط شيء إلى جهة الأرض وقف في المركز . والمقصود ببيان إحاطة الخالق سبحانه ، كما بين أنه يقبض السموات ، ويطوى الأرض ، ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته تعالى ، ولهذا قرأ في تمام الحديث : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ^(١) . وهذا كله على

= ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّ سبع سموات ، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض . ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ قالوا : الله وبين السماء بُعْدَ مثل ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فإنها الأرض » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس محمد بيده ! لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى ، لهبط على الله » .

ثم قرأ : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(قال أبو عيسى) : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

قال : ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة (أقول) فى سماع الحسن من أبي هريرة ، انظر تعليقات السيد أحمد محمد شاكر على الحديث

رقم ٧١٣٨ من مسند أحمد (طبعة المعارف) .

(١) [٥٧ / الحديد / ٣] .

تقدير صحته، فإن الترمذی لما رواه قال: وفسره بمض أهل العلم بأنه هبط على علم الله. وبعض الحلوليه والاتحادية يظن أن فيه ما يدل على زعمه الباطل من أنه سبحانه حال بذاته في كل مكان، أو أن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك. وكذلك تأويله بالعلم غير مستقيم، بل على تقدير ثبوته، فالمراد به الإحاطة، ونحن لا نتكلم إلا بما نعلم، وما لم نعلمه أمسكنا عنه. وقد فطر الله تعالى الناس على التوجه في الدعاء إلى جهة العلو، وقال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا^(١). فجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة. وقد ثبت في الصحيحين^(٢) أنه ﷺ قال: إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يصبق قبل وجهه، فإن الله تعالى قبل وجهه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً، وليصبق عن يساره أو تحت رجله. وفي رواية: إنه أذن أن يصبق في ثوبه. وفي حديث^(٣) أبي رزين

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ... لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَمْلِكُونَ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨ كتاب الصلاة ، ٣٣ - باب حك البزاق باليد من المسجد ، حديث ١٨٠ عن أنس .

و ٣٦ - باب ليبرز عن يساره أو تحت قدمه اليسرى ، حديث ٢٧٢ عن أبي سعيد الخدري .

و ٣٨ - باب كفارة البزاق في المسجد ، حديث ٢٧١ عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث رقم ٧٤ (طبعنا) من حديث طويل في عدة معاني ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٩ - باب في الرؤية ، حديث ٤٧٣١

وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ، ١٣ - باب فيما أنكرت الجهمية ، حديث رقم ١٨٠

(طبعنا) ونصه : عن أبي رزين قال : قلت : يا رسول الله ! أنرى الله يوم القيامة ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال « يا أبا رزين ! أليس كلهم يرى القمر تخلياً به » ؟ قال قلت : بلى . قال « فالله أعظم ، وذلك آية في خلقه » . وكذا في أبي داود .

المشهور : لما أخبر ﷺ أنه ما من أحد إلا سيخلو به ربه ، فقال له أبو رزين : كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جمع ؟ فقال : سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله تعالى : هذا القمر آية من آيات الله تعالى ، كلكم يراه خلياً به ، فالله أكبر . وفي الصحيحين^(١) : لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم في الصلاة ، أو لا ترجع إليهم أبصارهم . واتفق العلماء على أن رفع المصلي بصره إلى السماء منهي عنه . وروى محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء ، حتى نزل : الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ^(٢) : فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده . فهذا مما جاءت به الشريعة تسكيلاً للفطرة ، لأن الداعي المأمور بالذل ، لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعو . خلافاً للجهمية الذين لا يفرقون بين العرش وقعر البحر ، وقد قال تعالى : قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ^(٣) . الآية - ثم بين تأويل^(٤) (الحجر الأسود يمين الله في الأرض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله تعالى وقبل يمينه) وقال : قد ظنوا^(٥) أن هذا وأمثاله محتاج إلى التأويل ، وهذا وهم ، لأنه لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن

(١) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٢ - باب رفع البصر إلى السماء

في الصلاة ، حديث رقم ٥٤٧ عن أنس . وليس في مسلم .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٤] ونصها : قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ .

(٤) نصه : الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده .

قال في الجامع الصغير : خط (أى الخطيب) وابن عساكر عن جابر بإسناد ضعيف .

(٥) في هامش المخطوطة : (أقول ممن ظفه الغزالي في (فيصل التفرقة) ١ هـ ج . ق) .

النبي ﷺ فإنه صريح في أن الحَجَرَ ليس هو من صفاته تعالى، وتقييده بالأرض يدل على أنه ليس هو يده على الإطلاق ، فلا تكون اليد حقيقة . وقوله: (فكأنما صافح الله تعالى) الخ صريح في أن المصافح ليس مصافحاً له تعالى ، لأن المشبه ليس هو المشبه به .

إلى أن قال : فهذا كله بتقدير كَرِيَّة العرش ، وأما إذا قدر أنه ليس بكريّ الشكل ، بل هو فوق العالم من الجهة التي هي وجه الأرض، وأنه فوق الأفلاك الكريّة ، كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام ، فوق نصف الأرض الكريّ ، أو غير ذلك من المقادير التي يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه - فعلى كل تقدير لا يتوجه إلى الله تعالى إلا إلى العلوّ ، مع كونه على عرشه مبايناً لخلقه . وعلى ما ذكرناه لا يلزم شيء من المحذور والتناقض . وهذا يزيل كل شبهة تنشأ من اعتقاد فاسد ، وهو أن يظن أن العرش إذا كان كريباً ، والله تعالى فوّه كما تقتضيه ذاته ، سبحانه عن مشابهة المخلوقين - وجب (فيما عند الزاعم) أن يكون سبحانه كريباً ، ثم يعتقد أنه إذا كان كريباً فيصح التوجه إلى ما هو كرى كالفلك التاسع من جميع الجهات ، وهذا خطأ ، فإن القول بأن العرش كرى لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك في أشكالها وأقذارها أو في صفاتها ، بل قد تبين أنه سبحانه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده أصغر من الحصة في يد أحدنا . فإذا كانت الحصة مثلاً في يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك ، هل يتصور عاقل ، إذا استشعر علوّ الإنسان على ذلك وإحاطته ، بأن يكون الإنسان كالفلك ؟ فالله تعالى - وله المثل الأعلى - أعظم من أن يظن به ذلك . وإنما يظنه الذين لم يقدروا الله ^(١) حقّ قدره والارض جميعاً قبضته ويوم القيمة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون . وإذا لم يكن كريباً . فالأمر ظاهر مما تقدم ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة ، والله تعالى أعلم .

(١) يشير إلى الآية [٣٩/الزمر/٦٧] ونصها: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وإنما أشبعنا الكلام ، في هذا المقام ، لأنه من أصول العقائد الدينية ، ومهمات المسائل التوحيدية ، وقد كثر فيه تعارك الآراء ، وتصادم الأهواء ، ولم يأت جمهور المتكلمين المؤولين بشيء يعلق بقلب الأذكياء ، بل اجتهدوا في إيراد التمحلات التي تأبأها فطرة الله أشد الإباء ، فبقيت نفوس أنصار السمة المحققين ، مائلة إلى مذهب السلف الصالحين ، فإن الأئمة منهم ، كان عقدهم ما بيناه فلا تسكن من المترين ، والحمد لله رب العالمين .

وقوله تعالى : « يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ » أى يغطيه به ، يعنى أنه تعالى يأتى بالليل على النهار ، فيغطيه ويلبسه ، حتى يذهب بنوره ، ويصير الجو مظلماً ، بعد ما كان مضيئاً . قال الشهاب : وجوز جعل الليل والنهار مغشى على الاستعارة ، بأن يجعل غشيان مكان النهار وإظلامه بمنزلة غشيانه للنهار نفسه ، فكأنه لفّ عليه لفّ الغشاء ؛ أو شبه تغيب كل منهما ، بطرياقه عليه ، بستر اللباس للابسه انتهى .

ولم يذكر العكس للعلم به ، ولأن اللفظ يحتملهما ، ولذلك قرئ « يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ » بنصب الليل ، ورفع النهار « يَطْلُبُهُ وَحَثِيثًا » أى يعقبه سريعاً ، كالطالب له ، لا يفصل بينهما شيء . قال الرازى : وإنما وصف سبحانه هذه الحركة بالسرعة ، لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم ، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة ، وأكملها شدة ، حتى إن الباحثين عن أحوال الموجودات قالوا : الإنسان إذا كان فى العَدْوِ الشديد السكامل ، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل ، وإذا كان الأمر كذلك ، كانت تلك الحركة فى غاية الشدة والسرعة ، فلهذا السبب قال تعالى : « يَطْلُبُهُ وَحَثِيثًا » ؛ « وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِى » أى مذلات لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع بقضائه وتصريفه . قال الشهاب : وسماه (أمراً) على التشبيه ؛ إذ جعل هذه الأشياء لسكونها تابعة لتدبيره وتصريفه كما يشاء كأنهن مأمورات منقادة لأمره . ويصح حمله على ظاهره - انتهى .

أى وهو الكلام ، فيكون تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم ، والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا ، وخراب هذا العالم . وقد قرئ (وَالشَّمْسُ) وما بعده بالنصب عطفاً على (السموات) ونصب (مَسْخَرَاتِمَ) على الحال . وقرأها ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء ، والخبر « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » أى هو الذى خلق الأشياء كلها ، وهو الذى صرفها على حسن إرادته ، وفسر الأمر بالقضاء والحكم .

تنبيهان :

الأول استخرج سفيان بن عيينة ، من هذا المعنى ، أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق ، فقال : إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر ، فمن جمع بينهما فقد كفر . يعنى أن من جعل الأمر الذى هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر ، لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله . كذا فى (الباب) . قال فى (الإكمال) : استدل به ابن عيينة على أن القرآن غير مخلوق ، أخرجه ابن أبي حاتم . لأن (الأمر) هو الكلام ، وقد عطفه على (الخلق) فاقتضى أن يكون غيره ، لأن العطف يقتضى المغايرة ، وسبقه إلى هذا الاستنباط محمد بن كعب القرظى . انتهى .

الثانى : قال فى (الباب) : فى الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل ، أى للحصر المستفاد من تقديم الظرف . ففيه رد على من يقول إن الشمس والقمر والكواكب تأثيرات فى هذا العالم .

« تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » أى تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم . قال فى (التاج) : سئل أبو العباس عن تفسير (تَبَارَكَ اللَّهُ) فقال : ارتفع - انتهى - .

ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على كمال القدرة والحكمة ، ليفردوه بالألوهية ، أمرهم بأن يدعوه وحده متذللين مخلصين فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٥] (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

«ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» نصب على الحال، أى: ذوى تضرع وخفية، والتضرع (تفعل) من (الضراعة) وهو الذل . والخفية (بضم الخاء وكسرها) مصدر خفي كرضى بمعنى اختفى ، أى : استتر وتوارى . وإنما طلب الدعاء مع تينك الحالتين لأن المقصود من الدعاء أن يشاهد العبد حاجته وعجزه وفقره لربه ذى القدرة الباهرة ، والرحمة الواسعة . وإذا حصل له ذلك ، فلا بد من صونه عن الرياء ، وذلك بالاختفاء ، وتوصلاً للإخلاص .

فوائد :

فى هذه الآية مشروعية الدعاء ، بشرطيه المذكورين .

قال السيوطى فى (الإكليل) : ومن التضرع رفع الأيدي فى الدعاء ، فيستحب . وقد أخرج البزار عن أنس قال : رفع رسول الله ﷺ يديه بعرفة يدعو ، فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا الابتهاال . ثم خاضت الناقة ، ففتح إحدى يديه فأخذها وهو رافع الأخرى - انتهى - .

وفى الصحيحين^(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً . إن الذى تدعون سميع قريب ... الحديث .

أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٣١ - باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ ونصه : عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ . فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا . فقال النبي ﷺ : «أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم . فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً . إنه معكم . إنه سميع قريب . تبارك اسمه وتعالى جده » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ (طبعنا) .

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال : إن كان الرجل ، لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ؛ وإن كان الرجل ، لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ؛ وإن كان الرجل ، ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به . ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر ، فيكون علانية أبداً . ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله تعالى يقول : اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضى فعله فقال : إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ وَنَدَاءٌ خَفِيًّا^(١) .

وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستسكانة .

وقال الناصر في (الانتصاف) : وحسبك في تعين الإسرار في الدعاء اقترانه بالتضرع في الآية ، فالإخلال به كالإخلال بالضرورة إلى الله في الدعاء ، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع ، لقليل الجدوى . فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه . وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء ، خصوصاً في الجوامع ، حتى يعظم اللغط ويشتد ، وتستك المسامع وتستد ، ويهتز الداعي بالناس ، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت في الدعاء ، وفي المسجد ، وربما حصلت للعوام حينئذ رقة لا تحصل مع خفض الصوت ، ورعاية سمع الوقار ، وسلوك السنة الثابتة بالآثار . وما هي إلا رقة شبيهة بالركة العارضة للنساء والأطفال ، ليست خارجة عن صميم الفؤاد ، لأنها لو كانت من أصل ، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء . وفي خفض الصوت به ، أوفر وأوفى وأزكى . فما أكثر التباس الباطل بالحق ، على عقول كثيرة من الخلق . اللهم ! أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه - انتهى - .

(١) [١٩ / مريم / ٣] .

وقد روى الحافظ أبو الشيخ في (الثواب) عن أنس مرفوعاً : دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية .

وقوله تعالى « إِنَّهُ وَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » أى : لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به في كل شيء ، ويدخل فيه الاعتداء بترك الأمرين المذكورين ، وهما التضرع والإخفاء دخولاً أولاً .

قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية كراهية الاعتداء في الدعاء . وفسره زيد بن أسلم بالجهر ، وأبو مجلز بسؤال منازل الأنبياء ، وسعيد بن جبير بالدعاء على المؤمن بالسر . أخرج ذلك ابن أبي حاتم . ولا يخفى أن هذا جميعه مما يشمله الاعتداء .

وقد روى الإمام أحمد^(١) وأبو داود أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها، ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها . فقال : لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت بالله من شرٍّ كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء (وفي لفظ : يعتدون في الطهور والدعاء) ، وقرأ هذه الآية : اذْعُوا رَبَّكُمْ . . . الآية - وإن بحسبك أن تقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل .

وروى الإمام أحمد^(٢) وأبو داود أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : اللهم ! إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : يا بني ! سل الله الجنة ، وعُدْ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٨٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود في : ٨ - كتاب الوتر ، ٢٣ - باب الدعاء ، حديث رقم ١٤٨٠ .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

وأخرجه أبو داود في : ١ - كتاب الطهارة ، ٤٥ - باب الإسراف في الماء ، حديث رقم ٩٦

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ،
إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا » قال أبو مسلم : أى لا تفسدوها بعد إصلاح الله إياها ، بأن خلقها على أحسن نظام ، وبعث الرسل ، وبين الطريق ، وأبطل الكفر .
وقال أبو حيان : هذا نهى عن إيقاع الفساد فى الأرض ، وإدخال ماهيته فى الوجود بجميع أنواعه ، من إفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان . ومعنى (بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) : بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ، ومصالح المكلفين . انتهى .
« وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا » أى : ذوى خوف من . وبيل العقاب ، نظراً إلى قصور أعمالكم ؛ وطمع فيما عنده من جزيل الثواب ، نظراً إلى سعة رحمته ، ووفور فضله وإحسانه .
« إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ » أى : أن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ . . . الآية (١) .

لطائف

الأولى - قال فى (الباب) : إن قلت : قال فى أول الآية (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) وقال هنا (وَادْعُوهُ) ، وهذا هو عطف الشيء على نفسه ، فما فائدة ذلك ؟
قلت : الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى (ادْعُوا رَبَّكُمْ) أى : ليسكن الدعاء مقرّباً .
(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا مُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

بالتضرع والإخبات . وقوله (وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا) أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين ، فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء ، والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء . وقيل : معناه كونوا جامعين في أنفسكم بين الخوف والرجاء في أعمالكم كلها ، ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله في العبادة والدعاء ، وإن اجتهدتم فيهما .

الثانية - في قوله تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ...) الآية - ترجيح للطمع على الخوف ، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف ، ولسكنه إذا رأى سعة رحمته وسبقها ، غلب الرجاء عليه . وفيه أيضاً تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة ، وهو الإحسان في القول والعمل . قال مطر الوراق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين .
الثالثة - تذكير (قريب) ، لأن (الرحمة) بمعنى الرحم ، أو لأنه صفة لمحذوف ، أى أمر قريب ، أو على تشبيه ب (فاعيل) ، الذى هو بمعنى (مفعول) أو الذى هو مصدر كالنقيض والصهيل ، أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره ، فإنه يقال : فلانة قريبة منى لا غير ، وفى المكان وغيره يجوز الوجهان . أو لاكتسابه التذكير من المضاف إليه ، كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه . وقد أوصلوا توجيه تذكيره إلى خمسة عشر وجهاً .

ولما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قدير - نبه تعالى على أنه الرزاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » أى قدام رحمته التى هى المطر ، فإن الصبا تثير السحاب ، والشمال تجمعها والجنوب تدره ، والدبور تفرقه . وهذا كقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ)^(١) وقوله سبحانه : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ)^(٢) . قال الثعالبي : المبشرات التى تأتى بالسحاب والغيث .

تنبيه :

قال أبوالبقاء : يقرأ (نُشْرًا) بالنون والشين مضمومتين ، وهو جمع ، وفى واحده وجهان أحدهما (نُشُور) مثل صبور وصبر . فعلى هذا يجوز أن يكون (فعول) بمعنى (فاعل) ، أى : ينشر الأرض . ويجوز أن يكون بمعنى (مفعول) كركوب بمعنى مركوب ، أى : منشورة بعد الطي ، أو مُنْشَرَةٌ أى مُحْيَاة ، من قولك أنشر الله الميت فهو مُنْشَرٌ ، ويجوز أن يكون جمع ناشر ، مثل بازل وبُزْل . ويقرأ بضم النون وإسكان الشين على تخفيف المضموم . ويقرأ نُشْرًا بفتح النون وإسكان الشين ، وهو مصدر نُشَرَ بعد الطي ، أو من قولك أنشر الله الميت فنشر أى عاش . ونصبه على الحال ، أى ناشرة ، أو ذات نشر ، كما تقول : جاء ركضاً أى راكضاً .

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٨] . . . وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ .

(٢) [٣٠ / الروم / ٤٦] . . . وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

ويقراً : بُشراً بالباء وضمّتين ، وهو جمع بشير ، مثل قلب وقلب . ويقراً كذلك إلا أنه بسكون الشين على التخفيف . ويقراً بشرى مثل حُبلى ، أى : ذات بشارة ويقراً بُشراً بفتح الباء وسكون الشين ، وهو مصدر بُشّرته - أى بالتخفيف - إذا بشرته - انتهى - .

« حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ » أى حملت « سَحَابًا ثِقَالًا » أى من كثرة ما فيها من الماء « سُمْنُهُ » أى : السحاب . قال الشهاب : السحاب اسم جنس جمعى ، يفرق بينه وبين واحده بالياء ، كتمر وتمرّة . وهو يذكّر ويؤنث ويفرد وصفه ، ويجمع . وأهل اللغة تسميه جمعاً ، فلذا روي فيه الوجهان ، فى وصفه وضميره - انتهى - . أى أرسلناه مع أن طبعه المهبوط « لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ » أى : لأجله ولمنفعته ، أو لإحيائه أو لسقيه . و (ميت) قرىء مشدداً ومخففاً « فَأَنْزَلْنَاهُ أَلْمَاءً » أى الضمير . والضمير فى (به) للبلد « فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ » أى المختلفة الأنواع ، مع أن ماءها واحد . والمراد (بكل الثمرات) المعتادة فى كل بلد تخرج به على الوجه الذى أجرى الله العادة بها ودبرها . والضمير فى (به) للماء أو للبلد . « كَذَلِكَ » أى مثل ذلك الإخراج « نُخْرِجُ الْمَوْتَى » أى نحياها بعد صيرورتها رمياً يوم القيامة ، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يوماً ، فتنبث منه الأجساد فى قبورها ، كما ينبت الحب فى الأرض « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى إنما وصفنا ما وصفنا من هذا التمثيل لى تتذكروا ، من أحوال الثمرات التى أعيدت إلى حلالها بعد تلفها ، أحوال الآخرة ، فتعلموا أن من قدر على ذلك ، قدر على هذا بلا ريب .

تنبيه :

من أحكام الآية كما قال الجشمى : أنها تدل على عظم نعمه تعالى علينا بالمطر ، وتدل على الحجاج فى إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات ، وتدل على أنه أراد من الجميع التذكّر . وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء . وإلا فهو قادر على إخراجه من غير ماء . فأجرى العادة على وجوه دبرها عليها على ما نشاهده ، لضرب من المصلحة ديناً ودنيا .

ومنها إذا رأى الأرض الطيبة تزرع دون الأرض السبخة ، وأنها قطع متجاورات ، علم فساد التقليد ، وأنه يجب أن يتفحص عن الحق حتى يعتقده . ومنها أنه إذا زرع وعلم وجوب حفظه من المبطلات ، علم وجوب حفظ الأعمال الصالحة من المحبطات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَابْذَنْ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

« وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ » أى : الأرض الكريمة التربة « يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَابْذَنْ رَبِّهِ » أى يخرج نباته وإفياً حسناً غزير النفع بمشيئته وتيسيره « وَالَّذِي خَبَتْ » أى كالحرّة ، وهى الأرض ذات الحجارة السود . وكالسبخة (بكسر الباء) وهى الأرض ذات الملح « لَا يَخْرُجُ » أى : نباته « إِلَّا نَكِدًا » أى : قليلاً ، عديم النفع . يقال : عطاء نكد ، أى قليل لا خير فيه ، وكذا رجل نكد . قال (١) :

فَاعْطِ مَا أُعْطِيَتْهُ طَيِّبًا لَا خَيْرَ فِي الْمُنْكَودِ وَالنَّكَدِ

وقال :

لَا تُنْجِزِ الْوَعْدَ إِنْ وَعَدْتَ . وَإِنْ أُعْطِيَ ، أُعْطِيَ تَأْفَهُ نَكِدًا

تنبيه :

قال ابن عباس فى الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وقال قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله ، وانتفع به . كالأرض الطيبة أصابها الغيث ، فأنبثت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا كما فى الصحيحين (٢) عن أبى موسى قال ، قال رسول الله ﷺ : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب

(١) قال فى اللسان : والنكد والنكد قلة العطاء ، وأن لا يهتأ من يعطاه . وأنشد البيت :

(٢) أخرجه البخارى فى : ٣ - كتاب العلم ، ٢٠ - باب فضل من علّم وعلم ، حديث ٦٨

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ١٥ (طبعنا) .

أرضاً ، فكانت منها نقية قبلت الماء فأُنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فُتِه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .

لطيفة :

قال أبو البقاء : يقرأ (يَخْرُجُ نَبَاتُهُ) بفتح الياء وضم الراء ورفع النبات . ويقرأ كذلك إلا أنه بضم الياء ، على ما لم يسم فاعله . ويقرأ بضم الياء وكسر الراء ونصب النبات أى : فيخرج الله أوالماء . ثم قال : ويقرأ (نَكِدًا) بفتح النون وكسر الكاف ، وهو حال ، ويقرأ بفتحهما على أنه مصدر أى : ذا نكد . ويقرأ بفتح النون وسكون الكاف وهو مصدر أيضاً ، وهولعة ويقرأ يخرج بضم الياء وكسر الراء ، ونكداً مفعوله .

« كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ » أى : نبين وجوه الحجج وزددها ونكررها « لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ » يعنى كما ضربنا هذا المثل ، كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية ، وحجة بعد حجة ، لقوم يشكرون الله تعالى على إنعامه عليهم بالهداية ، وأن جنَّبهم سبيل الضلالة . وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا بسماع القرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ » اعلم أن الله تعالى ، لما ذكر فى أول السورة قصة آدم ، وما اتصل بها من آثار قدرته ، وغرائب صنعته الدالة على توحيده وربوبيته ، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت - أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما جرى لهم مع أممهم . قال الرازى : وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيّنات ، ليس من خواص قوم النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت ، فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد تسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتخفيف ذلك على قلبه .

ثانيها : أنه تعالى يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن في الدنيا ، والخسارة في الآخرة ، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه تعالى ، وإن كان يعجل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منها على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان أمياً ، وما طالع كتاباً ، ولا تلمذ أستاذاً . فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دلّ ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله تعالى .

ونوح عليه السلام هو ابن لامك بن متوشلح بن أخنوخ بن يارد بن مهليل بن قينان ابن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام . هكذا نسبه ابن إسحق وغير واحد من الأئمة ، وأصله من التوراة .

ومعنى (أرسلنا) بعثنا ، وهو أول نبي بعثه الله بعد إدريس . كذا في (الباب) . وإدريس هو أخنوخ - فيما يزعمون ، قاله ابن كثير - : قال محمد بن إسحق : ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح ، إلا نبي قتل . وقال يزيد الرقاشي : إنما سمى نوحاً لكثرة ما نوح على نفسه - انتهى - . وفيه نظر . لأنه إنما يصح ما ذكره ، لو كان (نوح) لقباً مع وجود اسم له غيره ، واللفظ عربياً ، لمناسبة الاشتقاق . أما وهو اسمه الوضعي ، واللفظ غير عربي ، فلا . وفي كتاب (تأويل الأسماء الواقعة في الكتب السالفة) أن نوحاً معناه راحة أو سلوان ، فتثبت .

وكان ، قبل بعثة نوح عليه السلام ، قوم عرفوا الله وعبدوه خصوصاً في عائلة شيث عليه السلام ، ثم فسد نسل شيث أيضاً ، واختلطوا مع الأشرار ، وامتلات الأرض من جرائمهم ، وزاغوا عن الصراط المستقيم ، وصاروا يعبدون الأوثان والأصنام ، فأرسل الله تعالى إليهم نوحاً عليه السلام ، ليدهم على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قومًا صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تملأ الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودًا وسواعا ويعقوثا ويعوق ونسرا . فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له « فَقَالَ يَقَوْمُ » أى : الذين حقهم أن يشاركوني في كبريائي « أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ » أى : مستحق للعبادة في الوجود « غَيْرُهُ » قرئ بالحركات الثلاث ، فالرفع صفة لإله ، باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية ، وبالجر على اللفظ ، وبالنصب على الاستثناء ، وحكم (غير) حكم الاسم الواقع بعد (إلا) ، أى : ما لكم من إله إلا إياه « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى : إن تركتم عبادته أو عبدتم غيره « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » هو يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ، أو يوم نزول العذاب عليهم ، وهو الطوفان . ووصف اليوم بـ (العظم) لبيان عظم ما يقع فيه ، وتسكين الإنذار . قال الزمخشري : فإن قلت : فما موقع الجملتين بعد قوله (أَعْبُدُوا اللَّهَ) قلت : الأولى - بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ، والثانية - بيان للداعى إلى عبادته ، لأنه هو المحذور عقابه ، دون ما كانوا يعبدونه من دون الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالَ أَلَمْ لَا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« قَالَ أَلَمْ لَا مِنْ قَوْمِهِ » أى : الأشراف ، أو الجماعة ، أو ذؤو المشارة والتجمع « إِنَّا لَنَرَاكَ » أى : بأمرك بعبادة الله ، وترك عبادة غيره وتخويف العذاب على ترك عبادة الله ، وعلى عبادة غيره « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى : فى ذهاب عن طريق الحق والصواب ، لكونه خلاف ما وجدنا عليه آباءنا . قال ابن كثير : وهكذا حال الفجار ، إنما يرون الأبرار فى ضلالة ، كقوله : وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ^(١) . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا آفَاكُ قَدِيمٌ ^(٢) إلى غير ذلك من الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالَ يَتَقَوْمِ آيَسَ بِي ضَلَالَةٍ وَلَيْكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

« قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَيْكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّا اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي » أى : ما أوحى إلىّ فى الأوقات المتطاولة ، أو فى المعانى المختلفة ، من الأوامر والنواهى ، والمواعظ والزواجر ، والبشائر والندائر . ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه ، إدريس ، فهذا نكتة جمع (الرسالات) ، وإلا فرسالة كل نبيّ واحدة ، وهى مصدر ، والأصل فيه أن لا يجمع ، فجمع لِمَا ذُكِرَ

(١) [٨٣ / المطففين / ٣٢] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

« وَأَنْصَحُ لَكُمْ » وأقصد صلاحكم بإخلاص « وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا من طريق الوحي ، أشياء لا علم لكم بها ، أو أعلم من قدرته الباهرة ، وشدة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه . قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات ، كما جاء فى صحيح مسلم ^(١) أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة ، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جميعاً : أيها الناس ! إنكم مسئولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد .

(١) من حديث جابر الطويل فى صفة حجة النبي ﷺ . أخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعنا) وهذا نصه ، فيما يتعلق بخطبته :
نخطب الناس وقال « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كل شئ من أمر الجاهلية ، تحت قدمي موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع . وأول ربا أضع ربانا . ربا العباس بن عبد المطلب . فإنه موضوع كله . فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله . واستحلتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به . كتاب الله . وأنتم تسألون عني . فما أنتم قائلون ؟ » .
قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بإصبعه السبابة ، يرفعها إلى السماء وينكسها إلى الناس « اللهم ! اشهد . اللهم ! اشهد » ثلاث مرات ...

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ » أى : موعظة « مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ » أى : من العذاب إن لم تؤمنوا « وَلِتَتَّقُوا » أى : وليوجد منكم التقوى ، وهى الخشية بسبب الإنذار « وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى : ولترحموا بالتقوى إن وُجدت منكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَكَذَّبُوهُ فَأَجْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)

« فَكَذَّبُوهُ » أى أصروا على تكذيبه مع طول مدة إقامته فيهم ولم يؤمن معه منهم إلا قليل « فَأَجْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ » أى عن الحق ، فلم يستبصروا الحق ولم يستنبروا بنور الوحي الذى هو كالشمس ، ولا بظهور الآيات ، ولا بآية الطوفان المغرق لهم ، بعد إنذاره به ، على تكذيبهم . والعمى ذهاب بصر العينين ، وبصر القلب . يقال : عمى فهو أعمى وعمى . كما فى القاموس .

وكان من أمر نوح عليه السلام ، أن قومه ، لما أعرضوا عن الإيمان ، وتنادوا على العصيان ، وعبادة الأوثان ، وطال عليه أمرهم ، شكاهم إلى الله تعالى ، فأوحى الله إليه أنه (لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ) ^(١) وهم ناس قليل ، فحينئذ دعا عليهم فقال : وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ^(٢) . فأوحى الله إليه أن يصنع السفينة ، وصار قومه يسخرون منه ، ويقولون : يا نوح ! قد صرت نجارا بعد النبوة ! فقال : إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ

(١) [١١ / هود / ٣٦] ونصها : وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . (٢) [٧١ / نوح / ٢٦] .

عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ^(١) . فلما فرغ من صنع السفينة ، أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات ، حتى لا ينقطع نسلها . وحشرها إليه من كل جهة . ولما رأى فوران التنور ، وكان هو العلامة بينه وبين الله تعالى في ابتداء الطوفان ، ركب في الفلك هو ومن آمن معه ، وحمل من كل زوجين اثنين . وأمر الله تعالى السماء أن تمطر . والأرض أن تتفجر عيوناً ، وارتفع الماء في هذا الطوفان فوق رؤوس الجبال ، فهلك جميع ما على الأرض من جنس الحيوان ، ولم يبق حيّاً غير أهل السفينة .

وفي التوراة : أن الأمطار هطلت أربعين يوماً وليلة دون انقطاع ، حتى غمرت المياه وجه الأرض ، وَعَلَّتْ خَمْسَةُ عَشَرَ ذِرَاعًا فوق الجبال الشاخغة ، وهلك بالطوفان كل جسم حي . ثم أرسل الله ريحاً عاصفة ، فانقطعت الأمطار ونقصت المياه شيئاً فشيئاً ، وقضى نوح سنة كاملة داخل الفلك . وحين خروجه منه بنى مذبحاً للقرابين ، شكرًا لله تعالى ، وتناست الناس من أولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافث . وتوطن سام بلاد آسية ، وأقام حام بنواحي إفريقية ، وسكن يافث الديار الأوروبية - والله أعلم - .

تنبيه :

قال الجشمتي : في الآيات فوائد . منها : أن نوحاً دعاهم أولاً إلى التوحيد . والرسول وإن حمل الشرائع ، فلا طريق له إلى بيان الشرائع إلا بعد العلم بالتوحيد . ولأنهم لا ينتفعون بذلك إلا بعد اعتقاد التوحيد ، فلذلك بدأ به . وجميع الرسل بدءوا بالتوحيد ثم بالشرائع . ولذلك كان أكثر حجاج نبينا عليه السلام ، بمكة ، في التوحيد - انتهى - .

وقال ابن كثير : بين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله (١) [١١/هود/٣٨ و٣٩] ونصهما : وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ ...

والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم الكافرين ، كقوله : **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا** ^(١) . الآية - وهذه سنة الله في عباده ، في الدنيا والآخرة ، أن العاقبة للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالفرق ، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين . قال مالك عن زيد بن أسلم : كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم ، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحاز . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] **(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ)**

« وَإِلَىٰ عَادٍ » متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى (أَرْسَلْنَا) في قصة نوح . أى وأرسلنا إلى عادٍ ، وهى قبيلة كانت تعبد الأصنام ، وكانت ذات بسطة وقوة ، قهروا الناس بفضل القوة .

قال الشهاب : (عاد) اسم أبيهم سميت به القبيلة أو الحى فيجوز صرفه وعدمه ، كشمود - كما ذكره سيويوه - .

قال الليث : وعاد الأولى ، هم عاد بن عاديا بن سام بن نوح الذين أهلكهم الله . قال زهير ^(٢) :

وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ وَعَادِيًا

(١) [٤٠ / غافر [٥١] ... **وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .**

(٢) صدر البيت : * **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ بُعَاً ***

من قصيدته التى مطلعها :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى من الأمر ، أو يَبْدُو لَهُمْ مَا بَدَأَ لِيَا =

وأما عاد الأخيرة ، فهو بنو تميم ، ينزلون رمال عالج^(١) .

وفي كتاب الأنساب : عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، كان يعبد القمر ، ويقال إنه رأى من صلبه وأولاد أولاده أربعة آلاف ، وأنه نكح ألف جارية ، وكانت بلادهم إرم المذكورة في القرآن ، وهى من عُمان إلى حضرموت . ومن أولاده شدّاد بن عاد صاحب المدينة المذكورة - كذا في تاج العروس - .

وقال ابن عرفة : قوم عاد كانت منازلهم في الرمال وهى الأحقاف .

وقال ابن إسحاق : الأحقاف رمل فيما بين عُمان إلى حضرموت .

وقوله تعالى : « أَخَاهُمْ هُودًا » أى أخاهم في النسب ، لأنه منهم ، في قول النساين .

وقيل : الناس كلهم إخوة في النسب ، لأنهم ولد آدم وحواء . فلمراد صاحبهم ، وواحد في جملتهم ،

= يقول : هل يرى الناس من الرشد ما يرى ، أى يظهر لهم ما يظهر لى أن الناس يموتون ؟

وفي بيت الشاهد :

تُبْعَ : ملك من ملوك حمير . وعاد هو أبو لقمان . وعاديا أبو السموأل ، وكان له حصن

بتياء يقال له الأبلق ، وهو الذى استودعه امرؤ القيس أدراعه .

(١) في معجم البلدان (ج ٤ ص ٦٩ طبعة بيروت) .

عالج رملة بالبادية مسماة بهذا الاسم . قال أبو عبيد الله السكوني : عالج رمال بين فيء

والقرّيات ينزلها بنو بختر من طيمى وهى متصلة بالثعالبية على طريق مكة لا ماء بها ولا يقدر

أحد عليهم فيه ، وهو مسيرة أربع ليال ، وفيه برك إذا سالت الأودية امتلأت .

وذهب بعضهم إلى أن رمل عالج هو متصل بوبار .

قال ابن السكيت : إذا أكل البعير العَدْجَان ، وهو نبت ، قيل : بعير عالج . وهو

شجر يشبه العنبدى وأغصانها صلبة ، الواحدة عالجانة . فيجوز أن يكون هذا الموضع سمي

بذلك تشبيهاً له بالبعير العالج . أو يكون لصلوبته يعالج المشى فيه أى يمارس .

كما يقال : يأخا العرب ، للواحد منهم . وإنما أرسل منهم ، لأنهم أفهم لقوله من قول غيره ، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله ، وأرغب في اقتفائه .

قال الشهاب: اشتهر أن هوداً عربى ، وظاهر كلام سيويوه أنه أعجمى ، ويشهدله ما قيل : إن أول العرب يعرب - انتهى - .

وهود هو - على ما قال ابن إسحق - ابن شالح بن أرغشد بن سام بن نوح . ويقال غير ذلك - والله أعلم - .

وروى ابن إسحق عن عامر بن وائلة ، قال : سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيراً أحمريخالطه مدرة حمراء ، ذأراك وسدر كثير ، بناحية كذا وكذا ، من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم ، يأمر المؤمنين ! والله إنك لتنعمته نعت رجل قد رآه ! قال : لا ، ولكنى قد حدثت عنه . فقال الحضرمي . وما شأنه يأمر المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود عليه السلام - ورواه ابن جرير ^(١) - . قال ابن كثير : وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن ، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك . وقال : إنهم كانوا يأوون إلى العمد في البر ، كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * آلِ نَبِيِّ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْأَرْضِ ^(٢) . وذلك لشدة بأسهم وقوتهم ، كما قال تعالى : فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ^(٣) . ولذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وإلى طاعته وتقواه ، كما قال تعالى « قَالَ » أى : هود « يَاقَوْمِ » أى : الذين حقهم أن يكونوا مثلى « أَعْبُدُوا اللَّهَ » أى : وحده « مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ » أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى : تخافون عذابه .

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٣ من التفسير .

(٢) [٨٩ / الفجر / ٦ - ٨] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ
وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ)

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ » أى : فى خفة حلم ، وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر ؛ وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز ، أرادوا أنه متمكن فيها ، غير منفك عنها « وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ » أى : فى ادعائك الرسالة ، إذ استبعدوا أن يرسل الله أحداً من أهل الأرض إليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)
« قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » أى : إليكم ، لإصلاح أمر نسايتكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)
« أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ » أى : ناصح لكم فيما أمركم به من عبادته تعالى وحده ، وأمين على تبليغ الرسالة ، لا أكذب فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ،
وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ
بَضْطَةً ، فَادْكُرُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)
« أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ » أى :

أَيَّامَ اللَّهِ وَلِقَاءَهُ ، أَيْ : لَا تَعْجَبُوا وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ « وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ أُمَّةٍ قَوْمِ نُوحٍ » أَيْ : خَلَقْتُمُوهُمْ فِي مَسَاكِنِهِمْ ، أَوْ فِي الْأَرْضِ بِأَنْ جَعَلْنَاكُمْ مَلُوكًا بَعْدَهُمْ ، فَإِنْ شَدَّادُ بْنُ عَادٍ مِمَّنْ مَلَكَ مَعْمُورَةَ الْأَرْضِ مِنْ رَمْلِ عَالِجٍ إِلَى شَجَرِ عُثْمَانَ - كَذَا قَالُوا - « وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً » أَيْ قَامَةً وَقُوَّةً « فَأَذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ » أَيْ : فِي اسْتِخْلَافِكُمْ ، وَبَسْطَةِ أَجْرَامِكُمْ ، وَمَا سَوَاهَا مِنْ عَطَايَاهُ ، لِتَخْصُصُوهُ بِالْعِبَادَةِ « لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ » أَيْ تَفُوزُونَ بِالْفَلَاحِ .

تنبيهان

الأول قَالَ الزُّمَخْشَرِيُّ : فِي إِجَابَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، مَنْ نَسَبَهُمْ إِلَى الضَّلَالِ وَالسَّفَاهَةِ ، بِمَا أَجَابُوهُمْ بِهِ مِنَ السَّلَامِ الصَّادِعِ عَنِ الْحِلْمِ وَالْإِعْضَاءِ ، وَتَرَكَ الْمَقَابِلَةَ بِمَا قَالُوا لَهُمْ ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنْ خُصُومَهُمْ أَضَلَّ النَّاسَ وَأَسْفَهَهُمْ - أَدَبٌ حَسَنٌ ، وَخَلْقٌ عَظِيمٌ . وَحِكَايَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ ، تَعْلِيمٌ لِعِبَادِهِ كَيْفَ يُخَاطَبُونَ السَّفَهَاءُ ، وَكَيْفَ يَغْضَوْنَ عَنْهُمْ وَيَسْبِلُونَ أَذْيَالَهُمْ ، عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهُمْ - انْتَهَى .

وَزَادَ الْقَاضِي : إِنْ فِي ذَلِكَ كَيْلُ النَّصِيحِ وَالشَّفَقَةِ ، وَهَضْمُ النَّفْسِ ، وَحَسَنُ الْمَجَادَلَةِ قَالَ : وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِكُلِّ نَاصِحٍ - انْتَهَى .

الثاني - لَا يَعْتَمِدُ عَلَى مَا يَذْكُرُهُ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ الْمَوْلَعِينَ بِنَقْلِ الْغُرَائِبِ ، بِدُونِ وَضْعِهَا عَلَى مَحَكِّ النَّظَرِ وَالنَّقْدِ ، مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي طُولِ قَوْمِ عَادٍ ، وَضَخَامَةِ أَجْسَادِهِمْ ، وَأَنْ أَطْوَلَهُمْ كَانَ مِائَةَ ذِرَاعٍ ، وَأَقْصَرَهُمْ كَانَ سِتِينَ ذِرَاعًا ، فَإِنْ ذَلِكَ لَمْ يَقُمْ عَلَيْهِ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ وَلَا نَقْلِيٌّ ، وَهُوَ وَهْمٌ . وَأَمَّا قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ مُخَاطَبًا الْقَوْمَ عَادَ (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً) فَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا أَرَادُوا ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ أَجْسَادِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ وَشِدَّتِهَا . وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمَعْتَادَةِ . فَإِنَّ الْأُمَمَ لَيْسَتْ مَتَسَاوِيَةً فِي ضَخَامَةِ الْجِسْمِ وَطُولِهِ وَقُوَّتِهِ ، بَلْ تَتَفَاوَتُ لَكِنْ تَفَاوُتًا قَرِيبًا . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَجْسَادَ مَنْ سَلَفَ كَأَجْسَادِنَا ، لَا تَتَفَاوَتُ عَنْهَا تَفَاوُتًا كَبِيرًا ، مَسَاكِينُ كُنُثْمُودِ

قوم صالح الباقية ، وآثارهم البادية . ومثله ، بل أعرق منه في الوهم ، ما ينقلونه في وصف عوج ابن علق الجبار ملك بيسان ، من أنه كان يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله ، ويتناول الحوت من قرار البحر ، فيشويه بعين الشمس ، يرفعه إليها . والحال أن الشمس كوكب ، لا مزاجله من حر أو برد ، وإنما حرارتها من انعكاس شعاعها ، بمقابلة سطح الأرض والهواء ، فشدّة حرارتها في الأرض ، وتتناقص الحرارة فيما علا عنها بمقدار الارتفاع .

وقد أنكر العلامة ابن خلدون جميع ذلك في (مقدمة تاريخه) ، وأبان أن الذي أدخل الوهم على الناس في طول الأقدمين هو ما يشاهدونه من بعض آثارهم الجسيمة ، ومصانعهم العظيمة ، كأهرام مصر وإيوان كسرى ، فيتخيّلون لأصحابها أجساماً تناسب ذلك . والحال أن عظم هذه المصانع والآثار في أمة من الأمم ناشئ عن عظم ذواتها ، واتساع ممالكها ، وقوة شوكتها ، ونماء ثروتها ، واستعانتها بالماهرين في فنّ جرّ الأثقال ، فإنه يقوم بحمل ما تعجز القوى البشرية عن عشر معشاره . وأنكر أيضاً ما ينقلون من قصة جنة عاد ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ، وأنها بنيت في مدة ثلاثمائة سنة في صحارى عدن . بناها شداد بن عاد حيث سمع وصف الجنة . وأنها لما تم بناؤها ، أرسل الله على أهلها صيحة ، فهلكوا كلهم ، وأن اسمها (إرم ذات العماد) وأنها المشار إليها بقوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعِمَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ^(١) * ويزعمون أنها لم تزل باقية في بلاد اليمن ، وإنما حُجبت عن الأبصار . وحيث إن ذلك لم يُرو عن الصادق الأمين فلا نعمل عليه ، ولا نلتفت إليه . وأغلب المولعين بنقل مثل هذه الغرائب المصنعة ، هم المؤرخون الذين يعتمدون على أخبار بني إسرائيل ، ويقلدونها من غير برهان ودليل ، والله الهادي إلى سواء السبيل - كذا أفاده بعض المحققين - .

ثم أخبر تعالى عن تمرد عاد وطفيناهم وإنكارهم على هود عليه السلام ، بقوله سبحانه :

(١) [٨٩ / الفجر / ٦ - ٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ،

فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ)

« قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ » أى لنخصه بالعبادة « وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى : (أَفَلَا تَتَّقُونَ) « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ » أى فى الإخبار بنزول العذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَذَابٌ ، أَتَجِدَلُونِنِى

فِى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ،

فَاَنْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ » أى عذاب . والرجس والرجز بمعنى ،

حتى قيل إن أحدهما مبدل من الآخر ، كالأسد والأزد . وأصل معناه الاضطراب . يقال :

رجست السماء : رعدت شديداً وتمخضت ، وهم فى مرجوسة من أمرهم ، أى فى اختلاط

والتباس ، ثم شاع فى العذاب لاضطراب من حلّ به . وادعى بعضهم أن الرجس بمعنى العذاب

مجاز ، قال : لأنه حقيقة فى الشيء القدر ، فاستعير لجزائهم . وظاهر اللغة أنه حقيقة . ووجه التعبير

بالمضى عما سيقع ، تنزيل المتوقع كالواقع كما فى (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ)^(١) « وَعَذَابٌ » أى سخط

لإشراككم معه من هو فى غاية النقص ، فى أعلى كلالته التى هى الإلهية « أَتَجِدَلُونِنِى فِى

أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ » أى فى أشياء ما هى إلا أسماء ليس تحتها مسميات ،

(١) [١٦ / الفصل / ١] ونصها : أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ

عَمَّا يُشْرِكُونَ .

لأنكم تسمونها آلهة ، ومعنى الإلهية فيها معدوم ومحال وجوده . وهذا كقوله تعالى :
مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ^(١) كذا في الكشف - .

قال الشهاب : جعل الأسماء عبارة عن الأصنام الباطلة ، كما يقال لما لا يليق : ما هو ، إلا مجرد اسم . فالمعنى : أتجادلونني في مسميات لها أسماء لا تليق بها ، فتوجه الذم للتسمية ، الخالية عن المعنى . والضمير حينئذ راجع إلى (أسماء) وهي المفعول الأول للتسمية ، والثاني آلهة ، ولو عكس لزم الاستخدام - انتهى - .

وقوله تعالى : « مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أي حجة ودليل على هذه التسمية ، لأن المستحق للمعبودية بالذات ليس إلا من أوجد الشكل ، وإنها لو استحقت لكان ذلك يجعله تعالى ، إما بإزالة آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل ، فتحقق بطلان ما هم عليه .

قال الجشمي : دلت الآية على فساد التقليد ، حين ذمهم بسلوك طريقة آبائهم . وتدل على أن المعارف مكتسبة . وتدل على بطلان كل مذهب لا دليل عليه . ويدل قوله (أَتُجَادِلُونَنِي) على أن المبطل مذموم في جداله ، والواجب عليه النظر ليعرف الحق . انتهى .

وقال القاضي : بين تعالى أن منتهى حججهم وسندهم ، أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقيق المسمى ، وإسناد الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله ، إظهاراً لغاية جهالتهم ، وفرط غباوتهم .

« فَأَنْتَظِرُونَ أَمْ » أي : نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم (فَأَنْتَنَا بِمَا تَعْدُنَا) ، لأنه وضح الحق ، وأنتم مصرّون على العناد « إِنْ يَأْتِيَنَّكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ » أي : لما يحل بكم .
قال المهايغي : فجاء منتظرهم بحيث لا ينجو منه ، بمجرى العادة ، أحد ، وجعل من قبيل الريح التي تتقدم الأمطار ، لكفرهم برياح الإرسال .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] ونصها : إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ)

« فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ » أى : من آمن به ، على خرق العادة « بِرَحْمَةٍ مِّنَّا » ليدل على رحمتنا عليهم فى الآخرة « وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُواْ بِآيَاتِنَا » أى استأصلناهم . قال الشهاب : قطع الدابر ، كناية عن الاستئصال إلى إهلاك الجميع ، لأن المعتاد فى الآفة إذا أصابت الآخر أن تمر على غيره ، والشئ إذا امتد أصله أخذ برمته . والدابر بمعنى الآخر « وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ » عطف على (كَذَبُواْ) داخل معه فى حكم الصلة .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة نفي الإيمان عنهم فى قوله : (وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ) مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم ، كهرثد بن سعد ، ومن نجا مع هود عليه السلام ، كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين ، ونجى الله المؤمنين . انتهى .

قال الطيبي : يعنى إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين ، وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان لا غير ، تريد رغبته فيه ، ويعظم قدره عنده - انتهى - .

قال ابن كثير : قد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم فى أما كن آخر من القرآن ، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ^(١) * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَرِمِ ^(٢) . كما قال فى الآية الأخرى : وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَلِيمَةٍ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ^(٣) لما تمردوا وعتوا ، أهلكهم الله بريح عاتية ، فكانت تحمل الرجل

(١) يشير إلى [٥١ / الذاريات / ٤١] وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٤٢] .

(٣) [٦٩ / الحاقة / ٨-٦] .

منهم ، فترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فتشغل رأسه حتى تُبَيِّنَهُ من جثته .
 وقال محمد بن إسحق^(١) : كانت منازل عاد وجماعتهم ، حين بعث الله فيهم هودا ، الأحقافَ
 قال : و (الأحقاف) الرملُ ، فيما بين عُمان إلى حضرموت ، فاليمين كله .
 وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلها . وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله .
 وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله : صنم يقال له (صُدَاء) وصنم يقال له (صَمُود)
 وصنم يقال له (الهباء) : فبعث الله إليهم هودا ، وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا ،
 فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس . لم يأمرهم فيما
 يذكر ، والله أعلم ، بغير ذلك . فأبوا عليه وكذبوه . وقالوا^(٢) : (مَنْ أَشَدُّ قُوَّةً) .
 واتبعه منهم ناس ، وهم يسير مكتمون بإيمانهم . وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد
 يقال له (مرثد بن سعد بن عفير) وكان يكنم إيمانه . فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا
 نبيهم ، وأكثروا في الأرض الفساد ، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع ، كلمهم هود
 فقال^(٣) : (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *
 وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) .
 (قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
 بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ)^(٤) أى : ما هذا الذي جئتنا به إلا

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٤ من تفسير ابن جرير الطبري .

(٢) [٤١ / فصلت ١٥] ونصها : فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
 وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ قُوَّةً ، أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا
 بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٢٨ - ١٣١] .

(٤) [١١ / هود / ٥٣ - ٥٥] .

جَنُونَ أَصَابَكُمْ بِهِ بَعْضُ أَهْمَتِنَا هَذَا الَّتِي تَعِيبُ . (قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكَ أَنَّ نَبِيَّ بَرِيٍّ
مِمَّا تَشْرِي كُونَ * مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ) إِلَى قَوْلِهِ ^(١) (صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ) .

فلما فعلوا ذلك ، أمسك الله عنهم المطر من السماء ثلاث سنين ، فيما يزعمون - حتى
جهدهم ذلك .

وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد ، فطلبوا إلى الله الفرج منه ،
كانت طلبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمكة ، مسلمهم ومشرِكهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير
شتى مختلفة أديانهم ، وكلهم معظم لمكة ، يعرف حرمتها ومكانها من الله .

قال ابن إسحق : وكان البيت في ذلك الزمان معروفًا مكانه ، والحرم قائم فيما يذكر ،
وأهل مكة يومئذ العماليق - وإنما سموا (العماليق) لأن أباهم (عمليق بن لاوذن بن سام بن نوح) -
وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة ، فيما يزعمون ، رجلاً يقال له معاوية بن بكر ، وكان أبوه حيًّا
في ذلك الزمان ، ولكنه كان قد كبر ، وكان ابنه يرأس قومه ، وكان السؤدد والشرف من
العماليق ، فيما يزعمون ، في أهل ذلك البيت .

وكانت أم معاوية بن بكر ، كهدة ابنة الخبيريّ ، رجل من عاد . فلما قحط ^(٢) المطر عن
عاد وجُهِدوا قالوا : جهّزوا منكم وفداً إلى مكة فليستسقوا لكم ، فإنكم قد هلكتم !
فبعثوا قيل بن عذر ولقيم بن هزال بن هزيل ، وعتيل بن صدّ بن عاد الأكبر ، ومرد بن
سعد بن عفير ، وكان مسلماً يكتُم إسلامه ، وجُلبهمة بن الخبيريّ ، خال معاوية بن بكر
أخو أمه .

(١) [١١ / هود / ٥٦] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا
هُوَ أَخَذُهَا بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
(٢) قَحَطَ الْمَطَرُ وَقَحِطَ : احتبس .

ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صُدّ بن عاد الأكبر . فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم معه رهط من قومه ، حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلا . فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا من الحرم ، فأترطهم وأكرمهم . وكانوا أخواله وصهره . فلما نزل وفد عاد على معاوية بن بكر ، أقاموا عنده شهرا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان - قينتان لمعاوية بن بكر - وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا . فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم ، وقد بعثهم قومهم يعمّون ذون بهم من البلاء الذي أصابهم ، شق ذلك عليه ، فقال : هلك أخوالى وأصهارى ! وهؤلاء مقيمون عندى ، وهم ضيقى نازلون على ! والله ما أدرى كيف أصنع بهم ؟ أستحي أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا له فيظنوا أنه ضيق منى بمقامهم عندى ، وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا ! ! أو كما قال :

فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين ، فقلتا : قل شعرا نغنيهم به ، لا يدرون من قاله ، لعل ذلك أن يحركهم ! .

فقال معاوية بن بكر ، حين أشارتا عليه بذلك :

ألا يا قَيْلَ ، ويحك ! قم فهَيِّنْ	لعل الله يُصَبِّحُنَا غَمَامًا (١)
فيسقى أرضَ عادٍ ، إنَّ عادًا	قد أُمْسُوا لا يُبَيِّنُونَ الكلاما (٢)
من العطش الشديد ، فليس نَرُجُو	به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلام
وقد كانت نساؤهم بخير	فقد أُمست نساؤهم عِيَامِي (٣)

(١) القيل معناه السيد ، يطلق على كل من ملك حَمِير . ويحك كلمة ترحم . هيئ أمر من (الهينة) وهو الصوت الخفى ، والمراد ادْعُ .

(٢) قد أُمْسُوا بنقل حركة الهمزة للدال الساكنة . لا يبينون الكلاما ، أى ضعفوا ومرضوا من القحط . اه من (العناية) .

(٣) أعام القوم هلكت إبلهم فلم يجدوا لبنا . والعيمة شدة شهوة اللبن . وعام القوم قل لبنهم من القحط . ورجل عيمان وامرأة عيمى والجمع عيام وعيامى .

وإن الوحش تأتيهم جبارا ولا تخشى لعادي سها
وأنتم هاهنا فيما اشتبهتم نهاركم وليكم التما
فقبج وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية ذلك الشعر ، غنمهم به الجرادتان . فلما سمع القوم ماغنمنا به ، قال بعضهم
لبعض : يا قوم ، إنما بعثكم قومكم يتعوزون بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم ، وقد أبطأتم
عليهم ! فادخلوا هذا الحرم واستسقوا القومكم ! .

فقال لهم مرثد بن سعد بن عفير : إنكم والله لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن
أطعتم نبيكم وأنتم إليه سقيتم ! فأظهر إسلامه عند ذلك . فقال لهم جلهمة بن الخبيري خال
معاوية بن بكر ، حين سمع قوله ، وعرف أنه قد اتبع دين هود وآمن به :

أبا سعد فإنك من قبيل ذوى كرم وأمك من ثمود
فإننا لن نطعمك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريد
أنا أمرنا لنترك دين رfid ورمل وآل صد والعبود
ونترك دين آباء كرام ذوى رأى، وتتبع دين هود

ثم قالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر : احبسنا عنا مرثد بن سعد . فلا يقدم من معنا مكة .
فإنه قد اتبع دين هود ، وترك ديننا !

ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد . فلما ولوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل
معاوية بن بكر حتى أدركهم بها ، قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا له . فلما انتهى إليهم ،
قام يدعو الله بمكة ، وبها وفد عاد قد اجتمعوا يدعون ، يقول : اللهم أعطني سؤلى وحدى
ولا تدخلني في شيء مما يدعوك به وفد عاد .

وكان قيل بن عذر رأس وفد عاد .

وقال وفد عاد : اللهم أعط قبيلا ما سألك ، واجعل سؤلنا مع سؤله .

وكان قد تخلف عن وفد عاد حين دعا ، لقان بن عاد ، وكان سيد عاد .

حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال : اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي ، فأعطني سؤلى .
وقال قَيْل بن عَزْر حين دعا : يا إلهنا ، إن كان هود صادقاً فاسقنا ، فإننا قد هلكنا .
فأنشأ الله لهم سحائب ثلاثاً : بيضاء وحمراء وسوداء . ثم ناداه مناد من السحاب :
يا قَيْل ! اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب . فقال : اخترت السحابة السوداء ،
فإنها أكثر السحاب ماء . فناداه مناد : اخترتَ رَمَاداً رَمِداً^(١) ، لا تبقى من آل عاد
أحداً ، لا والدك ولا ولدك ، إلا جعلته هَمِداً^(٢) ، إلا بنى اللوذِيَّةَ المَهْدَى - وبنو اللوذية ،
بنو لقيم بن هزّال بن هزيمة بن بكّر ، وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم ، ولم يكونوا مع عاد
بأرضهم ، فهم عاد الآخرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد - وساق الله السحابة
السوداء ، فيما يذكرون ، التي اختارها قَيْل بن عَزْر بما فيها من النعمة إلى عاد ، حتى خرجت
عليهم من واد يقال له (المغيث) .

فلما رأوها استبشروا بها وقالوا (هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرٌ) يقول الله (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ
بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ عَمَّ بِأَمْرِ رَبِّهَا)^(٣) أى كل شيء أُمِرَتْ به .
وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح ، فيما يذكرون ، امرأة من عاد يقال لها
(مَهْدَد) فلما تيقنت ما فيها صاحت ثم صَعَقَتْ . فلما أفاقوا قالوا : ماذا رأيت يا مهْدَد ؟
قالت : رأيت ريحاً فيها كشهب النار ، أمامها رجال يقودونها !
ف(سَخَّرَهَا) الله (عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا)^(٤) ، كما قال الله - والחסوم الداعة -

(١) رماد رَمِدِد أى متناه في الاحتراق والدقة .

(٢) هامد وَهَمِد وهُمِد : ميت هالك .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٥٢٤] فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا . . .

فَأَصْبَحُوا لَا يَرُونَ إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

(٤) [٦٩ / الحاقة / ٧] سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى

الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ .

فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك . فاعتزل هود ، فيما ذكر لى ، ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ، ما يصيبه ومن معه من الريح ، إلا ما تلين عليه الجلود وتلد الأنفس .
 وإنها لتمرّ على عاد بالظعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة . وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر وأبيه ، فنزلوا عليه .
 فبينما هم عنده ، إذ أقبل رجل على ناقه له فى ليلة مقمرة ، ثمسى نالته فى مضاب عاد . فأخبرهم الخبر ، فقالوا له : أين فارت هوداً وأصحابه ؟ قال : فارتهم بساحل البحر .
 فكأنهم شكوا فيما حدثهم به ، فقالت هزيمة بنت بكر : صدق ، ورب الكعبة .
 قال ابن كثير : وهو سياق غريب ، فيه فوائد كثيرة . وقد قال الله تعالى : وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَرَخِمَةً مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ^(١) .
 وروى الإمام أحمد ^(٢) عن أبى وائل عن الحارث البكرى قال : خرجت أشكو العلاء ابن الحضرمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فررت بالربذة ، فإذا بعجوز من بنى تميم منقطع بها ، فقالت لى : يا عبد الله ! إن لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة ، فهل أنت مبلغى إليه ؟ قال : فحملتها ، فأتيت المدينة . فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تحفّق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً . فجلست ، فدخل منزله - أو قال رحله - فاستأذنت عليه ، فأذن لى ، فدخلت فسلمت ، فقال : هل كان بينكم وبين تميم شيء ؟ قلت : نعم . قال وكانت لنا الدبرة عليهم ، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها ، فسألتنى أن أحملها إليك ، وهامى بالباب ، فأذن لها ، فدخلت . فقلت : يا رسول الله ! إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً ، فأجعل الدهنا . فحميت العجوز واستوفزت ، وقالت : يا رسول الله ! فإلى أين تضطر

(١) [١١ / هود ٥٨] .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٨٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

مضرك ؟ قال قلت : إن مثلي مثل ما قال الأول : (معزاء حملت حقتها) حملت هذمه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً . أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ! قال هيه ، وما وافد عاد ؟ وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه ، قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له قَيْل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ، وتغنيه جارتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر ، خرج جبال تهامة فنادى : اللهم ! إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأدايه ، اللهم ! اسق عاداً ما كفت تسقيهم ! فمرت به سحابات سود ، فنودى منها : اخترت ؟ فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودى منها : خذها رماداً رمداً ، لا تبقى من عاد أحداً . قال : فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا ، حتى هلكوا . قال أبو وائل : وصدق . قال : فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لاتكن كوافد عاد - هكذا رواه الإمام أحمد في المسند ، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير^(١) . -

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ أَلْهَكُمْ آيَةٌ ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ)

«وَإِلَى ثَمُودَ» أي : وأرسلنا إلى ثمود . وهي قبيلة أخرى من العرب سماوا باسم جدتهم ثمود ابن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عابر . وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة ، قبل إبراهيم الخليل عليه السلام . وكانت ثمود بعد عاد ،

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٥ من التفسير .

ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله . وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع - نقله ابن كثير - .
وتمود كصبور ، وتضم ثأؤه ، وقرى به أيضاً ، وقرى بصرفه ومنعه . أما الثاني فلا أنه اسم القبيلة ، ففيه العلمية والتأنيث . وأما الأول فلا أنه اسم للحي ، أو لأنه لما كان اسمها الجدد ، أو القليل من الماء كان مصروفاً ، لأنه علم مذكر ، أو اسم جنس ، فبعد النقل حُكي أصله . كذا في (العناية) .

« أَخَاهُمْ صَاحِبًا » هو - على ما قاله علماء التفسير والنسب - : ابن عبيد بن آسف ابن ماسح بن عبيد بن حاذر بن تمود « قَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ » دعاهم عليه الصلاة والسلام بما يدعو به الرسل أجمعون ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ وَلَّا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ^(١) . وقال : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ^(٢) « قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ » أي حجة ظاهرة للدلالة على صحة نبوتى « هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ » أي خلقها حجة وعلامة على رسالتى . وأضافها إليه تفضيلاً وتخصيصاً . ك (بيت الله) ؛ أو لأنه لا مالك لها غيره تعالى ، أو لأنها حجته عليهم في أنهم ، إن حفظوها وأطلقوها رعيها وسقيها حفظوا ، وإن غدروا بها أهلكوا ، ولذا قال : « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ » أي التي لا يملكها غيره ، العشب « وَلَا تَمْسُوهَُا بِسَوْءٍ » أي لا تضربوها ولا تطردوها ولا تُربوها بشيء من الأذى ، ولو تأذت منها دوابكم ، إكراماً لآية الله « فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أي : في الدارين لجرائكم على آيات الله .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] . . . فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَاذْكُرُوا الْآلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

« وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ » قال الشهاب : لم يقل : خلفاء عاد ، إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً « وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى : أترككم في أرض الحجر . والمباعدة المنزل . « تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا » أى : تبنون في سهولها قصوراً لتسكنوها أيام الصيف . ذ (من) بمعنى (في) ، كقوله تعالى (نُوَدِّي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ) (١) . أو هى ابتدائية ، أو تبعية ، أى : تعملون القصور من مادة مأخوذة من السهل وهى الطين . والسهل خلاف الحزن ، وهو موضع الحجارة والجبال « وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا » أى : لتسكنوها أيام الشتاء . والجبال إما مفعول ثان بتضمين (نَحَتَ) معنى (أَنَحَذَ) ، أو منصوب بنزع الخافض ، على ما جاء فى الآية الأخرى : والنحت معروف فى كل صلب . ومضارعه مكسور الحاء . وقرأ الحسن بالفتح لحرف الخلق : وقرئ تنحاتون بالإشباع ، كـ (ينباع) ، أفاده الشهاب .

بحث الإشباع فى وسط الكلمة

أقول : بهذه القراءة يستدل على ثبوت الإشباع فى وسط الكلمة لغة . ومثله (ينباع) المذكورة ، وهى من قول عنتره (٢) :

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] ونصها : يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) استشهد به فى اللسان (ج ٨ ص ٣٤٥ بيروت) قال :

أى ينبع العرق من خلف أذن ناقة غضوب ، فأشبع الفتحة لإقامة الوزن ، فتولدت من إشباعها ألف . ومثله قولنا (آمين) ، والأصل (أمين) فأشبع الفتحة ، فتولدت من إشباعها ألف - قاله الزوزنى - .

= فأما قول عنتره :

ينباعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ زِيَّافَةٍ ، مثل الفَنِيقِ المُكْدَمِ
فإنما أراد (ينبع) فأشبع فتحة الياء للضرورة ، فنشأت بعدها (ألف) .
والبيت الرابع والثلاثون من معلته التي مطلعها :

هل غادر الشعراءُ من مُتَرَدِّمٍ أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُمٍ
ومعنى البيت كما قاله التبريزي :

قال ابن الأعرابي : ينباع ، ينفعل . من (باع يبيع) إذا مرَّ مرًّا لَيْثًا ، فيه تَلَوٌّ .
كقول الآخر :

* ثَمَتَ يَنْبَاعُ أَنْبِيَاءَ الشُّجَاعِ *

وأنكر أن يكون الأصل فيه (ينبع) .

وقال : ينبع : يخرج كما ينبع الماء من الأرض ، ولم يُرِدْ هذا . إنما أراد السيلان وتلويته على رقبتهما كتلوى الحية .

وقال غيره (كقول اللسان) : هو من (نبع ينبع) ثم أشبع الفتحة فصارت ألفا .
والذفران الحيدان الناتئان من الأذن ومنتهى الشعر . وأول ما يعرق من البعير الذفران .
والغضوب والغضبي واحد . وغضوب للتكثير .
والجسرة : الماضية في سيرها ، وقيل : الجسرة : الضخمة القوية .
والزيافة المسرعة .

والفنيق الفحل .

والمكدم بمعنى المكدم ، والمكدم العض .

ومثله (استكان) على القول بأنه افتعل من (السكون) فزيدت الألف لإشباع الفتحة كما في (شرح الشافية) .

ومنه (عَقْرَاب) - قال في (تاج العروس) : سمع العَقْرَاب في اسم الجنس . قال ^(١) :
أعوذ بالله من العَقْرَابِ الشائِلاتِ عُقَدِ الأَذْنَابِ

قال : وعند أهل الصرف ألف (عقرب) للإشباع ، لفقدان (فعلال) بالفتح - انتهى - .
وقوله تعالى : « فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللّٰهِ » أى نعمه عليكم لتصرفوها إلى ما خلقها لأجله
« وَلَا تَعْتَوْاْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » بالمعاصي وعبادة غيره تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِنْ قَوْمِهِ ۚ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ

مِنْهُمْ أَنَعْلَمُونَ أَن صَاحِبًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ ۚ مُؤْمِنُونَ)

« قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ » أى عن الإيمان بعد ظهور آية الناقة والكلمات الناصحة « مِنْ قَوْمِهِ ۚ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُواْ » أى استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم ، إذ لم يكن لهم استكبار يمنهم من الانقياد « لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ » بدل من (الَّذِينَ اسْتَضَعِفُواْ) بإعادة الجار ، بدل الكل ، إن كان الضمير لقومه ، فيدل على أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين . وبديل البعض إن كان الضمير (لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُواْ) فيدل على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين . قال أبو السعود : والأول هو الوجه ، إذ لا داعى إلى توجيه الخطاب أولاً إلى جميع المستضعفين ، مع أن المجاورة مع المؤمنين منهم . على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين ، أى قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم « أَنَعْلَمُونَ » أى من آية الناقة ومن الكلمات الناصحة « أَن صَاحِبًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ » إليكم لعبادته تعالى وحده لا شريك له .

(١) لم أهتد إليه في كتاب . فمن كان على بينة منه ، فليبدلنى عليه .

وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ، لأنهم يعلمون بأنهم عالمون بذلك ، ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر ، بل عدلوا عنه ، كما قال تعالى : « قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُمْتَنُونَ » عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا (نعم) أو (إنه مرسل منه تعالى) ، مسارعة إلى تحقيق الحق ، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذى تنبئ عنه الجملة الاسمية ، وتنبيهاً على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغى أن يسأل عنه ، وإنما التحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به . أفاده أبو السعود .

فهذا من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقى السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب ، تنبيهاً على أنه هو الذى ينبغى أن يسأل عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

« قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » وإنما لم يقلوا : إنا بما أرسل به كفرون ، إظهاراً لمخالفتهم إياهم ، ورداً لمقاتلهم .

قال فى (الانتصاف) : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا : إنا بما أرسل به كفرون ، ولكن أبوا ذلك حذراً مما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته ، وهم يمجّدونها ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم ، كما قال فرعون : إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ^(١) ، فأثبت إرساله تهكماً ، وليس هذا موضع التهكم ، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين ، المؤمنين والكافرين ، عن حاله ، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة ، احتياطاً للكفر ، وغلوّاً فى الإصرار - انتهى - ولذلك أنكروا آية الناقة وكذبوه فى إصابة العذاب عن مسها بالسوء . كما قال تعالى :

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٧] قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أُنْتِنَا إِيمَانُكُمْ نَا
إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« فَعَقَرُوا النَّاقَةَ » أى نحروها. والعقر: الجرح، وأقتره كالحز في قوائم الفرس والإبل.
يقال : عقره بالسيف يعقره بالكسر ، وعقره تعقيراً ، قطع قوائمه بالسيف وهو قائم .
قال الأزهري : العقر عند العرب كشف عرقوب البعير ، ثم يجعل النحر عقراً ، لأن
ناحر الإبل يعقرها : ثم ينجرها .
وفي اللسان : عَقَر النَّاقَةَ وعَقَّرَهَا ، إذا فعل بها ذلك حتى تسقط ، فينجرها مستمكناً
منها ، أى : لثلاث تشرد عند النحر .

وفي الحديث ^(١) : لا عقر في الإسلام .

قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى ، أى ينحرونها ويقولون إن
صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته ، فكافئته بمثل صنيعه بمسد وفاته . كذا في
(تاج العروس) - .

وأسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشره إلا بعضهم . ويقال للقبيلة
الضخمة : أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم . كذا في (الكشف) .

قال أبو السعود : وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه ، بحيث أصابت غائلته الكل ، ما لا يخفى .
« وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى استكبروا عن امتثاله ، وهو عبادته وحده ، أو الحذر
من مسّ الناقة بسوء . وزادوا في الاستهزاء « وَقَالُوا يُصْلِحُ أُنْتِنَا إِيمَانُكُمْ نَا » أى : من
العذاب على عقر الناقة . والأمر للاستعجال لأنهم يعتقدون أنه لا يتأني ذلك ، ولذا قالوا :
« إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » أى فإن الله ينصر رسله على أعدائه .

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٠ - كتاب الجنائز ، ٧٠ - باب كراهية الذبح عند القبر ،

حديث رقم ٣٢٢٢

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ)

« فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » أى : الصيحة التى يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها ، وبديل حركتها عند نزع الروح « فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ » فى بلادهم أو مساكنهم « جِثِيمِينَ » أى : ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون ، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها . والصيحة والزلزلة من آثار الريح المرسلة التى كانت رحمة فانقلبت عذاباً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَانصَحْتُ لَكُمْ

وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ)

« فَتَوَلَّىٰ » أى فأعرض صالح « عَنْهُمْ » وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي » المتضمنة لتخويف العذاب عنه « وَانصَحْتُ لَكُمْ » فأمرتكم بكل خير ، ونهيتمكم عن كل شر « وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ » أى من الرسل والأنبياء والعلماء لمخالفتهم أهويتكم . والظاهر أن صالحاً عليه السلام كان مشاهداً لما جرى عليهم ، وأنه تولى عنهم ، بعد ما أبصرهم جاثمين ، تولى مُنْعَمٌ متحسر على ما فاته من إيمانهم ، يتحزن لهم بقوله (يَٰقَوْمِ ...) إلخ كذا فى (الكشاف) . أو خاطبهم خطاب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر حيث قال (١) :

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٨٧ - باب ما جاء فى عذاب القبر ،

حديث ٧٢٦ ونصه :

عن ابن عمر قال : اطلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال « هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ » فقيل له : تدعو أمواتنا ؟

فقال « ما أنتم بأسمع منهم . ولكن لا يجيبون » .

إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً . - كما رواه البخاريّ - لا تحزنّا ، ولكن إعلاماً بنصر الله له ، وتحقيق رسالته ، زيادة في حزنهم وتوبيخهم ، فإن الأحياء ليسوا بأسمع منهم ، ولكن لا يتسكلمون . كما في (الصحيح) . ويجوز عطف قوله (فتولّى) على قوله (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) ، فيكون الخطاب لهم حين أشرقوا على الهلاك ، لا بعده . فيكون عليه السلام تولى عنهم تولى ذاهب عنهم ، منكر لإصرارهم حين رأى علامات نزول العذاب . والمتبادر الأول لظهور الفاء في التعقيب - والله أعلم - .

تنبيهات

الأول : نأثر هنا ما رواه علماء التاريخ والنسب في بسط قصة ثمود ، لمكان العظة والاعتبار مفصلاً . وإلا ، فجلي أن مأجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك ، وما سكّت عن بيانه من تلك القصص ، فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد القطع به ، اللهم إلا لزيادة الاتعاض ، وتقوية العبرة ، ولذا صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(١) : حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج . وخلاصة ما رووه عن ثمود أن عاداً لما هلك ، عمرت ثمود بلادها ، وخلفوهم في الأرض ، وكانوا في سعة ورخاء من العيش ، ففتوا على الله ، وأفسدوا في الأرض ، وعبدوا الأوثان ، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام ، وكانوا قوماً عرباً ، وصالح من أوسطهم نسباً ، فدعاهم إلى عبادته تعالى وحده ، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، واقترحوا عليه بأن يخرج لهم ناقة عشاء ، تخرج من صخرة صماء ، عينوها بأنفسهم ، وكانت صخرة منفردة في ناحية الجبل ، يقال لها (الكائبة) ، فأخذ عليهم صالح العهد والمواثيق : لأن أجابهم الله إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه . فلما أعطوه على ذلك عهدهم ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ، ودعا الله عز وجل ، فتحرّكت تلك الصخرة ،

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث ١٦٢٤ ونصه : عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : بلغوا غنى ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .

ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء ، يتحرك جنينها بين جنينها ، كما سألوا . فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا ، فصدح ذوآب بن عمرو بن لبيد ، والخباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعمر بن جلس . وكان لجندع بن عمرو ابن عم له ، شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن جواس ، وكان من أشراف ثمود وأفضلها ، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال في ذلك رجل من مؤمنى ثمود يقال له مهوش بن عنمة بن الزميل ، رحمه الله :

وكانت عصبه من آل عمرو إلى دين النبي دَعَوْا شُهَابَا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلَّهُمْ جَمِيعاً فَهَمَّ بِأَنْ يَجِيبَ وَلَوْ أَجَابَا
لَأَصْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزاً وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنْ النُّوَاةَ مِنْ آلِ حَجْرٍ تَوَلَّوْا بَعْدَ رَشْدِهِمْ ذُبَابَا

وأقامت الناقة وفصيلها ، بعد ما وضعت ، بين أظهرهم مدة ، تشرب من برها يوماً ، وتدعه لهم يوماً ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملؤون ماشاؤوا من أوعيتهم وأونيهم ، كما قال في الآية الأخرى : وَنَبَّهَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ^(١) وقال تعالى : هَذِهِ نَاقَةُ آلِهِمْ شَرِبُوا وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ^(٢) . وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ، ترد من فج ، وتصدر من غيره ، ليسعها . لأنها كانت تتضلع من الماء ، وكانت - على ما ذكر - خلقاً هائلاً ، ومنظراً رائعاً ، إذا مرت بأعنامهم نفرت منها . فلما طال عليهم ذلك ، واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام ، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم . فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها . قال قتادة : بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون لقتلها ، حتى على النساء في خدورهن . قال ابن كثير : قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهُمَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا) ^(٣) ،

(١) [٥٤ / القمر / ٢٨] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] قَالَ . . .

(٣) [٩١ / الشمس / ١٤] .

وقال (وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) ^(١)، وقال (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ) ^(٢)، فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة ، فدل على رضی جميعهم بذلك - والله أعلم - .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ^(٣) ، وغيره من علماء التفسير ، أن سبب قتلها ، أن امرأة من ثمود يقال لها (غنيزة بنت غنم بن مجاز ، تسكني بأم غنم ، وهي من بني عبید بن المهمل ، أخى رُميل بن المهمل ، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو ، وكانت عجوزا مسنة ، وكانت ذات بنات حسان ، وكانت ذات مال من إبل وبقر وغنم .

وامرأة أخرى يقال لها (صدوف بنت الحميا بن دهر بن الحميا) سيد بني عبید وصاحب أولادهم في الزمن الأول . وكان الوادي يقال له (وادي الحميا) وهو الحميا الأكبر ، جد الحميا الأصغر أبي صدوف .

وكانت صدوف من أحسن الناس ، وكانت غنية ذات مال من إبل وغنم وبقر .
وكانتا من أشد امرأتين في ثمود عداوة لصالح ، وأعظمه به كفرًا .

وكانتا تحتالان أن تعقر الناقة مع كفرهما به ، لما أضرت به من مواشيهما .

وكانت صدوف عند ابن خال لها يقال له (صنتم بن هراوة بن سعد بن الغطريف) من بني هلس ، فأسلم وحسن إسلامه .

وكانت صدوف قد فوّضت إليه مالها ، فأثفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح ، حتى رقّ المال .

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] ونصها : وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا .
(٢) [٧ / الأعراف / ٧٧] ونصها : فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَقَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أُنْتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

(٣) انظر تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) الصفحة ٥٣١ من الجزء

الثاني عشر (طبعة المعارف) .

فاطلعت على ذلك من إسلامه صدوفُ ، فعاتبته على ذلك ، فأظهر لها دينه ، ودعاها إلى الله وإلى الإسلام فأبّت عليه وبيّنت ^(١) له . فأخذت بنيه وبناته منه فغيبتهم في بني عبید ، بطنها الذي هي منه .

وكان صنتم زوجها من بني هليل ، وكان ابن خالها . فقال لها : ردّي على ولدي . فقالت : حتى أنافرك إلى بني صنعان بن عبید أو إلى بني جندع بن عبید . فقال لها صنتم : بل أنافرك إلى بني مرداس بن عبید . وذلك أن بني مرداس بن عبید كانوا قد سارعوا في الإسلام وأبطلوا عنه الآخرون .

فقالت لا أنافرك إلا إلى من دعوتك إليه .

فقال بنو مرداس : والله لتعطيته ولده طائفة أو كارهة .

فلما رأت ذلك أعطته إياهم .

ثم إن صدوف وعنيزة محلتا ^(٢) في عقر الناقة للشقاء الذي نزل . فدعت صدوف رجلا من ثمود يقال له (الحباب) لعقر الناقة ، وعرضت عليه نفسها بذلك إن هو فعل فأبى عليها . فدعت ابن عم لها يقال له (مصدع بن مهرج بن الحيا) وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة . وكانت من أحسن الناس ، وكانت غنية كثيرة المال ، فأجابها إلى ذلك .

ودعت عنيزة بنت غنم (قدار بن سالف بن جندع) رجلا من أهل قرح .

وكان قدار رجلا أحمر أزرق قصيرا . يزعمون أنه كان لزنية ، من رجل يقال له (صهياد) ولم يكن لأبيه (سالف) الذي يدعى إليه . ولكنه قد ولد على فراش (سالف) وكان يدعى له وينسب إليه .

فقالت : أعطيتك أيّ بناتي شئت ، على أن تعقر الناقة .

(١) بيّنت له : فكّرت في الأمر وخمرته ودبرّته ليلا .

(٢) محل به : كاده واحتال في المكر به حتى يوقعه في الهلكة .

وكانت عنيزة شريفة من نساء ثمود ، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو ، من أشراف رجال ثمود . وكان قدار عزيزا منيعا في قومه .

فانطلق قدار بن سالف ، ومصعد بن مہرج ، فاستغفرا غواةً من ثمود . فاتبعهما سبعة نفر . فكانوا تسعة نفر . أحد النفر الذين اتبعوها رجل يقال له ، (هويل بن مبلغ) خال قدار ابن سالف ، أخو أمه لأبيها وأُمها ، وكان عزيزا في أهل حجر . و (دعير بن غنم بن داعر) وهو من بني خلاوة بن المهل .

و (دأب بن مہرج) أخو مصعد بن مہرج .

وخسة لم تحفظ لنا أسماءهم .

فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قدار في أصل شجرة على طريقها ، وكمن لها مصعد في أصل أخرى . فرت على مصعد فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها . وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها ، وكانت من أحسن الناس وجها ، فأسفرت لقدار وأرته إياه . ثم ذمّرتة ^(١) فشدّ على الناقة بالسيف فخشف ^(٢) عرقوبها . فخرّت ورغت رغاءً واحدة تحذر سقبها . ثم طعن في لبثها فنجحها .

انطلق سقبها حتى أتى جبلا منيفاً . ثم أتى صخرة في رأس الجبل فزعا ولاذ بها . واسم الجبل فيما يزعمون (صنو) - فأتاهم صالح ، فلما رأى الناقة قد عقرت ، قال انتهكتم حرمة الله ، فأبشروا بعذاب الله تبارك وتعالى ونقمته . فاتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة ، وفيهم (مصعد بن مہرج) فرماد مصعد بسهم ، فانتظم قلبه ، ثم جرد برجله فأنزله ، ثم ألقوا لحمه مع لحم أمه .

فلما قال لهم صالح : أبشروا بعذاب الله ونقمته ، قالوا له وهم يهزمون به : ومضى ذلك

(١) ذمّرتة : شجّعته وحثته وحرّضته .

(٢) خشف رأسه بالحجر : شدّخه . وكل ما شدّخ فقد خشف .

يا صالح؟ وما آية ذلك؟ - وكانوا يسمون الأيام فيهم : الأحد (أول) والاثنين (أهون) والثلاثاء (وبار) والأربعاء (جبار) والخميس (مؤمن) والجمعة (العروبة) والسبت (شيار) وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء - فقال لهم صالح حين قالوا له ذلك : تصبحون غداة يوم مؤمن ، يعنى يوم الخميس ، ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم العروبة ، يعنى يوم الجمعة ، ووجوهكم حمرة ، ثم تصبحون يوم شيار ، يعنى يوم السبت ، ووجوهكم مسودة . ثم يصبحكم العذاب يوم الأول ، يعنى يوم الأحد .

فلما قال لهم صالح ذلك ، قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلم فانهقتل صالحاً . إن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً يكون قد ألحقناه بناقته .

فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة . فلما أبطأوا على أصحابهم ، أتوا منزل صالح فوجدوهم مشدخين قد رُضخوا بالحجارة . فقالوا لصالح : أنت قتلتهم! ثم هوا به . فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً ، فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقاً لم يزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون !

فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك . والنفر الذين رضخهم الملائكة بالحجارة ، التسعة الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن بقوله تعالى ^(١) (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) إلى قوله : (لَا يَتَّبِعُهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

فأصبحوا من تلك الليلة التي انصرفوا فيها عن صالح ، وجوههم مصفرة ، فأيقنوا بالعذاب . وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم ، فطلبوه ليقتلوه . وخرج صالح هارباً منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم (بنو غنم) فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له (نفيل) يكنى بأبي هذب ، وهو مشرك ، فغيبه ، فلم يقدروا عليه .

(١) [٢٧ / النمل / ٤٨ - ٥٢] .

فندوا على أصحاب صالح فعذبوهم ليدلّوهم عليه ، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له (مبدع بن هرم) : يابني الله ، إنهم يعذبوننا لندلّهم عليك ، أفندلّهم عليك ؟ قال : نعم ، فدلّهم عليه (مبدع بن هرم) .

فلما علموا بمكان صالح ، أتوا أبا هذب فكلّموه فقال لهم : عندى صالح ، وليس لكم إليه سبيل . فأعرضوا عنه وتركوه . وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه .

فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم حين أصبحوا من يوم الخميس ، وذلك أن وجوههم أصبحت مصفرة ، ثم أصبحوا يوم الجمعة ووجوههم حمرة ، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودة . حتى إذا كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام . فنزل رملة فلسطين . وتخلف رجل من أصحابه يقال له (مبدع بن هرم) فنزل قُرح - وهي وادى القرى ، وبين القُرح وبين الحجر ثمانية عشر ميلاً - فنزل على سيدهم رجل يقال له (عمرو بن غنم) وقد كان أكل من لحم الناقة ولم يشرك في قتلها . فقال له مبدع ابن هرم : يا عمرو بن غنم ، اخرج من هذا البلد ، فإن صالحاً قال : من أقام فيه هلك ، ومن خرج منه نجا .

فقال عمرو : ما شركت في عقرها ، وما رضيتُ ما صنّع بها .

فلما كانت صبيحة الأحد ، أخذتهم الصيحة ، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك . إلا جارية مُقعدة يقال لها (الزُرَيْعة) وهي الكلبة ابنة السُلُق . كانت كافرة شديدة العداوة لصالح ، فأطلق الله لها رجلها بعدما عاينت العذاب أجمع . فخرجت كأسرع ما يرمى شئ قط . حتى أتت أهل قُرح فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود منه ، ثم استسقت من الماء فسُقِيَتْ ، فلما شربت ماتت .

الثانى - قال الرازى : زعم بعض المأخذين أن ألفاظ التنزيل فى حكاية هذه الواقعة

اختلفت ، وهى الرجة والطاغية والصيحة . والجواب ما قاله أبو مسلم : إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده ، سواء كان حيواناً أو غير حيوان ، وألحق الهاء به للمبالغة . فاللهلمون

يسمون الملك العاني بالطاغية والطاغوت. وقال تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّافٍ * أَن رَّاهُ اسْتَعْتَنَى^(١). ويقال: طغى طغياناً، وهو طاغ وطاغية. وقال تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا^(٢) وقال في غير الحيوان: إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ^(٣)، أى: غلب وتجاوز عن الحد. وأما الرجفة فهي الزلزلة في الأرض، وهي حركة خارجة عن المعتاد، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها. وأما الصيحة، فالغالب أن الزلزلة لاتنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة. وأما الصاعقة، فالغالب أنها الزلزلة، وكذلك الزجرة، قال تعالى: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ^(٤). فبطل ما زعمه ذلك البعض.

الثالث - قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحدٌ، سوى صالح عليه السلام، ومن تبعه رضى الله عنهم. إلا أن رجلاً يقال له أبو رغال. كان، لما وقعت النعمة بقومه، مقياً إذ ذاك في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحلّ، جاءه حجر من السماء فقتله.

روى الإمام أحمد^(٥) عن جابر قال: لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال: لاتسألوا الآيات، فقد سألتها قوم صالح، فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فموتوا عن أمر ربهم، فعقروها، وكانت تشرب ماءهم ويومئذ يشربون لبنها يوماً فعقروها، فأخذتهم صيحة أخذ الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله فقالوا: من هو يارسول الله؟ قال: أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه. قال ابن كثير: وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم. وروى عبد الرزاق عن معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية: أن النبي ﷺ مرّ بقبر أبي رغال فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا قبر أبي رغال،

(١) [٩٦ / الملق / ٧٠٦]. (٢) [٩١ / الشمس / ١١]. (٣) [٦٩ / الحاقة / ١١].

(٤) [٧٩ / النازعات / ١٣ و ١٤].

(٥) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٩٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي).

رجل من ثمود ، كان في حرم الله ، فمنعه حرم الله عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ، فدفن ههنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم ، فابتدروه بأسيا فهم ، فبحثوا عنه ، فاستخرجوا الغصن .

وأبو رغال هو أبو ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، كما روى مرفوعاً إلى النبي ﷺ - أخرجه أبو داود وغيره ^(١) .

الرابع - ذكرنا قبل ؛ أن رسول الله ﷺ مرّ على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، سنة تسع ، وأمر أصحابه أن يدخلوا خاشعين ورجلين أن يصيبهم ما أصاب أهلها ، ونهاهم أن يشربوا من ماءها . فروى الإمام أحمد ^(٢) عن ابن عمر قال : نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فمجنوا منها ، ونصبوا القدور باللحم . فأمرهم النبي ﷺ ، فأهراقوا القدور ، وعلقوا المعجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم .

وروى أحمد ^(٣) والبخاري ^(٤) ومسلم ^(٥) عن ابن عمر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والنفى ، ٤١ - باب تبش القبور ، حديث رقم ٣٠٨٨ (٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١١٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٩٨٤ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٢١١ (طبعة المعارف) . (٤) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ،

٨٠ - باب نزول النبي ﷺ الحجر ، حديث رقم ٢٨٤ .

(٥) أخرجه مسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٣٨ و ٣٩ (طبعنا) .

وللبخارى^(١)؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشرّبوا من آبارها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجنّا منها ، واستقينا . فأمرهم النبي ﷺ أن يطرحوا ذلك العجين ، ويهريقوا ذلك الماء .

الخامس - قال ابن كثير : ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلك أمتة ، كان يذهب فيقيم في الحرم ، حرم مكة ، والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد^(٢) : حدثنا وكيع ، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بوادي عُسْفَانَ حين حج قال : يا أبا بكر! أيّ واد هذا ؟ قال : هذا وادي عُسْفَانَ . قال : لقد مر به هود وصالح على بَكَرَاتٍ حُمْرٍ خُطْمُهَا اللَّيْفُ ، أُرْزُمُ الْعَبَاءِ ، وَأُرْدِيَتُهُمُ النَّمَارُ ، يُلْبِئُونَ ، يَحْجُونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ . قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، لم يخرج أحد منهم .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ)

« وَلَوْطًا » منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق ، أي وأرسلنا لوطًا . ولفظه أعجمي معناه في العربية (ملفوف) أو (مُرّ) ، كما في تأويل أسماء التوراة والإنجيل - وهو فيما قاله علماء النسب والتفسير - ابن هاران بن تارح (ويقال آزر) وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليهما السلام . وكان قد آمن مع إبراهيم عليهما السلام ، وهاجر معه إلى الشام ،

(١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٧ - باب قول الله تعالى : وَإِلَىٰ

ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، حديث رقم ١٥٩٥

ومسلم في : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٠ (طبعتنا)

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٢٠٦٧ (طبعة المعارف) .

وتوطنا بلد السكنايين من فلسطين ، وهي الأرض المقدسة ، ثم حدثت مشاجرة بين رعاتهما فزح لوط إلى وادي الأردن ، وسكن مدينة سدوم فبعثه الله إلى أهلها ، وإلى ما جاورها من القرى . فصار يدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والفواحش التي اخترعوها ، ولم يسبقهم بها أحد من العالمين ، من بني آدم ، ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور .

قال ابن كثير : وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم ، حتى صنعهم أهل سدوم ، عليهم لعائن الله .

قال عمرو بن دينار : ما نرا ذكر على ذكر ، حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، باني جامع دمشق : لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظنيت أن ذكرا يعلو ذكرا .

ثم بين تعالى إنكار لوط عليهم بقوله سبحانه : « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ أَى الفعل المتناهية في القبح . وقوله تعالى : « مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ » أى ما عملها أحد قبلكم ، والباء للتعدية ، من قولك (سبقته بالكرة) إذا ضربتها قبله ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ^(١) : (سبقك بها عكاشة) . كذا في (الكشاف) .

قال أبو السعود : والجملة مستأنفة ، مسوقة لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ والتقريع . فإن مباشرة القبح قبيح ، واختراعه أقبح ، فأنكر تعالى عليهم أولاً إتيان الفاحشة ، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها ، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيداً للإنكار السابق ، وتشديداً للتوبيخ بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) « إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ » أى : الذين خلقهم الله ليأتوا النساء ، لا ليأتينهم الرجال .

(١) أخرجه البخارى في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥٠ - باب يدخل الجنة سبعون ألفاً

بغير حساب ، حديث ١٦٠٥

وقرى بهمزتين صريحتين، وبتليين الثانية، بغير مدّة، وبمدّ أيضاً. وفي زيادة (إن) و (اللام) مزيد توبيخ وتقريع، كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد. وفي إيراد لفظ (الرجال) دون الغلمان والمردان ونحوهما، مبالغة في التوبيخ وتأتون، من (أتى المرأة) إذا غشيها. قاله الزمخشري. وفي (تاج العروس) : أتى الفاحشة : تلبّس بها ، ويكنى بالإتيان عن الوطء، وهو من أحسن الكنايات، ورجل مأتى أتى فيه ، ومنه قول بعض المولدين :

يأتى ويؤتى ليس ينكر ذا ، ولا هذا ، كذلك إبرة الخياط

انتهى .

وقوله تعالى «شَهْوَةٌ» مفعول له، أى للاشتهاء، أى لاحتلال لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر . ولا ذمّ أعظم منه ، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، وأنه لا داعى لهم من جهة العقل البتة ، كطلب النسل ونحوه . أو حال ، بمعنى مشتهين تابعين للشهوة ، غير ملتفتين إلى السماجة . كذا في (الكشاف) «مَنْ دُونَ النِّسَاءِ» أى : مجاوزين عن موأاة النساء اللاتي خلقن لذلك . قال أبو السعود : ويجوز أن يكون المراد من قوله (شَهْوَةٌ) الإنكار عليهم ، وتقريعهم على اشتهاؤهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة ، كما ينبى عنه قوله تعالى (مَنْ دُونَ النِّسَاءِ) أى : متجاوزين النساء اللاتي هنّ محالّ الاشتهاؤ كما ينبى عنه قوله تعالى ^(١) (هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) . «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ» إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح ، وتدعو إلى اتباع الشهوات. وهو أنهم قوم عاديهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كل شيء . فمن ثمّ أسرفوا في باب قضاء الشهوة ، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد . ونحوه ^(٢) (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) . كذا في (الكشاف) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ،

إِنَّهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

«وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ» أى : المستكبرين في مقابلة نصحه «إِلَّا أَنْ قَالُوا

(١) [١١ / هود / ٧٨] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٦٦]

أَخْرِجُوهُمْ « أى : لوطاً والمؤمنين معه » مِّن قَرَيْتِكُمْ « أى : بلدكم . قال الزمخشري :
يعنى ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة ، وتعظيم
أمرها ، ووسمهم بسمه الإسراف الذى هو أصل الشر كله . ولكنهم جاءوا بشيء آخر
لا يتعلق بكلامه ونصيحته ، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ، ضجرًا
بهم ، وبما يسمعون من وعظهم ونصحهم . وقولهم « إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ » سخرية بهم ،
وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة . كما يقول الشطار من الفسقة
لبعض الصالحاء إذا وعظهم (أبعادوا عنا هذا المتكشف ، وأريحونا من هذا المزهد) .

قال ابن كثير : قال مجاهد : يتطهرون من أذبار الرجال وأذبار النساء . وروى مثله عن
ابن عباس .

قال السيوطى فى (الإكليل) : فيستدل به على تحريم أذبار النساء ، أى ببناء على أن
تفسير الصحابي له حكم المرفوع .

ورجح ابن القيم أنه فى حكم الموقوف .

والسألة تقدمت مستوفاة فى قوله تعالى (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ)^(١) فتذكر .

تنبيه :

قال الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله فى كتابه (إغاثة اللّهفان) :

قد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواط بالنجاسة والخبث فى كتابه ، دون سائر
الذنوب ، وإن كان مشتملاً على ذلك . لكن الذى وقع فى القرآن قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)^(٢) ، وقوله تعالى فى حق اللوطية (وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ
حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَاسِقِينَ)^(٣) ، وقالت اللوطية (أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ)^(٤)
فأقروا ، مع شركهم وكفرهم ، أنهم هم الأخابث الأنجاس ، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك ،

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٣] . (٢) [٩ / التوبة / ٢٨] . (٣) [٢٩ / الأنبياء / ٧٤] .

(٤) [٢٧ / النمل / ٥٦] .

باحْتِفَانِهِمْ لَهُ . وقال تعالى في حق الزناة : (اَلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ)^(١) ، وأما نجاسة الشرك فهي نوعان نجاسة مغلظة ، ونجاسة مخففة . فالمغلظة : الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل ، فإن الله عز وجل لا يغفر أن يُشْرَكَ به . والمخففة : الشرك الأصغر ، كيسيء الرياء ، والتصنع للمخلوقات والحلف به ، وخوفه ورجائه .

ثم قال : ونجاسة الزنى واللواط أغلظ من غيرها من النجاسات ، من جهة أنها تفسد القلب ، وتضعف توحيده جدًّا . ولهذا ، أحطى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركًا ، فكما كان الشرك في العبد أغلب ، كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر . وكما كان أعظم إخلاصًا ، كان منها أبعد . كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام : (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ وَمِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)^(٢) فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبُّد لها بل هو من أعلى أنواع التعبد ، ولا سيما إذا استولى على القلب ، وتمكن منه ، صار تتيماً ، والتيم : التعبد ، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه ، وكثيراً ما يغلب حبه وذكره ، والشوق إليه ، والسعى في مرضاته ، وإيثار محابه ، على حب الله وذكره ، والسعى في مرضاته . بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالسكينة ، ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور - كما هو مشاهد - فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عز وجل ، يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه ، ويتقرب إليه مالا يتقرب إلى الله ، وينفق في مرضاته مالا ينفقه في مرضاة الله ، ويتجنب سخطه ، ما لا يتجنب من سخط الله تعالى ، فيصير أثر عنده من ربه ، حبا وخضوعاً ودلاً وسماعاً وطاعة . ولهذا كان العشق والشرك متلازمين ، وإنما حكي الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط ، وعن امرأة العزيز ، وكانت إذ ذاك مشركة ، فكما قوى شرك العبد ، بُلى بعشق الصور ، وكما قوى توحيده صرف ذلك عنه . والزاني واللواط ، كالألذته إنما يكون مع العشق ، ولا يخلو صاحبهما منه . وإنما لتنقله من محل إلى محل ، لا يبق عشقه مقصوداً على محل واحد ، ينقسم على سهام كثيرة ، لكل محبوب نصيب من تأله وتعبده فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، ولهما خاصية في تبعيد القلب من

(١) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

الله ، فإنهما من أعظم الخبائث ، فإذا انصبغ القلب بهما بعد من هو طيب ، لا يصيبه الله إلا طيب . وكما ازداد خبيثاً ، ازداد من الله بعداً . ولهذا قال المسيح - فيما رواه الإمام أحمد في كتاب (الزهد) - : لا يكون البطالون من الحكماء ، ولا يلج الزناة ملكوت السماء . ولما كانت هذه حال الزنى ، كان قريباً للشرك في كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : (الزَّانِي لَا يَنْفِكُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْفِكُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ^(١) .

ثم قال رحمه الله : والمقصود أن الله سبحانه وسمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات ، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة ، وإن كان حلالاً ، وسمى فاعله جنياً ، لبعده عن قراءة القرآن ، وعن الصلاة ، وعن المساجد ، فنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء . وهكذا إذا كان حراماً ، يبعد القلب عن الله تعالى ، وعن الدار الآخرة ، بل يحول بينه وبين الإيمان ، حتى يحدث طهراً كاملاً بالتوبة ، وطهراً لبدنه بالماء . وقول اللوطية : (أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ) من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود : (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) ^(٢) ، وقوله تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنِّي إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِ) ^(٣) ، وهكذا المشرك ، إنما ينقم على الموحّد تجريده للتوحيد ، وأنه لا يشوبه بالإشراك . وهكذا المبتدع إنما ينقم على السنّي تجريده متابعة الرسول ، وأنه لم يشبها بآراء الرجال ، ولا يشيء مما خلفها . فصير الموجد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة ، خير له وأنفع ، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله من موافقه أهل الشرك والبدعة :

إذا لم يكن بدّ من الصبر فاصطبر على الحق . ذاك الصبرُ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ .

- انتهى - .

(١) [٢٤ / النور / ٣] . (٢) [٨٥ / البروج / ٨] . (٣) [٥ / المائدة / ٥٩] .

ولما هم قوم لوط بإخراجهم ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، أخرجهم الله تعالى سالماً ، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، كما أشار لذلك بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ - إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

« فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَ » أى ومن يختص به من ذويه ، أو من المؤمنين لطيبهم . قال ابن كثير : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال تعالى ^(١) : (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) « إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَ » أى فإنما لم ننجها لخبثها . قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تماثلهم عليه ، وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم . ولهذا ، لما أمر لوط عليه السلام ليسرى بأهله ، أمر أن لا يُعلمها ولا يخرجها من البلد . ومنهم من يقول بل اتبعتمهم ، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم . والأظهر أنها لم تخرج من البلد ، ولا أعلمها لوط ، بل بقيت معهم . ولهذا قال ههنا (إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَ) « كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » أى من الذين غبروا فى ديارهم ، أى بقوا فهلكوا . وقيل : من الهالكين . وهو تفسير باللازم . والتذكير للتغليب ، وليبان استحقاقها لما يستحقه المبشرون للفاحشة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » أى وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً غير متعارف ، وهو مبين بقوله تعالى : (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) ^(٢) أى طين متحجر . قال المهياعى : ولكفرهم بمطر الشرائع المحي بإبقاء النسل وغيره ، انقلب عليهم فى صورة العقاب .

(١) [٥١ / الذاريات / ٣٥ و ٣٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٧٤] .

وقرأت في التوراة المعربة أن الملكين اللذين جاء لوطاً، عليه السلام، يخبرانه وينبئانه بهلاك قومه ، قال له : أخرج من هذا الموضع ، من لك ههنا من أصهارك وبنيك وبناتك وجميع من لك ، فإننا بَعَثْنَا الرَّبَّ لنهلك هذه المدينة . ولما كان عند طلوع الفجر أَلَحَّ الملكان على لوط بأخذ امرأته وابنتيه ، ثم أمسكا بأيديهم جميعاً وصَيَّرَاهُم خارج المدينة وقالا : لا يلتفت أحد منكم إلى ورائه ، وتخلصا إلى الجبل . ولما أشرقت أمطر الرب من السماء على سَدُومَ وَعَمُورَةَ كبريتاً ونارا ، وَقَلَبَ تلك المدن ، وكل البقعة ، وجميع سكان المدن وَنَبَتَ الأرض ، والتفتت امرأته إلى ورائها فصارت نُصْبَ مِلْح ، وقدم إبراهيم غدوة من أرضه ، فتطلع إلى جهة سدوم وعمورة ، فإذا دخان الأرض صاعد كدخان الأتون - انتهى - .

وقرأت في نبوة حزقيال عليه السلام ، في الفصل السادس عشر ، في بيان إثم سدوم ما نصه :

إن الاستكبار والشبع من الخبز ، وطمانينة الفراغ ، كانت في سدوم وتوابها ، ولم تمض يد البائس والمسكين ، وتشاغلن وصنمن الرجس أُمَامِي ، فزعتهم ككرايت - انتهى - . وقد صار موضع تلك المدن بحر ماء أجاج ، لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بالبحر الميت ، أو بحيرة لوط . والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً .

قال في (مرشد الطالبين) بحر لوط ، هو بحر سدوم ، ويدعى أيضاً البحر الميت ، وهو بركة مالحة في فلسطين ، طولها خمسون ميلا ، وعرضها عشرة أميال ، وهي أوطأ من بحر الروم بنحو ١٢٥٠ قدماً ، وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعمورة وأدمة وصبويم - انتهى - .

وقوله : « فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الْمُجْرِمِينَ » أي هؤلاء أجزموا بالكفر وعمل الفواحش ، كيف أهلكناهم . والنظر تعجيباً من حالهم ، وتحذيراً من أعمالهم ، فإن من تستولى عليه رذيلة الدعارة ، تسكبه عن التوفيق نفساً وجسداً ، وتورده موارد الهلكة والوبار ، جزاء ما جنى لهم اتباع الأهواء .

تنبيه في حد اللوطي :

اعلم أنه وردت السنة بقتل من لا ط بذكر ، ولو كان بكرا ، وكذلك المفعول به ، إذا كان مختاراً ، لحديث ابن عباس ، عند أحمد ^(١) وأبي داود ^(٢) وابن ماجه ^(٣) والترمذي ^(٤) والحاكم والبيهقي ، قال : رسول الله ﷺ : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به . قال ابن حجر : رجاله موثقون ، إلا أن فيه اختلافاً .

وأخرج ابن ماجه ^(٥) والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً : اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أولم يحصنا - وإسناده ضعيف - .

قال ابن الطلاع في (أحكامه) : لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم في اللواط ، ولا أنه حكم فيه . وثبت عنه أنه قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به - رواه عنه ابن عباس وأبو هريرة - انتهى .

وأخرج البيهقي عن علي أنه رجم لوطياً .

وأخرج البيهقي أيضاً عن أبي بكر ؛ أنه جمع الناس في حق رجل ينكح كما تنكح النساء ، فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك ، فكان من أشدهم يومئذ قولاً ، علي بن أبي طالب قال :

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٠٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٢٧٢٣ . (٢) أخرجه أبو داود في : ٣٧ - كتاب الحدود ، ٢٨ - باب فيمن عمّل

عمّل قوم لوط ، الحديث رقم ٤٤٦٢ . (٣) أخرجه ابن ماجه في : ٢٠ - كتاب

الحدود ، ١٢ - باب عمّل عمّل قوم لوط ، حديث رقم ٢٥٦١ .

(٤) أخرجه الترمذي في : ١٥ - كتاب الحدود ، ٢٤ - باب ماجاء في حد اللوطي .

(٥) الذي وقفت عليه هو حديث للترمذي أخرجه في : ١٥ - كتاب الحدود ،

٢٤ - باب ماجاء في حد اللوطي ونصه : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « اقتلوا الفاعل

والمفعول به » وليس فيه (أحصنا أولم يحصنا) .

هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة ، صنع الله بها ما قد علمتم ، ينبغي أن
نحرقه بالنار . فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقه بالنار ، فكتب أبو بكر إلى
خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار .

وأخرج أبو داود ^(١) عن سعيد بن جبير ومجاهد ، عن ابن عباس : في البكر يؤخذ على
اللوطية ، يرجم .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس أيضاً : أنه سئل عن حد اللوطي فقال : ينظر أعلى بناء في
القرية فيرمى به منكساً ، ثم يتبع بالحجارة .

وقال المنذري : حرق اللوطية بالنار أبو بكر وعلى وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد
الملك .

وبالجملة ، فلما ثبت أن حده القتل بقي الاجتهاد في هيأته حرقاً أو تردية أو غيرها .
وقال بعض المحققين : إن كان اللواط مما يصح اندراجه تحت عموم أدلة الزنى فهو مخصص
بما ورد فيه من القتل لكل فاعل ، محصناً أو غيره . وإن كان غير داخل تحت أدلة الزنى ،
ففي أدلته الخاصة له ما يشق ويكفي - انتهى - .

وقال الإمام الجسمي الميني : لو كان في اللواط حد معلوم لما خفي على الصحابة ، حتى
شاورهم في ذلك أبو بكر رضي الله عنه ، أما كتب إليه خالد بن الوليد .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) : لم يثبت عنه ﷺ أنه قضى في اللواط بشيء ،
لأن هذا لم تكن تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه ﷺ ، ولكن ثبت عنه أنه قال : اقتلوا الفاعل
والمفعول به - رواه أهل السنن الأربعة وإسناده صحيح - وقال الترمذي : حديث حسن ،
وحكم به أبو بكر الصديق ، وكتب به إلى خالد ، بعد مشاورة الصحابة ، وكان علي كرم الله
وجهه أشدهم في ذلك .

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٧ - كتاب الحدود ، ٢٨ - باب فيمن عمل عمل قوم لوط ،

حديث رقم ٤٤٦٣ .

وقال ابن القصار وشيخنا : أجمعت الصحابة على قتله ، وإنما اختلفوا في كيفية قتله . فقال أبو بكر الصديق : يرى من شأهق . وقال عليّ كرم الله وجهه : يهدم عليه حائط . وقال ابن عباس : يقتلان بالحجارة . فهذا اتفاق منهم على قتله ، وإن اختلفوا في كيفية . وهذا موافق لحكمه صلى الله عليه وسلم فيمن وطئ ذات محرم ، لأن الوطء في الموضعين لا يباح للواطئ بحال . ولهذا جمع بينهما في حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، فإنه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه . وروى أيضاً عنه : من وقع على ذات رحم فاقتلوه . وفي حديثه ^(١) أيضاً بالإسناد : من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوا معها . وهذا الحكم على وفق حكم الشارع ، فإن المحرمات كلها تغلظت ، تغلظت عقوبتها . ووطء من لا يباح بحالٍ أعظم جرماً من وطء من يباح في بعض الأحوال ، فيكون حده أعلظ . وقد نص أحمد في إحدى الروايتين عنه : أن حكم من أتى بهيمة حكم اللواط سواء ، فيقتل بكل حال ، أو يكون حده حد الزاني . واختلف السلف في ذلك ، فقال الحسن : حده حد الزاني . وقال أبو سلمة : يقتل بكل حال . وقال الشعبي والنخعي : يعزّر ، وبه أخذ الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية ، فإن ابن عباس أفتى بذلك ، وهو راوى الحديث . انتهى .

وقد طعن الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث (الهداية) في دعوى إجماع الصحابة على قتل اللواطى في رواية البيهقي : أن أبا بكر جمع الصحابة فسألهم ، فكان أشدهم في ذلك قولاً على ، فقال : نرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع رأيهم على ذلك . قال ابن حجر : قلت : وهو ضعيف جداً . ولو صح لكان قاطعاً للحجة . انتهى .

وجلي أن عقوبات القتل أعظم الحدود ، فلا يؤخذ فيها إلا بالقواطع من كتاب أو سنة متواترة أو إجماع أو حديث صحيح السند والمتن ، قطعى للدلالة . ولذا كان على الحاكم بذل جهده في ذلك استبراء لدينه - والله أعلم - .

(١) أخرجه الترمذى في : ١٥ - كتاب الحدود ، ٢٣ - باب ما جاء فيمن يقع على بهيمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَبْقُومَ ۖ اْعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » أى وأرسلنا إليهم . قال ابن إسحق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم . وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين .
قال ابن كثير : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة التى بقرب معان من طريق الحجاز وهم أصحاب الأيكة .

« قَالَ يَبْقُومَ » أى : الذين أحب كلهم ديناً ودنيا « اْعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرُهُ » وهذه دعوة الرسل كلهم كما قدمنا « قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى مائتين به الحق من الباطل . يعنى دعوته وإرشاده . ومن هنا قال بعضهم : عنى بالبينة بحى شعيب ، وأنه لم تكن له آية إلا النبوة . ومن فسر البينة بالحجة والبرهان والمعجزة المحسوسة ذهاباً إلى أن النبى لما كان يدعو إلى شرع يوجب قبوله ، فلا بد من دليل يعلم صدقه به ، وما ذاك إلا المعجزة - قال : إن معجزة شعيب لم تذكر فى القرآن ، وليست كل آيات الأنبياء المذكورة فى القرآن . ولا يخفى أن البينة أعم من المعجزة بعرفهم ، فكل من أبطلت شبهة ضلاله ، وأظهرت له حجة الحق الذى يدعى إليه فقد جاءته البينة . لأن حقيقة البينة كل ما يبين الحق . فاحفظه .

قال الجسمى : واختلفوا ، فقيل : لا يجوز أن يبعث إلا ومعه شرع - عن أبى هاشم - . وقيل : يجوز أن يدعو إلى ما فى العقل - عن أبى على - انتهى .

وقد دلت الآيات هذه على أن شعيباً ، عليه السلام ، دعاهم إلى التوحيد والشرائع ، على ما جرت به عادة الرسل ، فمنها قوله : « فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ » أى فأتوموها للناس بإعطائهم حقوقهم « وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » أى : لا تنقصوهم حقوقهم فلا تخونوا الناس فى أموالهم ، وتأخذوها على وجه البخس ، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا كما قال تعالى^(١) : (وَيَلُ لِّلْمُطَفِّفِينَ ..) إلى قوله : (لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

يقال : بخسه حقه أى نقصه إياه ، وظلمه فيه .

قال الزمخشري : كانوا يبخسون الناس كل شىء فى مبيعاتهم ، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه . قال زهير :

أفى كل أسواق العراق إتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم
قال القاضي : وإنما قال (أشياءهم) للتعميم ، تنبيها على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير - انتهى - .

والنهي عن النقص يوجب الأمر بالإيفاء . فقيل : فى فائدة التصريح بالنهي عنه ، بيان لقبحه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله تعالى : (وَلَا تَبْخَسُوا ...) الآية - قال : أى لا تسموا لهم شيئاً ، وتعطوا لهم غير ذلك . ودلت الآية على أن إيفاء الكيل والميزان واجب على حسب ما يعتاد فى صفة الكيل والوزن « وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » أى : بالكفر والظلم « بَعْدَ إِصْلَاحِهَا » أى : بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون العاملون بشرائعتهم من وضع الكيل والوزن والحدود والأحكام « ذَلِكُمْ » إشارة إلى العمل بما أمروا به ونهوا عنه « خَيْرٌ لَّكُمْ » فى الحال لتوجه الناس إليكم بسبب حسن الأحذوثة ، وفى المال « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى : مصدقين قولى .

(١) [٨٣ / المطففين / ٦-١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

« وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ » نهى عن قطع الطريق الحسى . أى : لا تجلسوا على كل طريق فيه يمر الناس الغريباء ، تضربونهم وتخوفونهم ، وتأخذون ثيابهم ، وتتوعدونهم بالقتل ، إن لم يعطوكم أموالهم .

قال مجاهد : كانوا عشارين - أخرجهم أبو الشيخ . وأخرج ابن أبي جاتم عن السدي مثله . وعن ابن عباس وغير واحد أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه .

قال ابن كثير : والأول أظهر ، لأنه قال (بِكُلِّ صِرَاطٍ) وهو الطريق . وهذا الثانى هو قوله « وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ » وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى : تصرفون عن دين الله وطاعته من آمن بشعيب ، وتطلبون لها عوجاً بإلقاء الشبه ، ووصفها بما ينقصها لتغييرها « وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ » بالعدد والعدد ، فاشكروا نعمة الله عليكم فى ذلك « وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » أى : من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والشكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

« وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا ، يعنى وإن اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين مؤمنة وكافرة « فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا »

أى : بين الفريقين بنصر المحققين على المبطلين ، فهو وعد للمؤمنين ، ووعد للكافرين .
قال الشهاب : وخطاب (اصبروا) للمؤمنين ، ويجوز أن يكون للفريقين ، أى ليصبر
المؤمنون على أذى الكفار ، والكفار على مايسوؤهم من إيمانهم . أو للكافرين . أى تربصوا
لتروا حكم الله بيننا وبينكم « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه منزّه عن الجور فى حكمه ،
فسيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ أُمْلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)
« قَالَ أُمْلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ » أى عن الإيمان « لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ » أى إلى ترك دعوى الرسالة ، والإفراجهـا ،
داخلين « فى مِلَّتِنَا » أى ملة المشركين .

قال الجشمى : الملة الديانة التى يجمع على العمل بها فرقة عظيمة . والأصل فيه تكرر
الأمر ، من قولهم : طريق ممل ومليل ، إذا تكرر سلوكه حتى صار معاملاً . ومنه الملل :
تكرار الشئ على النفس حتى تضجر منه - انتهى .

« قَالَ » أى شعيب « أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ » أى : أتجبروننا على ذلك ، وإن كنا
كارهين له ؟ مع أنه لا فائدة فى الإكراه ، لأن دينكم إن كان حقاً ، لم نكن بالإكراه
منقادين له ، وإن كان باطلا ، لم نكن بالإكراه متصفين به ، لأنه بالحقيقة صفة القلب ، ولا
يسرى إكراهكم إليه . وكيف لانكرهه وهو يستلزم غاية القبح والظلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)
 « قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى اختلقنا عليه باطلا بأن له شريكا « إِنْ عُدْنَا »
 إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، لندخل « فِي مِلَّتِكُمْ » القائلة بأن له شريكا « بَعْدَ
 إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا » فأرانا أنه كالأنجاء من النار « وَمَا يَكُونُ » أى ينبغي « لَنَا أَنْ
 نَعُودَ » أى عن دعوى الرسالة والإقرار بها فنصير « فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا » أى
 الذى يربينا بما علم من استعدادنا ؛ لأنه « وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » أى فلم استعداد كل
 واحد فى كل وقت ، لكن « عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » أى ليحفظنا عن المصير إليها « رَبَّنَا » إن
 قصدوا إكراهنا عليها أو إخراجنا من قريتهم « افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » فغلبنا
 عليهم « وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » أى خير الحاكمين ، فلا تغلب الظالمين وإن كثروا ، على
 المظلومين إذا استفتحوك .

تنبيهات :

الأول - اعلم أن ظاهر قوله تعالى (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) وقوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا) يدل على أن شعيباً عليه السلام كان على ملتهم قبل بعثته . ومعلوم عصمة الأنبياء عن الكبرائر ، فضلا عن الشرك .

وفى (المواقف وشرحها) : أن الأمة أجمعت على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة
 وبعدها ، غير أن الأزارقة من الخوارج جوزوا عليهم الذنب ، وكل ذنب عندهم كفر ،
 فلزمهم تجويز الكفر . وجوز الشيعة إظهار الكفر تقية عند خوف الهلاك ، واحترازاً عن
 إلقاء النفس فى التهلكة . ومثله فى (شرح التجريد) .

ولما تقرر إجماع الأمة على ما ذكر ، كان للعلماء في هذه الآية وجوه :

منها : أن العود المقابل للخروج ، هو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها .
والجار والمجرور حال . أى ليكن منكم الخروج من قريتنا ، أو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، داخلين في ملتنا . وهذا الوجه اقتصر عليه المهابي ، وسائرناه فيه مع تفسير تنمة الآية .

ومنها : أن العود المذكور إلى ما خرج منه ، وهو القرية . والمجرور حال كالسابق . أى ليكن منكم الخروج من قريتنا ، أو العود إليها ، كائنين في ملتنا . وعُدَى (عاد) ب(فى) كأن الملة لهم بمنزلة الوعاء المحيط بهم .

ومنها : أن هذا القول جارٍ على ظنهم أنه كان في ملتهم ، لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم
ومنها : أنه صدر عن رؤسائهم تلبيساً على الناس ، وإيهاماً لأنه كان على دينهم . وما صدر عن شعيب عليه السلام كان على طريق المشاكاة .

ومنها : أن (اَتَعُوذَنَّ) بمعنى لتصيرن . إذ كثيراً ما يرد (عاد) بمعنى (صار) ، فيعمل عمل (كان) . ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك ، وهو الانتقال من حال سابقة ، إلى حال مؤتلفة مثل (صار) . وكأنهم قالوا - والله أعلم - لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتصيرن كفاراً مثلنا .

قال الرازى : تقول العرب . قد عاد إلى من فلان مكروه ، يريدون : قد صار إلى منه المكروه ابتداءً . قال الشاعر (١) :

فإن تكن الأيام أحسن مدةً إلى فقد عادتَ لهنَّ ذُنُوبُ

أراد : فقد صارت لهن ذنوب ، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان - انتهى - .

ومنه حديث معاذ (٢) . قال له النبي ﷺ : (أَعَدْتَ فِتْنَانَا يَا مَعَاذُ ؟) أى صرت .

(١) لم أعرف اسمه ولم أقف على بيته .

(٢) استشهد به فى اللسان ، نقلاً عن النهاية ، فى مادة (ع و د) .

ومنه حديث خزيمه^(١) : عَادَ لَهَا النَّقَادُ مُجَرَّثًا . أى صار .

وفى حديث كعب^(٢) : وددت أن هذا اللبن يعود قَطْرَانًا ، أى يصير . فقيل له : لم ذلك؟ قال : تَتَبَعْتُ قَرِيضَ أَذْنَابِ الْإِبِلِ ، وتركوا الجماعات .

قال الشهاب : إلا أنه قيل إنه لا يلزم قوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا) إلا أن يقال بالتغليب فيه ، أو يقال : التنجية لا يلزم أن تكون بعد الوقوع فى المكروه . ألا ترى إلى قوله (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَ-) ^(٣) وأمثاله ؟

ومنها : أن العود يطلق ، ويراد به الابتداء . حققه الراغب والجارىردى وغير واحد . وأنشدوا قول الشاعر :

* وَعَادَ الرَّأْسُ مِنِّى كَالْتَّغَامِ ^(٤)

ومعنى الآية : لتدخلن فى ملتنا ، وقوله تعالى (إِنْ عُدْنَا) أى دخلنا - كذا فى تاج العروس - .

ومنها : إبقاء صيغة العود على ظاهرها ، من استدعائها رجوع المائد ، إلى حال كان عليها قبل . كما يقال : عاد له ، بعد ما كان أعرض عنه . إلا أن الكلام من باب التغليب . قال الزمخشري : لما قالوا (لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُمُوبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ) فغطفوا على ضميره ، الذين

(١) استشهد به فى اللسان ، نقلا عن النهاية ، فى مادة (عود) وقال فى مادة (جرثم) : النَّقَادُ : صغار الغنم . ومجرثما : مجتمعا متقبضا ، وإنما اجتمعت فى الجذب لأنها لم تجد مرعى تنتشر فيه . وإنما لم يقل (مجرثمة) لأن لفظ (النقاد) لفظ الاسم الواحد . كالحداد والخمار . (٢) استشهد به فى اللسان ، نقلا عن النهاية ، فى ماد (ع و د) .

(٣) [٧ / الأعراف / ٨٣] و [٢٧ / النمل / ٥٧] . (٤) فى اللسان : التَّغَامُ نبت على شكل الحلي ، وهو أغلظ منه ، وأجلّ عودا ، يكون فى الجبل ينبت أخضر ثم يبيض إذا يبس ، وله سِنَّمة غليظة . ولا ينبت إلا فى قنّة سوداء ، وهو ينبت بنجد وتهامة .

دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم - قالوا (لَتَعْمُودُنَّ) فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجمعوهم عائدین جميعاً ، إجراءً للكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال (إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا) وهو يريد عود قومه ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم ، وإن كان بريئاً من ذلك ، إجراءً لكلامه على حكم التغليب - انتهى .

ومنها : ما قاله الناصر في (الانتصاف) : إنه يسلم استعمال (العود) بمعنى (الرجوع إلى أمر سابق) ، ويجب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى (١) : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان لم يدخل قط في ظلمة الكفر ، ولا كان فيها . وكذلك الكافر الأصلي ، لم يدخل قط في نور الإيمان ، ولا كان فيه . ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أَرَادَهُ ، فعبّر عن تمكن المؤمن من الكفر ، ثم عدوله عنه إلى الإيمان ، إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور ، توفيقاً من الله له ، ولطفاً به ، وبالعكس في حق الكافر . وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى (٢) : (أَوْ لَكُمُ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب . وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار ، لإقامة حجة الله على عباده - والله أعلم - انتهى .

الثاني : في قوله : (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا) ردّ إلى الله تعالى مستقيم . قال الواحدى : والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية : أن شعيباً وأصحابه قالوا : ما كفا لنرجع إلى ملتكم ، بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار ، إلا أن يريد إهلاكنا . فأمورنا راجعة إلى الله ، غير خارجة عن قبضته ، يسعد من يشاء بالطاعة ، ويشقى من يشاء بالمعصية . وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشئته الله . ولم تزل الأنبياء والأكابر

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] . (٢) [٢ / البقرة / ١٦] .

يَخَافُونَ الْعَاقِبَةَ ، وَانْقِلَابِ الْأُمُور . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ الْخَلِيلِ ^(١) عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامًا) ؟ وَكَانَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا مَا يَقُولُ ^(٢) : يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ! ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ .

وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الْمَعْنَى : وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ أَنْ نَعُودَ فِيهَا . وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) ، يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا يَكُونُ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ ، وَمَا سَيَكُونُ . وَأَنَّهُ تَعَالَى كَانَ عَالِمًا فِي الْأَزَلِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ . فَالْمُسْعِدُ مَنْ سَعَدَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى . وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَالَ النَّاصِرُ فِي (الْإِتِّصَافِ) : مَوْقِعُ قَوْلِهِ (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) الْإِعْتِرَافُ بِالْقُصُورِ عَنْ عِلْمِ الْعَاقِبَةِ ، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ . فَإِنَّ الْعُودَ إِلَى الْكُفْرِ جَازٍ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ أَنْ يَقَعَ مِنَ الْعَبْدِ . وَلَوْ وَقَعَ ، فَبِقُدْرَةِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ الْمَغْيِبَةِ عَنْ خَلْقِهِ . فَالْحَذَرُ قَائِمٌ ، وَالْخَوْفُ لَازِمٌ . وَنَظِيرُهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ^(٣)) لَمَّا رَدَّ الْأُمُورَ إِلَى الْمَشِيئَةِ ، وَهِيَ مَغْيِبَةٌ ، مَجَّدَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِنْقِرَادِ بِعِلْمِ الْغَائِبَاتِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ : مَعْنَى (وَمَا يَكُونُ لَنَا ...) الْآيَةُ - أَيْ مَا يَصِحُّ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، أَوْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . أَيْ إِلَّا حَالٌ مَشِيئَةُ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ وَقْتُ مَشِيئَتِهِ تَعَالَى ، لَعُودِنَا فِيهَا . وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَكَادُ يَكُونُ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (رَبُّنَا . .) فَإِنَّ التَّعَرُّضَ لِعُمُودِ رَبُّوبِيَّتِهِ تَعَالَى لَهُمْ ، مِمَّا بَيَّنَّاهُ عَنْ اسْتِحْوَاجِ مَشِيئَتِهِ تَعَالَى لِارْتِدَادِهِمْ قَطْعًا ، وَكَذَا قَوْلُهُ (بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا آلَ اللَّهِ مِنْهَا) فَإِنَّ تَنْجِيَّتَهُ تَعَالَى لَهُمْ مِنْهَا ، مِنْ دَلَائِلِ عَدَمِ مَشِيئَتِهِ لَعُودِهِمْ فِيهَا . وَقِيلَ لِمَعْنَاهُ : إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ خَذْلَانَنَا . فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى . وَأَيًّا مَا كَانَ ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ الْعُودَ فِيهَا فِي حَيْزِ الْإِمْكَانِ ، وَخَطَرُ الْوُقُوعِ ، بِنَاءً عَلَى كَوْنِ مَشِيئَتِهِ تَعَالَى كَذَلِكَ . بَلْ بَيَانُ اسْتِحْوَاجِ وَقُوعِهَا . كَأَنَّهُ

(١) [١٤ / إِبْرَاهِيمَ / ٣٥] . (٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي : ٣٠ - كِتَابِ الْقَدْرِ ، ٧ -

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْ الرَّحْمَنِ . (٣) [٦ / الْأَنْعَامَ / ٨٠] .

قيل : وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وهيئات ذلك . بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له - انتهى - .

ولا يخفى أن إفهام ذلك الاستحالة ، هو باعتبار الواقع ، وما يقتضيه منصب النبوة . وأما إذا لوحظ مقام الخوف والخشية ، الذى هو من أعلى مقامات الخواص ، فيكون ما ذكرناه أولاً أدق ، وبالقبول أحق .

قال الإمام ابن القيم فى (طريق المجرتين) : قد أثنى الله سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه ، فقال عن أنبيائه ، بعد أن أثنى عليهم ومدحهم (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا)^(١) فالرغب الرجاء ، والرهب الخوف والخشية . وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)^(٢) وفى الصحيح^(٣) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إني أعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية . وفى لفظ آخر : إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتق . وكان صلى الله عليه وسلم^(٤) يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء . وقد قال تعالى^(٥) (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فكلما كان العبد بالله أعلم ، كان له أخوف .

الثالث : قال الفراء^(٦) : أهل عُمان يسمون (القاضى) الفاتح والفتاح . لأنه يفتح مواضع الحق ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ما كنت أدرى قوله (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك ، أى أحاكمك .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٩٠] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٠] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٧٢ - باب من لم يواجه الناس

بالعتاب ، حديث ٢٣٤٣ . (٤) أخرجه النسائى فى : ١٣ - كتاب السهو ، ١٨ - باب

البكاء فى الصلاة . (٥) [٣٥ / فاطر / ٢٨] . (٦) انظر معانى القرآن للفراء ،

الصفحة ٣٨٥ من الجزء الأول (طبعة دار الكتب) .

وقال الشهاب : الفتح ، بمعنى الحكم ، وهى لغة لِحْمِير ، أو لمراد ، والفتاحة (بالضم) عندهم الحكومة . أو هو مجاز بمعنى : أظهر وبين أمرنا ، حتى يكشف ما بيننا وبينهم ، ويتميز المحق من البطل . ومنه فتح المشكل لبنيانه وحلّه ، تشبيهاً بفتح الباب وإزالة الأغلاق ، حتى يوصل إلى ما خلفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَقَالَ أُمْلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ)

«وَقَالَ أُمْلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا» أى فيما أمركم به وبينها كم عنه «إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ» أى لجاهلون مغبونون ، لاستبدالكم ضالته بهداكم ، أو لفوات ما يحصل لكم من بحس السكيل والميزان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ)

«فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» أى الزلزلة الشديدة .

قال ابن كثير : أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة ، كما أرفجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم فى سورة هود ، فقال (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَرَحِمَةً مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) (١) والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تكلموا به فى قولهم (أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ . . .) الآية (٢) - فجاءت الصيحة فأسكتهم . وقال تعالى فى الشعراء (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ وَكَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمًا) (٣) وما ذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ . . .) (٤) الآية

(١) [١١ / هود / ٩٤] . (٢) [١١ / هود / ٨٧] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٨٩] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٨٧] .

فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة . وقد اجتمع عليهم ذلك كله . أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهى سحابة أظلمتهم ، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم . ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخذت الأجسام « فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ » أى مدينتهم « جَسِيمِينَ » أى ساقطين ميتين ، لا ينتفعون برؤوس أموالهم ولا بزوائدها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ)

« الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا » استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم (لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا) وعقوبتهم بمقابلته . والموصول مبتدأ ، وخبره جملة (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) أى استؤصلوا بالمرءة ، وصاروا كأنهم ، لما أصابهم النعمة ، لم يقيموا بديارهم ، التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

ثم قال تعالى مقابلا لقيلمهم السابق : « الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ » ديناً ودنيا ، لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا .

قال أبو السعود : استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير . وإعادة الموصول والصلة كما هى ، لزيادة التقرير ، والإيذان بأن ما ذكر فى حيز الصلة ، هو الذى استوجب العقوبتين . أى الذين كذبوه عليه السلام ، عوقبوا بمقاتلتهم الأخيرة ، فصاروا هم الخاسرين ، لا المتبعون له ، وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بإنجائه عليه الصلاة والسلام ، كما وقع فى سورة هود من قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ) .

وقال الزمخشري : فى هذا الاستئناف والابتداء ، وهذا التكرير ، مبالغة فى ردّ مقالة الملأ لأشباعهم ، وتسفيه لرأيهم ، واستهزاء بنصيحهم لقومهم ، واستعظام لما جرى عليهم .

وفي (العنابة) : أن من عادة العرب الاستئناس من غير عطف ، في الذم والتوبيخ .
فيقولون : أخوك الذي نهب مالنا ، أخوك الذي هتك سترنا . - انتهى - .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ)

: « فَتَوَلَّى عَنْهُمْ » أى : أعرض عن شفاعتهم والحزن عليهم « وَقَالَ » أى : في الاعتذار
« يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي » أى بالأمر والنهي « وَنَصَحْتُ لَكُمْ » أى :
حذرتكم من عذاب الله ، ودعوتكم إلى التوبة والإيمان بما يفيد ربح الدارين ، وبمنعكم
خسرانهما ، لكنكم كفرتم « فَكَيْفَ آسَىٰ » أى : أحزن حزناً شديداً « عَلَىٰ قَوْمٍ
كَافِرِينَ » أى بالله إن هلكوا ، فضلاً عن أن أشتغل بشفاعتهم . يعنى أنه لا يأسى عليهم ،
لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى .

تنبيه :

قال الجشمي : من أحكام الآية أنها تدل على أن قوم شعيب أهل كوا بعذاب الاستئصال ،
لما لم يقبلوا نصيحة نبيهم . فتدل على وجوب قبول النصيحة في الدين . وتدل على أنه لا يجوز
الحزن على هلاك الكفرة والظلمة ، بل يجب أن يحمد الله ويشكر . كما قال تعالى (فَقُطِعَ
دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^(١)

لطيفة :

ذكروا أن شعيباً ، عليه السلام ، يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته ، وجزالة موعظته
وأصله ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا
ذكر شعيباً يقول : ذاك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه .

والمراجعة (مفاعلة) من الرجوع ، وهى مجاز عن المحاورة . يقال : راجعه القول . وإنما عن النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكر فى هذه السورة ، كما يعلم بالتأمل فيه . كذا فى (العناية) .

ثم أشار تعالى إلى أحوال سائر الأمم مع أنبيائهم إجمالاً ، إثر بيان الأمم المذكورة تفصيلاً ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ » أى كذبه أهلها « إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا » أى قبل الإهلاك الكلى « بِالْبَأْسَاءِ » أى شدة الفقر « وَالضَّرَّاءِ » أى المرض ، لاستكبارهم عن اتباع ، نبهم ، وتعزهم عليه « لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ » ليتضرعوا ويتذلوا ، ويحطوا أودية الكبر والعزة ، فيؤمنوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ » أى أعطيناهم - بدل ما كانوا فيه من البلاء ، كالشدة والمرض - السعة والصحة « حَتَّىٰ عَفَوا » أى كثروا ونعوا فى أنفسهم وأموالهم . من قولهم : عفا النبات ، وعفا الشحم والوبر ، إذا كثرت . ومنه قوله ﷺ (١) (وأعفوا اللحي) « وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ » يعنى وأبطرهم النعمة وأشروا ،

(١) أخرجه مسلم فى : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

والبخارى فى : ٧٧ - كتاب اللباس ، ٦٥ - باب إعفاء اللحي ، حديث رقم ٢٢٩٢ .

فقالوا كفراناً لها : هذه عادة الدهر . يعاقب في الناس بين الضراء والسراء ، وقد مس آباءنا نحو ذلك فصبروا على دينهم ، فنحن مثلهم ، نقفدى بهم ، وما هو باهلاء من الله لعباده ، تصديقاً لوعده الرسل ، فازدادوا كفرًا بعد الإلغام القولى والفعلى . والمعنى : أن الله تعالى ابتلاههم بالسيئة لينيبوا إليه ، فما فعلوا . ثم بالحسنة ليشكروا ، فما فعلوا . وإذا لم ينجع فيهم هذا ولا ذاك ، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ، وقد فعل . كما قال سبحانه « فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى فأخذناهم أشد الأخذ وأفظعه ، وهو أخذهم فجأة ، من غير شعور منهم ، ولا خطور شيء من المكارة بياهم ، كقوله تعالى (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِعِمَّا أُوتُوا...) (١) الآية - وفى الحديث (٢) (موت الفجأة راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر) رواه الإمام أحمد والبيهقى عن عائشة . مرفوعاً .

تنبيه :

اعتقاد أن مناوبة الضراء والسراء عادة الدهر ، من غير أن يكون هناك داعية تؤدى إليها ، ولا حكمة فيهما ، هو من اعتقاد الكافرين . قال ابن كثير : المؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، فيشكر الله على السراء ، ويصبر على الضراء . ولهذا جاء فى الحديث (٣) : لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه . والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهله ، ولا قيم أرسلوه - أو كما قال - . وفى الصحيحين (٤) : عجبا لأمر المؤمن . إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له .

وقوله تعالى :

- (١) [٦ / الأنعام / ٤٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) . (٣) لم أعثر على هذا النص فيما بين يدي من المصادر . (٤) أخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٤ (طبعتنا) . ولم يخرج البخارى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا » أى القرى المهلكة « آمَنُوا » أى بالله ورسوله « وَاتَّقَوْا » أى الكفر والمعاصي « لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » أى لو سمعنا عليهم الخير ، ويسرناه لهم من كل جانب ، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات ، التى بعضها من السماء ، وبعضها من الأرض . فـ (فتحننا) استعارة تبعية ، لأنه شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب فى سهولة التناول . أو مجاز مرسل فى لازمه ، وهو التيسير . أو أريد بـ (بركات السماء) المطر و (بركات الأرض) النبات والثمار « وَلَٰكِن كَذَّبُوا » أى الرسل « فَأَخَذْنَاهُم » أى عاقبناهم « بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » من الكفر والمعاصي .

تفسيه :

أفادت الآية قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل ، كقوله تعالى (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِعْصَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)^(١) أى : ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس ، فإنهم آمنوا ، وذلك بعد ما عاينوا من العذاب ، كما قال تعالى عنهم (فَأَمَّنُوا فَمَرَّتْهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)^(٢) . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَاعُونَ)

« أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ » أى : القرى المذكورة « أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا » أى : عذابنا ونكالنا « بَيِّنًا » أى : ليلاً ، أى وقت ييات « وَهُمْ نَاعُونَ » أى حال كمال الغفلة .

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٤٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

« أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ » أى : يخوضون في الباطل ويلهون من فرط الغفلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ » وهو أخذه العبد من حيث لا يحتسب « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » أى لا يأمن أحد أخذه تعالى العبد من حيث لا يشعر ، مع كثرة ما رأى من أخذه العباد من حيث لا يحتسبون ، إلا القوم الذى خسروا عقولهم ، وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، والاستعداد القريب المستفاد من النظر فى الآيات ، فصاروا خاسرين إنسانيتهم ، بل أخس من البهائم . وفى قوله تعالى « أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ » تكرير للنكير فى قوله : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ) لزيادة التقرير .

قال الزمخشري : فعلى العاقل أن يكون فى خوف من مكر الله ، كالحارب الذى يخاف من عدوه الكمين ، والبيات ، والغيلة . وعن الربيع بن خثيم أن ابنته قالت : ما لى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ فقال : يا بنتاه ! إن أباك يخاف البيات . أراد قوله (أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا) . - انتهى - .

وقال الحسن البصري : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق ، وجل خائف . والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن .

تنبيه :

الآمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية ، وهو الاسترسال فى المعاصى ، اتكالا على عفو الله - كما فى جمع الجوامع - .

وقال الحنفية : إنه كفر كالإياس ، لقوله تعالى : (إِنَّهُ وَ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)^(١) (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)^(٢) .

واستدل الشافعية بحديث ابن مسعود^(٣) رضى الله عنه (من الكبائر الأمان من مكر الله) . وما ورد من أنه كفر ، محمول على التغليظ . كذا في (العناية) .

وروى ابن أبي حاتم والبرار عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه صلى الله عليه وسلم سئل : مَا الْكِبَائِرُ ؟ فَقَالَ : الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالْإِيَّاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ . قال بعضهم : والأشبه أن يكون موقوفاً .

قال ابن حجر : وبكونه أكبر الكبائر ، صرح ابن مسعود . كما رواه عنه عبد الرزاق والطبراني .

قال السكال بن أبي شريف : عطفهما - يعنى الإياس والأمان - في الحديث على (الإشراك بالله) المحمول على مطلق الكفر ، ظاهر في أنهما غير الكفر .

وقال أيضاً . مراد الشافعية بكونه كبيرة ؛ أن من غلب عليه الرجاء غلبة دخل بها في حد الأمان من المكركر ، كمن استبعد العفو عن ذنوبه لعظمها استبعاداً دخل به في حد اليأس . وأما من كان أمنه لاعتقاد أن لا مكر ، كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنوبه . فينبغي أن يكون كل منهما كافراً عند الشافعية أيضاً ، ويحمل عليه نص القرآن - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« أَوْ لَمْ يَهْدِ » أى يتبين « لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا » أى المأخوذين

(١) [١٢ / يوسف / ٨٧] . (٢) [الأعراف / ٩٩] .

(٣) لم أف على هذا الحديث .

« أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » أى كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين « وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى نجثم عليها فلا يقبلون موعظة ولا إيماناً .

قال أبو البقاء : يقرأ (يهد) بالياء وفاعله (أن لو نشاء) . و (أن) مخففة من الثقيلة .
أى : أو لم يبين لهم علمهم بمشيئتنا . ويقرأ بالنون . و (أن لو نشاء) مفعوله . وقيل : فاعل (يهدى) ضمير اسم الله تعالى - انتهى - .

ويؤيده قراءة النون . وجوز أن يكون ضميراً عائداً على ما يفهم مما قبله ، أى : أو لم يهد ما جرى للأمم السابقة . وتعدية (يهد) باللام ، لأنه بمعنى (يبين) إما بطريق المجاز ، أو التضمنين .

قال الشهاب : وإنما جعل بمعنى (يبين) ، وإن كان (هدى) يتعدى بنفسه ، وباللام ويالى - لأن ذلك فى المفعول الثانى لا فى الأول ، كما هنا ، فهذا استعمال آخر . وقيل : لك أن تحمل اللام على الزيادة ، كما فى (رَدِفَ لَكُمْ)^(١) والمراد (الذين) أهل مكة ومن حولها ، كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما - انتهى - .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا، وَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)

« تِلْكَ الْقُرَىٰ » أى المذكورة وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وقوم شعيب « نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا » مما يدل على مؤاخذتهم بذنوبهم لإصرارهم عليها بعد التنبيه .

ثم بين تعالى أنه أعذر إليهم، بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل بقوله: « وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » عند مجيء الرسل بالبينات والدلائل القاطعة « بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ » أى بسبب تكذيبهم بالحق أول ماورد عليهم، إذ تمرنوا على التكذيب، فلم تقدم الآيات، واستوت عندهم الحالتان، كقوله: (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتُهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...) الآية (١) - ولهذا قال « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ » أى من المذكورين وغيرهم، فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر، لما علم أنهم يختارون الثبات على الكفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)
« وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ » أى من وفاء عهد « وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » أى : خارجين عن الطاعة مارقين ، فلذلك أخذناهم .

قال الرخشى : الضمير (للناس) على الإطلاق ، أى وما وجدنا لأكثر الناس من عهد . يعنى : أن أكثر الناس نقض عهد الله وميثاقه فى الإيمان والتقوى . والآية اعتراض . ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين ، وأنهم كانوا ، إذا عاهدوا الله فى ضرر وخافة ، لئن أنجيتنا لنؤمنن ، ثم نجاهم ، نكثوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ، فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ » أى : الرسل المتقدم ذكرهم ، وهم نوح وهود وصالح ولوط

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٩ و ١١٠] .

وشعيب، أو الأمم المحكيّة من بعدهلاكهم « مُوسَىٰ بِأَيِّنَّا » وهي العصا، واليد البيضاء، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، حسبما يأتي مفصلاً « إِيَّا فِرْعَوْنَ » وهو ملك مصر في عهد موسى « وَمَلَأَيْنَاهُ » أى قومه « فَطَلَمُوا بِهَا » أى كفروا بها . أجرى الظلم مجرى التكفر في تعديته بالباء، وإن كان يتعدى بنفسه، لأنهما من وادٍ واحد. (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ^(١). أو هو بمعنى الكفر مجازاً أو تضعيفاً، أى: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان، لأنه أوتى الآيات لتكون موجبة للإيمان بما جاء به . فمكسوا، حيث كفروا فوضعوا الشيء في غير موضعه . أو الباء سببية، ومفعوله محذوف، أى ظلموا أنفسهم بسببها، بأن عرضوها للعذاب الخالد . أو ظلّموا الناس لصدّهم عن الإيمان بها، والمراد به الاستمرار على الكفر بها إلى أن لقوا من العذاب ما لقوا، كما يشير له قوله تعالى « فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » أى لعقائد الخلق، أفسد الله عليهم ملكهم، وآتاه أعداءهم، فأغرقهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » أى : أرسلى إليك الذى هو خالق كل شيء وربّه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ

مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ)

« حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ » أى جدير بذلك وحرى به، لما علمت

(١) [٣١ / لقمان / ١٣] .

من حالى . والباء و (على) يتعاقبان . يقال : رميت بالقوس وعلى للقوس . وجاء على حال حسنة وبحال حسنة . وقرأ أبى رضى الله عنه (حقيق بأن لا أقول) « قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » أى آية منه تشهد على صدق فيما جئتم به بالضرورة « فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ » روى أنه تعالى أمره أن يأتى فرعون ويقول له : إن إلها أمرنا أن نسير ثلاثة أيام فى البرية ، ونقرب له قرايين ونعبده . وقد علم تعالى أن فرعون لا يدعهم يمضون ، ولكن ليظهر آياته على يد موسى ، ويهلك عدوه . فلما أتى موسى فرعون وكله فى أن يرسل معه قومه ، أنكر أمر الرب له ، وقال : لماذا نعطل الشعب عن أعماله ؟ وكانوا مسخرين لفرعون فى عمل اللبن ، وأمر بزيادة عملهم ، بأن يجمعوا التبن من أنفسهم ، بعد أن كانوا يعطونه من قبل فرعون . ثم طلب فرعون من موسى آية ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)
« قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (فَأَلْقِ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)
« فَأَلْقَى عَصَاهُ » التى هى جاد « فَإِذَا هِيَ » أى من غير سترة ولا معالجة سبب « ثُعْبَانٌ » أى حية كبيرة هائلة ، فاضت عليه الحياة لتدل على فيضان الحياة العظيمة على يديه « مُبِينٌ » أى ظاهر لا مُتَخَيَّل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَنَزَعَ يَدَهُوْ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)
« وَنَزَعَ يَدَهُوْ » أى أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه « فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ »

أى بياضاً بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجباً من أمرها . فيدل على أنه يظهر على يديه شرائع تغلب أنوارها المعنوية الأنوار الحسية ، ويتقوى بها الحياة بالله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قَالَ أَلَمْ لَا مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

« قَالَ أَلَمْ لَا مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ » أى الأشراف الذين يكرهون شرف الغير عليهم ، فى دفع هذه الآيات الظاهرة عن خواطر الخلق « إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ » أى ماهر فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

« يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ » أى من أرض مصر بسحره ليمتلك عليها « فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » أى تشيرون فى أمره . وهذا من تمام الحكاية عن قول الملائكة ، أو مستأنف من قول فرعون ، تقديره فقال : ماذا تأمرون ؟ ويدل عليه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

« قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ » أى أخر أمرها ، وأصدرهما عنك ، حتى ترى رأيك فيهما ، وتدبر شأنهما ، لئلا تنسب إلى الظلم الصريح .

قال أبو منصور : والأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر ، وهو الهم بقتله ، فقالوا أخره ليتبين حاله للناس . وأصل (أَرْجِهْ) أخرجه ، كما قرئ كذلك . من (أَرْجَأْتُ) « وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ » أى مدائن الصعيد من نواحي مصر « حَاشِرِينَ » أى من يحشر لك السحرة ويجمعهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَجِرٍ عَلِيمٍ)

« يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَجِرٍ » وقرئ (سَجَّار) « عَلِيمٍ » أى ماهر فى باب السحر ،
ليعارضوا موسى بنظير ما أراهم من البينات .

تنبيه :

قال الجسمى : تدل الآية على عظيم معجزة لموسى ، وتدل على جهل فرعون وقومه ، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسمى لا يقدر عليه غير الله تعالى ، حتى نسبوه إلى السحر . وتدل على أن عادة البشر ، أن من رأى أمراً عظيماً أن يعارضه . فلذلك دعا فرعون بالسحرة . فدل على أن العرب لو قدروا على مثل القرآن ، لعارضوه . وتدل على أن الطريق فى المعجزات ، المعارضة بإتيال مثله ، ولذلك قال تعالى فى القرآن : (قَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ)^(١) ولذلك لم يتكلف فرعون وقومه غير المعارضة وإيقاع الشبه . وتدل أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال ، لذلك قالوا (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ) فيدل على أن من أقوى الدواعى إلى ترك الدين ، المحافظة على الرياسة والمال والجاه ، كما هو عادة الناس فى هذا الزمن . انتهى . ثم تسابقت شُرط فرعون ، فحشروهم . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

« وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

« قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » ولما توثقوا من فرعون

(١) [١٠ / يونس / ٣٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)

« قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ » أى أول من ألقى ، كما فى الآية الأخرى . قيل : خيروا موسى إظهارا للجلادة ، فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره . وقال الزمخشريّ : تخييرهم إياه أدب حسن ، راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا ، كلتناظرين قبل أن يتخاوضوا فى الجدال ، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا بالصراع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (قَالَ أَلْقُوا ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا

بِسِحْرِ عَظِيمٍ)

« قَالَ » أى : موسى لهم « أَلْقُوا » أى ما أنتم ملقون . وإنما سوغ لهم التقدم ازدراء لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، وثقة بما كان بصده من التأييد الإلهي ، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبدا « فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ » أى خيلوا لها ما ليس فى الواقع « وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ » أى وخوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر ، كما فى الآية الأخرى (١) : (فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْمَىٰ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ) « وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ » أى : فى باب السحر ، أو فى عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد عصاه ، فصارت العصي ثعابين .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآيات على أن القوم أتوا بما فى وسمهم من التويه ، وكان الزمان زمان سحر ، والغالب عليهم الاشتغال به ، فأتى موسى عليه السلام من جنس ما هم فيه ،

(١) [٢٠ / طه / ٦٦ و ٦٨] .

ما لم يقدر عليه أحد ، ليعلموا أنه معجز وليس بسحر . وهكذا ينبغي في المعجزات أن تكون من جنس ما هو شائع في القوم ، ويتعذر عليهم مثله . وكان الطب هو الغالب في زمن عيسى ، فجاء بإحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وليس ذلك في وسع طبيب . وكان الغالب في زمن نبيّنا عليه السلام الفصاحة والخطب والشعر ، فجاء القرآن ومُحَدِّثهم به . وتدل على أنهم بالحيل جعلوا الجبال والعصى متحركة ، حتى أوهموا أنها أحياء . ولكن لما وقف على أصل ما فعلوه وعُلم ، وكان مثله مقدورا لكل من يتعاطى صناعاتهم ، عُلِمَ أنه شعبذة . ولهذا تتفارق المعجزة والشعبذة ، أنه يوقف على أصلها ، ويمكن إثبات مثلها ، ويخفى أمرها ، بخلاف المعجزة .

ثم قال : وتدل على اعتراف فرعون بالذل والضعف ، حيث استغاث بهم وبمهمتهم لدفع مكروهه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ » أى تبتلع « مَا يَأْفِكُونَ » أى ما يلتقونه ويوهمون أنه حق ، وهو باطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) « فَوَقَعَ الْحَقُّ » أى ثبت الإعجاز « وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من السحر لإبطال الإعجاز .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَعَلِبُوءًا هُنَالِكَ وَاتَّقَلَبُوءًا صَغِيرِينَ) « فَعَلِبُوءًا هُنَالِكَ » أى في مكان الوعد الذى اجتمع فيه أهل مصر بدعوته ، لظنه غلبة السحرة « وَاتَّقَلَبُوءًا » أى رجعوا « صَغِيرِينَ » أى : ذليلين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ)

« وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ)

« رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ » .

قال الجشمي : دلت الآية على أن السحرة عرفوا أن أمر العصا ليس من جنس السحر ، فآمنوا في الحال . وتدل على أنهم بتلك الآيات استدلوا على التوحيد والنبوة ، لذلك اعترفوا بهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ

مَكْرُؤُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا » أى الصنع « لَمَكْرٌ »

أى حيلة « مَكْرُؤُهُ » أى دبرتموه أنتم وموسى « فِي الْمَدِينَةِ » أى فى مصر قبل الخروج للميعاد « لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » وعيد أجمله ثم فصله بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلْفٍ ثُمَّ لَّا تُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

« لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلْفٍ » أى من كل جانب ، عضواً مغايراً للآخر ،

كاليد من أحدهما ، والرجل من آخر .

قال الشهاب : (مِنْ خِلَافٍ) حال ، أى مختلفة . وقيل (مِنْ) تعليلية متعلقة بالفعل ،

أى لأجل خلافكم ، وهو بعيد .

« ثُمَّ لَا صَلِّبَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ » أى تفضيحاً لكم ، وتنكياً لأمثالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

« قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ » أى فلا نبالى بما تهددنا به ، لأنه هو الذى يقربنا

إلى من آمنا به ، فيحيينا بحياة خير من الحياة الدنيوية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ

عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

« وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا » أى ما تعيب منا

إلا الإيمان بآيات الله . أى وما عيبته وأنكرته هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ،

وأعظم المناقب ، فلا نعدل عنه طلباً لمرضااتك « رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » أى أفض علينا

صبراً واسماً لنثبت على دينك « وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ » أى ثابتين على الإسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

وَيَذَرُكَوْا إِلَهَتَكَ ، قَالَ سَنَقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَلَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)

« وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ » أى خوفاً من انقلاب الخلائق عليهم حين رأوا

السحرة جاهرُوا بالإسلام ، ولم يبالُوا بالتوعد « أَتَذَرُ » أى أترك « مُوسَى وَقَوْمَهُ وَ
لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » أى فى أرض مملكته بتغيير الناس عنك « وَيَذَرَكْ
وَأَهْلَهُتَكَ » الآلهة جمع (إله) ، بمعنى المعبود . وكان للمصريين آلهة كثيرة منها المسمى
(أو سيرس) وكانوا يعتقدون أن روحه توجد فى الثور المسمى (أيبس) ، فيعبودونه أيضاً ،
ويعبدون كثيراً من الحيوانات . وكانوا يعبدون الظلام أيضاً ، ويعبدون (بَمَلَزَ بوب)
صنم (عقرون) يعتقدون أن وظيفته طرد الذباب . وبالجملة فقد فاقوا كل من سواهم فى الضلال ،
فكانوا يسجدون للشمس والقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوام
وأذى حشرات الأرض . هكذا حكى عنهم بعض المدققين .

وقد ذكر الشهرستانى فى (الملل والنحل) أن فرعون كان أول أمره على مذهب
الصابئة ، ثم انحرف عن ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية ، إذ رأى فى نفسه قوة الاستعمال
والاستخدام . انتهى .

وتقدم فى سورة البقرة بيان مذهب الصابئة . فتذكر .

وقال بعضهم : إن كلمة (الآلهة) لفظة اصطلاحية عند العبرانيين ، يراد بها القضاة
والحكام الذين يقضون بأمر الله ، وأنها لو حلت على هذا ههنا ، لم يبعد ، ويكون المعنى :
ويترك وقضائك وذوى أمرك ، ويكون الغرض من ذكرهم معه تهويل الأمر ، وإلهاب قلب
فرعون على موسى ، وإثارة غضبه . وقد صرح غير واحد بوقوع ألفاظ من غير العربية فى
القرآن ، كما نقله السيوطى فى النوع الثامن والثلاثين من (الإتيقان) - انتهى - والأظهر
ما قدمناه أولاً . « قَالَ سَنَقْتُلُ » قرئ بالتخفيف والتشديد « أَبْنَاءَهُمْ » الولودين
« وَنَسْتَحْيِي » أى نستبقى « نِسَاءَهُمْ » أى للاستخدام « وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » أى
بالغلبة والقدرة عليهم ، ففعلوا بهم ذلك ، فشكا بنو إسرائيل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

« قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا » أى على أذا هم « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا » أى يعطيها « مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » يعنى أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم . وكان تعالى وعد موسى بأنه سيطرد المصريين من أرضهم ، ويهلكهم وينجى قومه من عذاب آل فرعون لهم .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآيات على أن قوم فرعون ، لما عجزوا عن موسى في آياته ، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى ، وأوهموه أن تركه فساد في الأرض ، وأنه عند ذلك أوعده . وذلك من أدل الدليل على نبوة موسى ، لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح في معجزته ، ولهذا قال مشايخنا : إن العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن ، التي في إيرادها إبطال أمر النبي ﷺ ، إلى القتال ، الذى لا يفيد ذلك - دلّ على عجزهم . وهكذا حال كل ضالّ مبتدع ، إذا أعيته الحجة ، عدل إلى التهديد والوعيد . وتدل على أن عند الخوف من الظلمة يجب الفرع إلى الله تعالى ، والاستمانة به ، والصبر . ولا مفرع إلا في هذين : وهو الانقطاع إلى الله تعالى بطلب المعونة في الدفع ، واللفظ له في الصبر . وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى ، وهى اتقاء الكبائر والمعاصي . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْئَلَكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

« قَالُوا » أى قوم موسى « أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا » أى فعلوا

بنا من الهوان والإذلال من قبل بمثتك وبعدها . ثم صرح لهم موسى بما رمز إليه من البشارة قبل « قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ » أى فرعون وجنوده « وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » أى فىرى السكائن منكم من العمل ، حسنه وقبيحه ، وشكر النعمة وكفرانها ، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم . ثم بين تعالى ما أحل لفرعون وقومه من الضراء ، لما تأبى عن إجابة موسى وإرسال قومه معه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ » أى بالجذب والتحط « وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أى يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر إلى أمر موسى . وذلك لأن الشدة ترقق القلوب ، وترغب فى الضراعة إلى الله تعالى .

قال الجشمى : تدل الآية على أن الشدة والبؤس قد يكونان لطفاً وصلاً فى الدين ، لذلك قال : (لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) . اهـ

ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن عليهم ، والشدائد ، لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَإِذَا جَاءَتْهُمْ أَحْسَنُهَا قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرُوا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) « فَإِذَا جَاءَتْهُمْ أَحْسَنُهَا » أى الصحة والخصب « قَالُوا لَنَا هَذِهِ » أى لأجلنا واستحقاقنا ، ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم ، فيشكروه على إناعامه « وَإِن تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ » شدة « يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ » أى يتشاءموا . وأصله (يتطيروا) . يعنى أنهم يقولون :

هذه بشؤمهم « أَلَا إِنَّمَا طَاسِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ » أى شدتهم، وما طار إليهم من القضاء والقدر، عند الله ، لا عند غيره ، أى من قبله تعالى « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن ما أصابهم من الله تعالى ، فيقولون ما يقولون ، مما حكى عنهم . ثم أخبر تعالى عن شدة تمرد فرعون وقومه وعتوهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)
« وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » أى بمصدقين بالرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا شَجِرِينَ)

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ » أى على آل فرعون . وأما قوم موسى فإلف تعالى بهم ، فلم ينلهم ولا محالهم سوء من الطوفان ولا غيره . والطوفان (لغة) هو المطر الغالب ، ويطلق على كل حادثة تطيف بالإنسان وتحيط به . فعمّ الطوفان الصحراء ، وأتلف عُشْبَهَا ، وكسر شجرها ، وتواصلت الرعود والبروق ، ونيران الصواعق فى جميع أرض مصر « وَالْجَرَادَ » فأكل جميع عشب أرض مصر والثمر ، مما تركه الطوفان ، حتى لم يبق شىء من ثمرة ولا خضرة فى الشجرة ، ولا عشب فى الصحراء « وَالْقُمَّلَ » فعمّ أرض مصر ، وكان على الناس والبهايم ، وهو بضم وتشديد ك (سَكَّر) صغار الذرّ ، أو شىء صغير بجناح أحمر . أو دوابّ صغار من جنس القردان ، أو الدبى الذى لا أجنحة له ، وهو الجراد الصغار .

قال أبو البقاء : (القمل) يقرأ بالتشديد والتخفيف مع فتح القاف وسكون اليم . قيل : هما لغتان . وقيل : هما القمل المعروف فى الثياب ونحوها ، والمشدد يكون فى الطعام - انتهى .

ورد ابن سيده ، وتبعه المجدى (القاموس) القول بأن المراد به قتل الناس . «وَالضَّفَاوِعَ» فصعدت من الأنهار والخلج والمناقع ، وغطت أرض مصر «وَالدَّمَ» فصارت مياه مصر جميعها دماً عبيطاً ، ومات السمك فيها ، وأنتنت الأنهار ، ولم يستطع المصريون أن يشربوا منها شيئاً «ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ» أى مبيّنات لايشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمة ، أو مفراقات بعضها إثر بعض . و (آيات) حال من المنصوبات قبل «فَأَسْتَكْبَرُوا» أى عن الإيمان ، فلم يؤمنوا موسى ، ورسّلوا معه بنى إسرائيل «وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ» أى عاصين كافرين .

قال الجسمى : تدل الآية على عناد القوم ، وإصرارهم على الكفر وجهلهم ، حيث عاهدوا فى كل آية يأتى بها على صدقه وإثبات العهد ، أنهم لا يؤمنون بها . وليس هذا عادة من غرضه الحق . وتدل على ذم من يرى الآيات ولا يتفكر فيها . وتدل على وجوب التدبر فى الآيات . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَحْمُسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ، لَنِ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ) «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ» أى نزل بهم العذاب المفصل «قَالُوا يَحْمُسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ» أى بعهده عندك ، وهو النبوة . ف (ما) مصدرية .

قال الشهاب : سميت النبوة عهداً ، لأن الله عهد إكرام الأنبياء بها ، وعهدوا إليه بحمل أعبائها ، ولأن لها حقوقاً تحفظ ، كما تحفظ العمود . أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالى - انتهى - .

«لَنِ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ» أى الذين أرسلت لطلبهم ، ليعبدوا ربهم تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى آجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)
 « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى آجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ » يعنى إلى الوقت الذى أَجَلَ لَهُمْ ،
 وهو وقت إهلاكهم بالفرق فى اليم « إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ » أى ينقضون العهد الذى التزموه ،
 فلم يفوا به . فإن فرعون كان كلما حلّ بمصر نقمة مما تقدم ، يدعو موسى ، ويطلب منه أن يشفع
 إلى الله تعالى بكشفها . ويَعِدُّهُ أنها إذا كشفت أطلق شعبه لعبادته تعالى ، حتى إذا كشفت
 أخلف ما وعد ، وقسا قلبه . ولما لم يتعظوا بما شاهدوه مما تقدم ، أتتهم النقمة القاضية ، كما
 قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (فَأَتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
 عَنْهَا غَافِلِينَ)

« فَأَتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » أى البحر « بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
 عَنْهَا غَافِلِينَ » أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم ، وعدم تفكيرهم
 ومبالاهم بها . وقد روى أن فرعون ، بعد أن أبصر ما أبصر من الضربات الربانية على مصر ،
 أذن لموسى وقومه أن يخرجوا من مصر ، ليقيموا عبادة الله تعالى حيث شاؤوا ، فارتحل بنو إسرائيل
 على عَجَلٍ لَيْلًا ، وساروا بكل ما معهم من غنم وبقر ومواشٍ ، من عين شمس إلى « سُكُوت »
 وسلكو طريق برية البحر الأحمر . ولما سمع فرعون بارتحالهم ، ندم على ما فعل ، من إطلاقهم
 من خدمته ، فجمع جيشه ومراكبه الحربية ، ولحقهم فأدركهم ، وكانوا قد وصلوا إلى شاطئ
 البحر الأحمر . حينئذ خاف الإسرائيليون ، وأخذوا يتذمرون على موسى ، فقال لهم :
 لا تخافوا ، إن الله معنا . ثم أمر تعالى موسى ، فد يده إلى البحر الأحمر ، فانشق ماؤه ، وصار
 فيه طريق واسعة ، وأرسل الله ريحاً شرقية شديدة ، فيمس قعره ، فعبر فيه الإسرائيليون ،

والماء عن يمينهم وشمالهم ، فقتلهم فرعون وجنوده وتوسطوا البحر ، فمد موسى يده ، ياذن الله ، على البحر ، فارتد ماءه سريعاً ، وغمر فرعون وجنوده ومراكبه ، ففرقوا جميعاً ، ثم طفت جيفهم على وجه الماء ، وانتقدت إلى الساحل ، فشاهدها الإسرائيليون عياناً . هذا ماخص ما روى هنا .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية أنه تعالى أهلكهم بعد أن أراح العلة بالآيات ، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة جزاء على فعلهم ، وتدل على قبح الاعتراض على آيات الله ، وتدل على وجوب النظر ، وتدل على أن النكث فعلهم والإعراض ، فلذلك عاقبهم عليهما . انتهى

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)

« وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ » أي بالاستعباد وقتل الأبناء . وفي التعبير عنهم بهذا ، إظهار لسكال لطفه تعالى بهم ، وعظيم إحسانه إليهم ، في رفعهم من حضيض المذلة إلى أوج العزة « مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا » أي الأرض المقدسة ، أي جوانبها الشرقية والغربية ، حيث ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالة ، وتصرفوا في أكنافها حيث شاءوا . وقوله تعالى « الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا » أي بالخصب وسمة الأرزاق « وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أي مضت واستمرت عليهم ، وهي وعده إياهم بالنصر والتمكين « بِمَا صَبَرُوا » أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه .

قال الزمخشري : وحسبك به حائثاً على الصبر ، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع ، وكله الله إليه . ومن قابله بالصبر ، وانتظار النصر ، ضمن الله له الفرج .
وعن الحسن : عجبت ممن خفّ كيف خفّ ، وقد سمع قوله تعالى - وتلا الآية - ومعنى (خفّ) طاش جزءاً وقلة صبر ، ولم يرزن أولى الصبر .

« وَدَمَّرْنَا » أى خربنا وأهلكنا « مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ » أى ما كانوا يعملون ويسوّون من العمارات وبناء القصور « وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ » (بكسر الراء وضمها) أى من الجنّات . أو ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة فى السماء ، كصرح هامان . وهذا كما قال تعالى (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) * وَنُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ^(١) . وقال تعالى (كَمْ تَرَ كُوفًا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْوُنٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) ^(٢) .

قال الزمخشري : وهذا آخر ما اقتص الله من نبأ فرعون والقبط ، وتكذيبهم بآيات الله ، وظلمهم ومعاصيهم . ثم أتبعه اقتصاص نبأ بنى إسرائيل ، وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مُلكة فرعون ، واستعباده ، ومعابنتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر : من عبادة البقر ، وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي ، ليعلم حال الإنسان وأنه ، كما وصفه ، (لَظَلُمُوا كُفَّارًا) ^(٣) جهول كنود ، إلا من عصمه الله (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِ الشُّكُورِ) ^(٤) وليسلى رسول الله ﷺ مما أرى من بنى إسرائيل بالمدينة ، فقال تعالى :

(١) [٢٨ / القصص / ٦٥] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٥ - ٢٨] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] . (٤) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) « وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ » أى الذى أغرق فيه أعداءهم ، وهو بحر القلزم (كقنفذ) ، بلد كان فى شرق مصر ، قرب جبل الطور ، أضيف إليه ، لأنه على طرفه ، ويعرف البلد الآن بـ (السويس) ومن زعم أن البحر هو نيل مصر ، فقد أخطأ ، كما فى (العناية) . « فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ » قرئ بضم الكاف وكسر ها « عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ » أى يواظبون على عبادتها وبلازمونها « قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا » أى صنما نمكف عليه « كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » أى أصنام يعكفون عليها « قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى شأن الألوهية وعظمتها ، وأنه لا يستحقها إلا الله وحده .

قال البغوى رحمه الله : ولم يكن ذلك شكاً من بنى إسرائيل فى وحدانية الله تعالى ، وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظمه ، ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى . وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة ، وكان ذلك لشدة جهلهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) « إِنَّ هَؤُلَاءِ »

يعنى عبدة تلك التماثيل « مُتَّبِعُونَ » أى مهلك « مَا هُمْ فِيهِ » أى من الشرك « وَكَانُوا يَعْمَلُونَ » أى عبادة الأصنام ، وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى ، فإنه كفر محض .

قال الرازى : أجمع كل الأنبياء ، عليهم السلام ، على أن عبادة غير الله تعالى كفر ، سواء اعتقد فى ذلك الغير كونه إلها للعالم ، أو اعتقد أن عبادته تقرب إلى الله تعالى ، لأن العبادة نهاية التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يصدر منه غاية الإنعام ، وهى بخلق الجسم والحياة والشهوة

والقدرة والعقل وخلق الأشياء المنتفع بها . والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن لا تليق العبادة إلا به . انتهى .

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه . أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حنين مرّ بشجرة للمشركين كانوا يعاقبون عليها أسلحتهم يقال لها (ذات أنواط) فقالوا : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى (أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) والذي نفسي بيده ! لتركبن سنن من كان قبلكم - أخرجه الإمام أحمد^(١) والترمذي^(٢) وابن جرير وغيرهم . وقال الإمام أبو بكر الطرطوشي المالكي : انظروا رحمكم الله أيما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ، ويمظمونها ، ويرجون البرء والشفاء من قبلها ، ويضربون بها السامير والخرق ، فهي ذات أنواط ، فاقطعوها .

وقال الحافظ أبو شامة الشافعيّ الدمشقيّ في كتاب (البدع والحوادث) : وقد عم الابتلاء بتزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعُمد ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه ، مع تضييعهم فرائض الله وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم ، فيعظمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم ، وقضاء حوائجهم ، بالندرج لها ، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر . ثم شرح شجرة مخصوصة فقال : ما أشبهها بذات أنواط ، التي في الحديث .

وروى ابن وضاح في كتابه قال : سمعت عيسى بن يونس يقول : أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويج تحتها النبي ﷺ فقطعت ، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، نخاف عليهم الفتنة . ولهذا البحث تنمة مهمة في (إغاثة اللهفان) لابن القيم . فلتنظر .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢١٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٣١ - كتاب الفتن ، ١٨ - باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« قَالَ » أى موسى ، مذكراً لقومه نعمه تعالى عليهم ، الموجبة لتخصيصه تعالى بالعبادة « أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا » أى أطلب لكم معبوداً . يقال : أبغاه الشيء طلبه له ، ك (بغاء إياه) ، يتعدى إلى مفعولين ، وليس من باب الحذف والإيصال . وفي الحديث ^(١) : ابغنى أحجاراً أستطيع بها ، بهزمة القطع والوصل . وقال الشاعر ^(٢) :

وكم أمل من ذى غنى وقرابة لتبغيه خيراً وليس بفاعل
والاستفهام فى الآية للإنكار والتعجب والتوبيخ « وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »
أى والحال ، أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَإِذْ أَجْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، يُقَتِّلُونَ

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)
« وَإِذْ أَجْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » أى : من فرعون وقومه « يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » أى يكفونكم إياه ، أو يولونكم إياه ، يقال : سامه الأمر يسومه ، كلفه إياه وجشمه وألزمه . أو أولاه إياه « يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » أى فنجاكم منه وحده ، من غير شفاعة أحد .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على أن هلاك الأعداء نعمة من الله يجب مقابلتها بالشكر . وتدل على أن المحن في الأولاد والأهل بمنزلة المحن في النفس ، ويجرى مجراه . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٢٠ - باب الاستنجاء بالحجارة ،

حديث رقم ١٢٦ . (٢) استشهد به في اللسان في مادة (ب غ ي) بالصفحة رقم ٧٦ من الجزء

الرابع عشر (طبعة بيروت) . قال : وبغيتك الشيء : طلبته لك . ومنه قول الشاعر . وساق البيت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِّمَّاتٍ رَبِّهِمْ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

« وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِّمَّاتٍ رَبِّهِمْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً »
روى أن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر ، نزلوا في برية طور سيناء ، وكانت مدة
خروجهم إلى أن نزلوا شهرا ونصفا . ولما نزلوا تلقاء الجبل ، صعد موسى إليه ، وسمع
كلامه تعالى وأوامره ووصاياه . ثم انحدر موسى إلى قومه ، وأعلمهم بما أمروا به ، وصاروا
يشاهدون على الجبل ضبابا ، وصوت رعود ، وبروقا . ثم أمر تعالى موسى أن يصعد إلى
الجبل ليؤتاه الشرائع التي كتبها على قومه . فصعد موسى الجبل ، وكان مغطى بالغمام ،
فدخل موسى في وسط الغمام وأقام في الجبل أربعين يوما ، لم يأكل ولم يشرب ، لِمَا أُمدَّ
من القوة الروحانية ، والتجليات القدسية ، وأوتى في برهتها الألواح التي كتبت فيها
شرائعهم ، ولما رجع إلى قومه ، كان على وجهه أشعة نور مدهشة ، فخافوا من الدنو منه ،
فجعل على وجهه برقما ، فكان إذا صعد الجبل المناجاة ، رفعه ، وإذا أنام وضعه . والله أعلم .
« وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ » أى حين توجه للمناجاة « أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي » أى :
كن خليفتي فيهم « وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » أى لا تتبع من سلك الإفساد ،
ولا تطع من دعاك إليه .

تنبیه :

قال الجسمي : تدل الآية على أنه استخلف هرون عند خروجه ، لما رأى أنهم أشد
طاعة له ، وأكثر قبولا منه ، ومحاطبات موسى عليه السلام لهرون وجوابه له كقوله :

(أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) ^(١) وقول هرون (لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي) ^(٢) (فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ) ^(٣) كل ذلك كالدال على أن موسى كان يختص بنوع من الولاية ، وإن اشتركا في النبوة . والظاهر أنه استخلفه إلى أن يرجع ، لأنه المعقول من الاستخلاف عند الغيبة . وتدل على أنه يجوز أن ينهاء عن شيء يعلم أنه لا يفعله ، ويأمره بما يعلم أنه سيفعله ، عظة له ، واعتباراً لغيره ، وتأكيداً ومصلحة للجميع . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ وَقَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

«وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا» أى حضر الجبل لوقتنا الذى وقتناه وحددنا «وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ» أى خاطبه من غير واسطة ملك «قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي» أى لن تطبق رؤيتي ، لأن هذه البنية الآدمية فى هذه النشأة الدنيوية ، لا طاقة لها بذلك ، لعدم استعدادها له . بل ماهو أكبر جرماً ، وأشد خلقاً وصلابة - وهو الجبل - لا يثبت لذلك ، بل يندك . ولذا قال تعالى (وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ) أى الذى هو أقوى منك (فَإِنِ اسْتَقَرَّ) أى ثبت مكانه ، حين أتجلى له ، ولم يترزّل (فَسَوْفَ تَرَانِي) ، أى تثبت لرؤيتي ، إذا تجليت عليك ، وإلا فلا طاقة . وفيه من التلطيف بموسى ، والتكريم له ، والتنزل القدسى - ما لا يخفى «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» أى : ظهر له وبأن - قاله الزجاج - «جَعَلَهُ دَكًّا» أى : التجلى «دَكًّا»

(١) [٢٠ / طه / ٩٣] . (٢) [٢٠ / طه / ٩٤] . (٣) [٧ / الأعراف / ١٥٠] .

أى مفتتاً ، فلم يستقر مكانه . فنبه تعالى على أن الجبل ، مع شدته وصلابته ، إذا لم يستقر ، فالأدى مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر . وفيه تسكين لفؤاد موسى ، بأن المانع من الانكشاف الإشفاق عليه ، وأما أن المانع محالية الرؤية ، فليس في القرآن إشارة إليه « وَخَرَّ » أى وقع « مُوسَى صَعِقًا » أى مغشياً عليه من هول ما رأى « فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ » أى من الإقدام على سؤال الرؤية « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » أى بأنه لا يستقر لرؤيتك أحد في هذه النشأة .

قال في (الانتصاف) : إنما سبّح موسى عليه السلام لِمَا تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا ، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف في خبره الحق وقوله الصدق . فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم ، سبّح الله ، وقدم علمه وخبره عن الخلف . وأما التوبة في حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب ، لأن منصبهم الجليل ينبئ أن يكون منزلها مبرأً من كل ما ينحط به . ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل . وقد ورد : (سيئات المقربين ، حسنات الأبرار) .
تنبيه :

قال المتكلمون : دلت الآية على جواز رؤيته تعالى من وجهين :

الأول - أن سؤال موسى عليه السلام الرؤية يدل على إمكانها . لأن العاقل ، فضلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يطلب المحال . ولا مجال للقول بجهل موسى عليه السلام بالاستحالة ، فإن الجاهل بما لا يجوز على الله ، لا يصلح للنبوة . إذ الغرض من النبوة هداية الخلق إلى العقائد الحقّة ، والأعمال الصالحة . ولا ريب في نبوة موسى عليه السلام ، وأنه من أولى العزم .

الثاني - أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل ، وهو أمر ممكن في نفسه . والملق على الممكن ممكن ، لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به . والمحال لا يثبت على شيء من التقادير الممكنة .

وأما زعم المعتزلة أن الرؤية مجاز عن العلم الضروري ، فمعنى قوله : (أَرِنِي) أى : اجعلنى عالماً بك علماً ضرورياً - خلاف الظاهر . فإن النظر الموصول بـ (إلى) نص فى الرؤية البصرية فلا يترك بالاحتمال ، مع أن طلب العلم الضرورى لمن يخاطبه ويناجيه غير معقول . وكذا زعمهم أن موسى عليه السلام ، كان سألها لقومه ، حيث قالوا ^(١) : (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) ، فسأل ليماموا امتناعها - فإنه خلاف الظاهر ، وتسكف يذهب رونق النظم ، فترده ألفاظ الآية . وقد ثبت وقوع رؤيته تعالى فى الآخرة ، بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فلقوله تعالى ^(٢) : « وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » ؛ وأما السنة فلا تحصى أحاديثها ولكن إذا أصيب أحد بداء المكابرة فى الحق الصراح ، عسر إقناعه مهما قوى الدليل وعظمت الحجة .

قال فى فتح البيان : رؤيته تعالى فى الآخرة ، ثبتت بها الأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة . والجدال فى مثل هذا والمراوغة لا تأتى بفائدة . ومنهج الحق واضح . ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه ، وأدرك عليه أباه ، وأهل بلده ، مع عدم التنبيه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة - يوقع فى التعمص . والتعصب ، وإن كان بصره صحيحاً ، فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق ، غفلة منه ، وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم . وما أقل المنصفين بمد ظهور هذه المذاهب فى الأصول والفروع ، فإنه صار بها باب الحق مرتجأً ، وطريق الإنصاف مستوعرة ، والأمر لله سبحانه والهداية :

يَأْتِي الْفَتَىٰ إِلَّا اتَّبَعَ الْهُوَىٰ وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحٌ

- انتهى - .

وهذا تعريض بالمعتزلة ، وفى مقدمتهم الزمخشري . وقد انتقل ، عفا الله عنه ، أخيراً إلى

(١) [٢ / البقرة / ٥٥] . (٢) [٧٥ / القيامة / ٢٢ و ٢٣] .

هجاء أهل السنة بما أنشده :

لِجَمَاعَةٍ سَمَوْا هَوَاهُمْ سَنَةً وَجَمَاعَةً حُمِرُ لَعْمَرِي مُوَكَّفَةً
قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا شُنْعَ الْوَرَى فَتَسَتَّرُوا بِالْبَلْكَفَةِ
وَالْبَلْكَفَةِ نَحْتُ ، كالبسمة ، أى بقولهم (بَلَا كَيْفَ) .

قال فى (الانتصاف): ولولا الاستئذان بحسّان بن ثابت الأنصارى، صاحب رسول الله ﷺ وشاعره ، والمنافع عنه ، وروح القدس معه ، لقلنا لهؤلاء المتلقين بـ (العديلة) وبـ (الناجين) سلاماً ، ولكن كما نافع حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه ، فنحن ننافع عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم ، فنقول :

وَجَمَاعَةٌ كَفَرُوا بِرُؤْيَا رَبِّهِمْ حَقًّا وَوَعَدُ اللَّهِ مَا لَنْ يُخْلِفَهُ
وَتَلَقَّبُوا عَدْلِيَّةً . قُلْنَا : أَجَلُ عَدَلُوا بِرَبِّهِمْ . فَحَسْبُهُمْ سَفَهُ
وَتَلَقَّبُوا النَّاجِينَ . كَلَّا ! إِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَكُونُوا فِي لُطَى فَعَلَى شَفَهُ
وقال أبو حيان فى الرد عليه :

شَبَّهَ جَهْلًا صَدْرَ أُمّةِ أَحْمَدٍ وَذَوَى الْبَصَائِرِ بِالْخَيْرِ الْمُوَكَّفَةِ
وَجَبَّ الْخَسَارُ عَلَيْكَ . فَانْظُرْ مَنْصَفًا فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ فَهِيَ الْمُنْصِفَةُ
أَنْتَرَى الْكَلِمَةَ أَتَى بِجَهْلٍ مَا أَتَى وَأَتَى شَيْوُخُكَ مَا أَتَوْا عَنْ مَعْرِفَةِ
إِنَّ الْوُجُوهَ إِلَيْهِ نَازِرَةٌ . بَذَا جَاءَ الْكِتَابُ . فَقُلْتُمْ : هَذَا سَفَهُ
نَطَقَ الْكِتَابُ وَأَنْتَ تَنْطِقُ بِالْهَوَى فَهَوَى الْهَوَى بِكَ فِي الْمَاهَوَى الْمُتَلَفَةِ
وقال العلامة الجاربردى :

عَجَبًا لِقَوْمٍ ظَالِمِينَ تَسَتَّرُوا بِالْعَدْلِ . مَا فِيهِمْ لَعْمَرِي مَعْرِفَةُ
قَدْ جَاءَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَهُ تَعْطِيلُ ذَاتِ اللَّهِ مَعَ نَفْيِ الصِّفَةِ

وقد ساق السبكيّ فى (طبقاته) فى ترجمة الجاربردىّ عدة قصائد ومقاطيع فى الردّ عليه .

ثم ذكر الله تعالى أنه خاطب موسى باصطفائه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أُصْطَفِيتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي
فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ)

« قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أُصْطَفِيتُكَ عَلَى النَّاسِ » أى اخترتك على أهل زمانك، وآثرتك عليهم « بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي » أى: وبكلامي إياك « فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ » أى ما أعطيتك من شرف النبوة والمناجاة « وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ » أى على النعمة فى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ، سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

« وَكَتَبْنَا لَهُ وَفِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » من الحلال والحرام « فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ » أى بعزم على العمل بما فيها « وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا » أى بما أمروا به دون ما نهوا عنه « سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ » وهى الأرض التى وعدوا بها من فلسطين ، فإنهم لم يعطوها إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر ، وبقائهم فى البرية . فإن موسى عليه السلام ، لما مات ، خلفه يشوع بن نون ، فخارب الأمم والملوك الذين كانوا يسكنون أرض كنعان ، وفتح بلادهم ، وصارت ملكاً للإسرائيليين .

تنبيه :

قال الجشمى ^(١) : تدل الآية على حدوث كلامه ، لأن قوله (أُصْطَفِيتُكَ) أى اختصصتك به ، ولو كان قديماً لكان موسى وغيره سواء ، ولما صح الاختصاص . ويدل (١) لاتنس قول المؤلف رضى الله عنه ، لما ساق أول ما نقله من كتاب (التهذيب) عن مؤلفه الجشمى ، لاتنس ما قاله بالصفحة رقم ٢٦٣٥ . ونصه (وهو جار على أصول المعتزلة) وهذا من هذا . فتنبه .

قوله (وَكَتَبْنَا) أنه أعطاه التوراة مكتوبة في الألواح عند الميقات، لتكون محروسة، وليبلغه الحاضرون إلى الباقيين ، ليقع لهم العلم ضرورة . ويدل على أن في التوراة شرائع ، وجميع ما يحتاج إليه . ويدل قوله (بِقُوَّةٍ) أن العبد قادر على الفعل قبل الفعل ، وأنه يفعل بقدرته . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ» أى سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي ، قلوب المتكبرين عن طاعتي ، والمتكبرين على الناس . أى فكما استكبروا أذهم الله بالجهل ، كقوله تعالى (وَنَقَلُبُ أَقْدَانَهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِهِمْ) وقوله تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) (٢) . وقوله تعالى « بِغَيْرِ الْحَقِّ » إما صلة للفعل ، أى يتكبرون بما ليس بحق ، وهو دينهم الباطل . أو حال من فاعله ، أى يتكبرون غير محقين « وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ » أى حجة من الآيات والحجج المنزلة عليهم « لَا يُؤْمِنُوا بِهَا » تكبراً عليها « وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ » يعنى طريق الحق والهدى والاستقامة واضحاً ظاهراً « لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » لمنافاته أهويتهم « وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ » أى الضلال عن الحق والهلاك « يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » أى طريقاً يميلون إليه « ذَلِكَ » أى الصرف عن الآيات ، أو اتخاذهم الغى سبيلاً « بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » أى : لاهين لا يتفكرون فيها ، ولا يتعظون بها . أو غافلين عما ينزل بهم من مخافة الرسل . ثم بين وعيد المكذبين بقوله :

(١) [٦ / الأنعام / ١١٠] . (٢) [٦١ / الصف / ٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ » أى القيامة، وهى الكثرة الثانية. سميت (آخرة) لتأخرها عن الدنيا « حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ » أى بطلت ، فلم تعقب ثمراً . والمراد جزاء أعمالهم ، لأن الحابط إنما يصح في المنتظر ، دون ما تقضى ، وهذا كقوله (لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ)^(١) « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى إلا جزاء عملهم من التكفر والمعاصى .

تنبيه :

ذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ) الخ كلام مع قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متصل بما سبق من قصصهم ، وهو (أَوَلَمْ يَهْدِ ...) الخ . وإيراد قصة موسى وفرعون للاعتبار .

وقال الكعبى وأبو مسلم الأصمها نى : إن هذا الكلام تام لما وعد الله موسى عليه السلام به من إهلاك أعدائه . ومعنى صرفهم إهلاكهم ، فلا يقدرّون على منع موسى من تبليغها ، ولا على منع المؤمنين من الإيمان بها ، وهو شبيه بقوله : (بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ)^(٢) فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى عليه السلام من إيذائه ، ومنعه من القيام بما يلزمه فى تبليغ النبوة والرسالة . انتهى . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خَوَارِ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) « وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خَوَارِ » يخبر تعالى عن

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٦] . (٢) [٥ / المائدة / ٦٧] .

ضلال من ضل من بنى إسرائيل ، في عبادتهم العجل الذى اتخذهم لهم السامرى من حلى القطب ، الذى كانوا استعماروه منهم ، فشكل لهم منه عجلاً ، جسداً لا روح فيه . وقد احتال بإدخال الريح فيه ، حتى صار يسمع له خوار ، أى صوت كصوت البقر . وإنما أضاف الصوت إليه ، لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه . وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور ، حيث يقول إخباراً عن نفسه الكريمة (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)^(١) .

لطائف :

قال الزخشرى : فإن قلت : لم قيل (وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ... عِجْلاً) والمتخذ هو السامرى ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما - أن ينسب الفعل إليهم ، لأن رجلاً منهم باشره ، ووُجد فيما بين ظهرانيهم ، كما يقال : (بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا) والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا مرادين لاتخاذ ، راضين به ، فكانهم أجمعوا عليه .

والثانى - أن يراد : واتخذوه إلهاً وعبدوه . فإن قلت : لم قال (مِنْ حُلِيِّهِمْ) ولم يكن الحلى لهم ، إنما كانت عوارى في أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابس ، وكونها في أيديهم عوارى ، كفى به ملابس . على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين ، كما قال تعالى : (وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ)^(٢) انتهى .

قال النسفى : وفيه دليل على أن من حلف أن لا يدخل دار فلان ، فدخل داراً استعمارها ، يحنث . وأن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها - انتهى .
والحلى بضم الحاء والتشديد ، جمع « حَلَى » بفتح فسكون ، كـ (ثَدَى وَثَدَى) وهو اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة .

(١) [٢٠ / طه / ٨٥] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٥٩] .

وقوله « تعالى : أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا » تقرّيع على فرط ضلالهم وإخلاقهم بالنظر . والمعنى : ألم يروا ، حين اتخذوه إلهًا ، أنه لا يقدر على كلام ، ولا على إرشاد سبيل ، كما حاد البشر ؟ فهو جاد لا ينفع ولا يضر . فكيف يكون إلهًا ؟
وقوله تعالى « اتَّخَذُوهُ » تكرير لتأكيد الذم ، أى : اتخذوه إلهًا وعبدوه . « وَكَانُوا ظَالِمِينَ » أى : واضعين الأشياء فى غير مواضعها . والجملة إما استثنائية ، أو اعتراض تذييل للإخبار بأن ذلك دأبهم وعادتهم قبل ذلك ، فلا ينكر هذا منهم . أو حالية ، أى : اتخذوه فى هذه الحالة المستقرة لهم .

تنبيه :

قال الحشمى : تدل الآية على صحة الحجاج فى الدين ، وأنه تعالى دلهم ، فى بطلان اتخاذ العجل إلهًا ، بأنه لا يتكلم ولا يهدى . وإنما ذكر الكلام لأن الحوار تنفذ فيه الخيلة ، ولا تنفذ فى الكلام . وتدل على أن إزالة الشبه فى الدين واجب ، كما أزالتها الله تعالى . وتدل على أن القوم كانوا جهلاً غير عارفين حقيقة الأشياء ، لذلك عبدوا العجل . وتدل على أن تلك الخلق كانت ملكاً لبني إسرائيل ، لذلك قال (حُلِيِّهِمْ) . فإن ثبت أنهم استعاروه ، فيدل على زوال ملكهم ، وانتقال الملك إلى بنى إسرائيل ، كما تملك أموال أهل الحرب . وتدل على أن الاتحاد فعلهم ^(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ » أى : ندموا على عبادة العجل « وَرَأَوْا » أى علموا وأيقنوا « أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا » أى : عن الحق والهدى « قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا » أى بقبول توبتنا « وَيَغْفِرْ لَنَا » أى : ما قدمنا من عبادة العجل « لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى : بالعقوبة .
أى : ممن خسروا أعمالهم وأعمارهم .

(١) انظر : الصفحة رقم ٢٨٥٤ ، الحاشية رقم (١) .

لطيفة :

يقال للنادم على ما فعل ، الحَسِرَ على ما فَرَطَ منه (قد سَقِطَ في يده) و (أُسْقِطَ)
مضمومتين - قاله الزجاج - .

وقال الفراء : يقال سَقِطَ في يده وأسقط ، من الندامة ، و (سَقِطَ) أكثر وأجود .
وأنكر أبو عمرو (أسقط) بالآف ، وجوزه الأخفش .

قال الزخشي : من شأن من اشتد ندمه وحسرتة ، أن يعض يده غمًّا ، فتصير يده
مسقوطةً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

وقال الزجاج : معناه : سقط الندم في أيديهم ، أى في قلوبهم وأنفسهم . كما يقال : حصل
في يده مكروه ، وإن كان محالاً أن يكون في اليد ، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس ، بما
يحصل في اليد ، ويرى بالعين - انتهى - .

وقال الفارسي : أى : ضربوا أكفهم على أكفهم من الندم . فإن صح ذلك فهو إذن
من السقوط .

وفي (الباب) : هذا نظم لم يسمع به قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ، والأصل فيه
نزول الشيء من أعلى إلى أسفل ، ووقوعه على الأرض ، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام
(سقط) لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه ، فيسقط . وذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب ،
وأثره يظهر في اليد ، كقوله تعالى (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا)^(١) ولأن اليد
هي الجارحة العظمى ، فربما يسند إليها ما لم تبشره ، كقوله تعالى (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ)^(٢)
- انتهى - .

وعليه ، فيكون (سَقِطَ) من السقاط ، وهو كثرة الخطأ كما قال :
كيف يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَ مَا لَفَعَ الرَّأْسَ بِيَاضٍ وَصَلَعَ
وقيل : من عادة النادم أن يطأطأ رأسه ، ويضعه على يده ، معتمداً عليه ، وتارة

(١) [١٨ / السكف / ٤٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٠]

يضعها تحت ذقنه ، وشطر من وجهه على هيئة لو زعت يده لسقط على وجهه ، فكانت اليد مسقوطاً فيها ، لتسكن السقوط فيها . ويكون قوله (سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) بمعنى سقط على أيديهم ، كقوله (وَلَا صَلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ) ^(١) أى عليها . و (سُقِطَ) عده بعضهم من الأفعال التي لا تتصرف ، كـ (نِعِمَّ وَبِئْسَ) . وقرئ (سَقَطَ) معلوماً ، أى الندم ، أو العض ، أو الخسران ، وكله تنثيل . وقرئ (أُسْقِطَ) رباعى مجهول ، وهى لغة نقلها الفراء والزجاج ، كما قدمنا .

ثم بين تعالى ما جرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقاب . وكان أعلمه تعالى بفتنة قومه . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ، وَأَتَى الْأُلُوحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا » أى : شديد الغضب على قومه لعبادتهم العجل ، وحزيناً أى على ما فاته من مناجاة ربه « قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي » أى بئسما عملتم خلقى ، أو قتم مقامى ، وكفتم خلفائى من بعدى . والخطاب إما لعبدة العجل ، من السامريّ وأشياعه . أو لوجوه بنى إسرائيل ، وهم هرون عليه السلام والمؤمنون معه . وبدل عليه قوله (أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي) ^(٢) ، وعلى التقدير الأول يكون المعنى : بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى - قاله الرازى « أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ » أى : ميعاده الذى

(١) [٢٠ / طه / ٧١] . (٢) [٧ الأعراف / ١٤٢] .

وعنديه من الأربعين ، فلم تصبروا إلى تمامها . وكانوا استبطأوا نزوله من الجبل ، فتآمروا في صنع وثن يعبدونه ، وينضمون إليه ، وفعلوا ذلك ، وجعلوا يغفون ويرقصون ويأكلون ويشربون ويلعبون حوله ويقولون : هذا الإله الذي أخرجنا من مصر - عياداً بالله - . وقال أبو مسلم : معناه سبقتم أمر الله ، فعبدتم ما لم يأمركم به « وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ » أى طرحها من شدة الغضب ، وفرط الضجرة ، بين يديه فتكسرت . وهى ألواح من حجارة كتب فيها الشرائع والوصايا الربانية . وإنما ألقاها ، عليه السلام ، لما لحقه من فرط الدهش عند رؤيته عكوفهم على العجل . فإنه ، عليه السلام ، لما نزل من الجبل ، ودنا من محلهم ، رأى العجل ورقصهم حوله ، انتقد غضبه فألقاها غضباً لله ، وحمية لدينه . وكان هو فى نفسه حديداً ، شديد الغضب . وكان هرون ألبن منه جانباً ، ولذلك كان محبباً إلى قومه .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : استدلل ابن تيمية بقوله تعالى (وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ) على أن من ألقى كتاباً على يده ، إلى الأرض ، وهو غضبان ، لا يلام - انتهى - وهو ظاهر . « وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ » أى بشعره « يَجْرُهُوْا إِلَيْهِ » ظناً أن يكون قصر فى نهيمهم ، كما قال فى الآية الأخرى (قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَبْتُؤُمْ لَا تَأْخُذُ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي) (١) . وقال ههنا : « قَالَ ابْنُ أُمِّ قُرَيْشٍ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ ، وَأَصْلُهُ يَا ابْنَ أُمِّى ، خُفِّفْ بِحَذْفِ حَرْفِ النِّدَاءِ وَالْيَاءِ ، وَذَكَرَ الْأُمِّ لِيَرْقَهُ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي » إزاحة لتوهم التقصير فى حقه . والمعنى : بذلتُ وسعى فى كفهم حتى قهروني واستضعفوني ، وقاربوا قتلى « فَلَا تُشْمِتْ بِنِى الْأَعْدَاءَ » أى بالإساءة إلى . والشامة سرور الأعداء بما يصيب المرء « وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى فى عقوبتك لى ، فى عدادهم . أولاً تعتقد أنى منهم ، مع براءتى وعدم تقصيرى .

(١) [٢٠ / طه / ٩٢-٩٤] .

قال الجشمي : تدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط في حال الخوف على النفس ، وفي الحال الذي يعلم أنه لا ينفع . لذلك قال هرون (اُسْتَضْعَفُونِي) . وتدلل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود في الدين . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (يَقَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ » أي موسى عليه السلام ، متضرعاً إلى ربه ، استنزلاً لرحمته ، وتعوذاً بشفاعته من سخطه . ولا يخفى اقتضاء المقام لذلك « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » وقال الزمخشري : لما اعتذر إليه أخوه ، وذكر له شماتة الأعداء قال (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي) ليرضى أخاه ، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه ، فلا تتم لهم شماتتهم . واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة ، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ » أي من افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرسالة على كتفيه كما قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هلمجت بهم البغال ، وطققت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ) قال : هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة . وقال سفيان ابن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل . ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل التوبة من أي ذنب كان ، ولو كفرًا بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا » إلى الله « وَءَامَنُوا » أى أخلصوا الإيمان « إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : محمّاء لذنوبهم . منعم عليهم بالجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ، وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

« وَلَمَّا سَكَتَ » أى سكن « عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ » أى التى كان ألقاها من شدة الغضب فتكسرت « وَفِي نُسْخَتِهَا » أى فى نسخ منها ، أى كتب . (والنسخة) فعلة بمعنى مفعول ، كالخطبة « هُدًى وَرَحْمَةٌ » بالشرائع والوصايا الربانية ، المرشدة لما فيه الخير والصلاح « لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » أى يخشون .

لطيفتان :

الأولى - قال أبو السعود : فى هذا النظم الكريم ، يعنى قوله تعالى (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) ، من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب ، الحامل له على ماصدر عنه من الفعل والقول ، منزلة الأمر بذلك ، الغرى عليه ، بالتحكم والتشديد ، والتعبير عن سكونه بالسكوت - مالا يخفى . انتهى .

وأصله للزخشرى حيث قال : هذا مثَلٌ . كأن الغضب كان يغريه على مافعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء . ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم ، وذوق

صحيح - إلا لذلك ؛ ولأنه من قبيل شعب البلاغة . وإلا ، فما لقراءة معاوية بن قرة (وَلَمَّا سَكَنَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرَقاً من تلك الروعة ؟ انتهى .

ومراد بالمثل كونه استعارة مكنية ، حيث شبه الغضب بشخص أمرٍ ناهٍ ، وأثبت له السكوت تخيلاً .

وعدّ بعض أهل العربية الآية من المقلوب ، أى من غط قلب الحقيقة إلى المجاز ، وكان الأصل (وَلَمَّا سَكَتَ مُوسَى عَنِ الْغَضَبِ) كما فى خرق الثوب المسار .

قال فى (الانتصاف) والتحقيق أنه ليس منه ، وأن هذا القلب أشرف وأفصح ، لما فيه من المعنى البليغ ، وهو أن الغضب كان متمكناً من موسى ، حتى كأنه كان يصرفه فى أمره . ومثل هذه النكتة الحسناء ، لا تلى فى (خرق الثوب المسار) . انتهى .

وقرى سكن وسَكَتَ وأسكت ، أى أسكته الله ، أو أخوه باعتذاره إليه .

الثانية - اللام فى (للذين) متعلقة بمحذوف ، صفة (لرحمة) أى كائنة لهم . أو هى لام الأجل ، أى هدى ورحمة لأجلهم : واللام فى (لربهم) لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّبِّ يَافِعِينَ)^(١) أو هى أيضاً لام العلة ، والمفعول محذوف . أى يرهبون المعاصى لأجل ربهم ، لا للرياء والسمعة . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِّمِيقَتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّيَّ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ،

أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

«وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِّمِيقَتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ

(١) [١٢ / يوسف / ٤٣] .

شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُكُمْ إِنَّمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِمَّا « روى محمد بن إسحاق أن موسى عليه السلام ، لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامريّ ما قال ، وحرّق العجل ، وذراه في اليمّ ، اختار من بني إسرائيل سبعين رجلاً ، الخيّر فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله ، فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا ، وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم ، فقال له السبعون - فيما ذكر لي - حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا معه للقاء ربه ، لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعّل . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبل كلّهُ ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، ف ضرب دونه بالحجاب . ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقموا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، افعّل ولا تفعل ، فلما فرغ إليه من أمره ، وانكشف عن موسى الغمام ، أقبل إليهم ، فقالوا لموسى : (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ) ^(١) وهي الصاعقة التي يحصل منها الاضطراب الشديد ، فاتوا جميعاً ، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي) قد سفهوا ، أهلك من ورأى من بني إسرائيل؟

وفي رواية السديّ : فقام موسى يبكي ويقول : يا رب ! ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم ، وقد أهلك خيارهم ، (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلُ وَإِنِّي) .

وقال ابن إسحق : اخترت منهم سبعين رجلاً ، الخيّر فالخير ، أرجع إليهم ، وليس معي رجل منهم واحد ، فما الذي يصدقوني أو يأمنوني عليه بعد هذا ؟ وعلى هذا فالعنى : لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يهتمونني .

وقال الزجاج : المعنى لو شئت أمتهم من قبل أن تبليهم ، بما أوجب عليهم الرجفة . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٥٥] .

قال ابن القيم في (إغاثة اللهيان) بعد نقل كلام من ذكرنا : وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود ، والذي يظهر - والله أعلم بمراده ومراد نبيه - أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه ، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل ، حتى عبد قومهم العجل ، ولم ينكروا عليهم . يقول موسى : إنهم قد تقدم منهم ما يقتضى هلاكهم ، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ، ولم تهلكهم ، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل . وهذا كمن واخذه سيده بجرم يقول : لو شئت واخذتني قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم ، ولكن وسعني عفوك أولاً ، فليسعني اليوم . ثم قال نبي الله : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ فقال ابن الأنباري وغيره : هذا استفهام على معنى الجحد ، أى لست تفعل ذلك . والسفهاء هنا عبدة العجل . قال الفراء : ظن موسى أنهم أهلوكوا باتخاذ قومهم العجل ، فقال : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ وإنما كان إهلاكهم بقولهم (أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) . انتهى . واستظهار أن هذا استفهام استعطاف ، سبقه إليه المبرّد .

تنبيه :

قال في (اللباب) : معظم الروايات أنهم ماتوا بسبب تلك الرجة ، أى ثم أُحيوا . وقال وهب بن منبه : لم تكن تلك الرجة موتاً ، ولكن القوم لما رأوا تلك الهيأة ، أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا ، حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك ، راحهم وخاف عليهم الموت ، واشتد عليه فقدّم ، وكانوا له وزراء على الخير ، سامعين له مطيعين ، فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه ، فكشف الله عنهم تلك الرجة ، فاطمأنوا وسمعوا كلام الله . والله أعلم .

« إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ » أى مالفطنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك فأنت ابتليتهم وامتحانهم ، فالأمر كله لك وبيدك . لا يكشفه إلا أنت . كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت . فنحن عائدون بك

منك ، ولا جئون منك إليك . يعنى إن الأمر إلا أمرك ، والحكم إلا لك ، فما شئت كان ،
تضل من تشاء ، وتهدى من تشاء .

قال الواحدى : هذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية ، التى لا يبقى لهم معها عذر .
« أَنْتَ وَلَيْنَا » أى متولى أمورنا القائم بها « فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ ،
قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

« وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً » أى أثبت لنا فيها خصلة حسنة ، كالإحسان ،
والحياة الطيبة ، والتوفيق للطاعة « وَفِي الْآخِرَةِ » أى حسنة أيضاً ، وهى المثوبة الحسنی
والجنة . « إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ » أى تبنا إليك . يقال : هاد إليه يهود ، إذا رجع وتاب ،
فهو هائد . ولبعضهم : ياراك الذنب هُذْ ، هُذْ واسجد كأنك هُذْ
وقال آخر : * إني امرؤ مما جَنَيْتُ هَائِدُ *

قال أبو البقاء : المشهور ضم الهاء ، وهو من (هاد يهود) إذا تاب . وقرئ بكسر ها ،
من (هاد يهيد) إذا تحرك أو حرك ، أى حركنا إليك نفوسنا ، وعلى القراءتين ، يحتمل
الوجهين ، البناء للفاعل والمفعول ، بمعنى ملنا أو أملنا غيرنا ، أو حركنا أنفسنا ،
أو حركنا غيرنا ، وذلك لاتحاد الصيغة وصحة المعنى ، وإن اختلف التقدير .

« قَالَ » استئناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : فإذا قال تعالى
فى جواب دعاء موسى ؟ فقيل قال « عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ » أى تعذيبه من العصاة
« وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » تطلق الرحمة على التعطف والغفرة والإحسان والجنة ،

كما قال تعالى (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) ^(١) ولعلها هي المراد هنا ، بدليل مقابلتها بـ (العذاب) قبل ، كقابل الآية التي ذكرناها بقوله (وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) ^(٢) والله أعلم . « فَسَاءَ كُتُبُهَا » أي هذه الرحمة « لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أي الكفر والشرك والفواحش « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » أي يعطون زكاة أموالهم « وَالَّذِينَ هُمْ بِسَاءِ يَتَنَّا » أي بكتابتنا ورسولنا « يُؤْمِنُونَ » أي يصدقون .

تنبيه :

قال الجسمي : تدل الآية على حسن سؤال نعيم الدنيا ، كما يحسن سؤال نعيم الآخرة ، وتدل على أن الواجب على الداعي أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص ، لذلك قالوا (إِنَّا هُدْنَاهُ إِلَيْكَ) . وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر ، ويخص بالثواب المؤمن ، فلذلك فصل . ومن تأمل هذا السؤال والجواب ، عرف عظيم محل هذا البيان ، لأنه عليه السلام ، سأل نعيم الدنيا والدين عقيب الرقة ، فكان من الجواب أن العذاب خاصة بصاب به من يستحقه ، فأما النعم فما كان من باب الدنيا يسع كل شيء يصح عليه التمتع ، وما كان من باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها . وتدل على أن الرحمة لا تقال بمجرد الإيمان الذي هو التصديق ، حتى ينضم إليه الطاعات ، فيبطل قول المرجئة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَلَصَّوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ - أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« الَّذِينَ » بدل من الموصول الأول ، بدل السكل ، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣١] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣١] .

عليه، أى أعنى الذين أو هم الذين «يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» أى الذى أرسل إلى الخلائق لتكميلهم «النَّبِيَّ» أى الذى نبى بأكل الاعتقادات والأعمال والأخلاق والأحوال والمقامات من جهة الوحي «الْأُمِّيَّ» أى الذى لم يحصل علماً من بشر «الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا» أى باسمه (محمد وأحمد) ونعوته «عِنْدَهُمْ» زيد هذا لزيادة التقرير ، وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلاً «فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ» يعنى الإيمان بالله. ووحدانيته والشرائع ومكارم الأخلاق، لأن جميع ذلك تعرف صحته إما بالعقل وإما بالشرع «وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ» يعنى الكفر والشرك والمعاصي ومساوى الأخلاق، لأن العقل والشرع ينكره «وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ» أى التى حرمت عليهم لمعاصيهم «وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ» أى التى كانوا يتناولونها كالخنزير والميتة والدم - هذا فى باب المأكولات «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ» أى الأمر الذى يثقل عليهم من التكليف الشاقة «وَالْأَغْلَلِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» جمع (غُلّ) بالضم ، وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد ، يستعار للشرائط الحرجة والمواثيق الشديدة، أى يخفف عنهم ما كلفوه منها - وهذا فى باب العبادات «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ» أى بالنبي الأمي وهو محمد ﷺ «وَعَزَّزُوا» أى عظموه ووقروه «وَنَصَرُوهُ» أى على أعدائه فى الدين فمنعواهم عنه «وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ» وهو القرآن ، فأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه .

ولا يقال : القرآن أنزل مع جبريل ، فما معنى (أُنْزِلَ مَعَهُ) ؟ لأن المراد أنزل مع نبوته ، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به . ويجوز أن يعلق بـ (اتبعوا) أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي ، والعمل بسنته ، وبما أمر ونهى عنه ، فيكون أمراً بالعمل بالكتاب والسنة ، أو هو حال ، أى اتبعوا القرآن كما اتبعه ، مصاحبين له فى اتباعه . وفى التعبير عن القرآن بـ (النور) المنبئ عن كونه ظاهراً بنفسه لإعجازه ، ومظهرًا لغيره من الأحكام، لمناسبة الاتباع «أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» الفائزون بالرحمة ، والناجون من النقمة .

تنبيهات :

الأول - يظهر من سياق الآية أن قوله تعالى (قَالَ عَذَابِي ..) الخ جواب لموسى عليه السلام، وذلك أنه دعا بالمغفرة لقومه أجمعين ، كتابه حسنتى الدنيا والآخرة لهم، فأجيب أولاً بأن ذلك لا يحصل لقومه كلهم ، برّاً أو فاجرّاً ، لما سبق من تقديره سبحانه العذاب لمن يشاء من الفجار حكمة منه وعدلاً . ولذلك قرأ الحسن وزيد بن علىّ هنا (لمن أساء) فعل ماض من (الإساءة) ، وفى طيه أن ما أصاب قومه من الرجة هو من عذابه تعالى ، الذى شاء إصابتهم به لأفاعيلهم . وثانيّاً إنه لا يستأهل كتابة الحسنتين إلا المتقون المتصدقون المؤمنون بالآيات ، المتبعون للنبيّ الأُمّى ، فمن استقام على هذه الشرائط ، كتب له ذلك . ولا يقال - على هذا - كيف يتبعونه ولم يدركوا زمنه ؟ لأننا نقول : الاتباع أعم من الإتياع (بالقوة) ، وذلك بالإيمان به إجمالاً ، حسبما أشار له الكتابان لمن تقدم موته على زمن بعثته ، وإما (بالفعل) لمن لحق زمان بعثته . وفيه تبشير لموسى بالنبيّ ﷺ ، وتعريف له بشأنه ، وإعلام بشأنه ، بأن كتابة الرحمة موقوفة على اتباعه . وعليه فيكون قوله تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) بدلا من الموصول الأول، بدل السكل . أو منصوب على المدح ، أو مرفوع عليه . أى : أعنى الذين ، أو هم الذين .

وقال بعضهم : إن جواب موسى ينتهى إلى قوله تعالى (الَّذِينَ هُمْ بِأَيَّتِنَا يُوْئُونَ) وما بعده مستأنف ، فكأنه تعالى أعلم موسى بأنه ذو عذاب ، يصيب به من يشاء ، كما أصاب أصحاب الرجة . وذو رحمة واسعة ، تكتب للمتقين المتصدقين المؤمنين بالآيات ، أى فأمر قومك بأن يكونوا من الفريق المرحوم بالمشى على هذا الوصف المرقوم . ثم استأنف تعالى الإخبار عن تبع النبيّ الأُمّى بأنهم المفلحون حقاً ، وعليه فيكون قوله تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) مبتدأ خبره (أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ، وتكون القصة استتبع أعقاب بنى إسرائيل ، بأنهم إذا اتبعوا النبيّ الأُمّى ، كانوا هم المفلحين .

وجوز بعضهم أن يكون قوله تعالى (قَالَ عَذَابِي) ارتجال خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . قصد به إعلام أهل الكتاب المعاصرين له ، صلى الله عليه وسلم بأنهم إذا اتبعوه وآمنوا به وصدقوه ، حقت لهم رحمته تعالى الواسعة ، وإلا فلا يأمّنوا أن يصابوا بانتقامه تعالى ، كما جرى لأسلافهم . وفي ذلك كله من التنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه المتقين ، ما لا يخفى .

الثاني - تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان - هذا ما ذكر في اللغة . وعندى أن القرآن الكريم قد تطلق فيه على الجنة ، كما قال تعالى (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ)^(١) بدليل المقابلة بقوله (وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)^(٢) فعمل الرحمة في قوله تعالى هنا : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) بمعنى الجنة ، بدليل مقابلتها بالعذاب قبل . والله أعلم .

وقال أبو منصور : ما من أحد مسلم وكافر ، إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا . بها يتعيشون ويؤاخون ويوادّون ، وفيها ينقلبون ، لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة ، لاحظ للكافر فيها . وذلك قوله (فَسَاءَ كُتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ)^(٣) أى : معصية الله ، والخلاف له ، (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) ، كقوله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^(٤) جعل طيبات الدنيا ونعيمها مشتركة بين المسلم والكافر ، خالصة للذين آمنوا يوم القيامة ، لاحظ للكافر فيها . فعلى ذلك رحمته نالت كل أحد في هذه الدنيا ، لكنها للذين آمنوا واتقوا الشرك خاصة في الآخرة ويحتمل قوله - والله أعلم - . (وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ)^(٥) أنهم سألوا الرحمة ، فقال : سأكتبها للذين يتقون معاصي الله ومخالفته . انتهى .

- (١) [٧٦ / الإنسان / ٣١] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣١] .
 (٣) [٧ / الأعراف / ١٥٦] . (٤) [٧ / الأعراف / ٣٢] .
 (٥) [٧ / الأعراف / ١٥٦] .

الثالث - إنما أفرد (الزكاة) بالذكر ، مع دخولها في التقوى قبل ، لعلوها وشرفها ، فإنها عنوان الهداية ، ولأنها كانت أشق عليهم ، فذكرها لئلا يفرطوا فيها .

الرابع - كونه صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقرأ ، أمر مقرر مشهور . وهل صدر عنه ذلك في كتابة صلح الحديبية كما هو ظاهر الحديث المشهور^(١) ، أو أنه لم يكتب ، وإنما أسند إليه مجازاً ، أو أنه صدر منه ذلك معجزة ؟ - انظر في (فتح الباري) تفصيله - .

و (الأمي) نسبة إلى أمة العرب ، لأن الغالب عليهم كان ذلك ، كما في الحديث^(٢) : (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) وأما نسبته إلى (أم القرى) فلا أن أهلها كانوا كذلك . أو إلى (أمه) كأنه على الحالة التي ولدته أمه عليها . وقيل : إنه منسوب (إلى الأم) - بفتح الهمزة - بمعنى القصد ، لأنه المقصود ، وضم الهمزة من تغيير النسب . ويؤيد قراءة يعقوب (الأمي) - بفتح الهمزة - ، وإن احتملت أن تكون من تغيير النسب أيضاً . وإنما وصفه تعالى به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته . فهي له مدح وعلو كعب ، لأنها معجزة له ، كما قال البوصيري .

* كَفَاكَ بِالْعَمْرِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجِزَةً *

كما أن صفة التكبر لله مادحة ، وفي غيره ذامة ، كذا في (الغنية) .

الخامس - في قوله تعالى : «الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ» إشارة إلى بشار الأنبياء عليهم السلام ، بنبوته ﷺ .

قال الماوردي في (أعلام النبوة) في الباب الخامس عشر في بشار الأنبياء بنبوته عليه الصلاة والسلام :

(١) أخرجه البخاري في : ٥٤ - كتاب الشهادات ، ١٥ - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أجل الحرب وكتابة الشروط ، حديث رقم ٨٨١ ورقم ٨٨٢ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ١٣ - باب قول النبي ﷺ «لا نكتب ولا نحسب» حديث رقم ٩٦٨ .

إن لله تعالى عوناً على أوامره ، وإغناءً عن نواهيه ، فكأن أنبياء الله تعالى معانون على تأسيس النبوة ، بما تقدمه من بشارتها ، وتبديه من أعلامها وشعائرها ، ليكون السابق مبشراً ونذيراً ، واللاحق مصدقاً وظهيراً ، فتدوم بهم طاعة الخلق ، وينتظم بهم استمرار الحق . وقد تقدمت بشار من ساف من الأنبياء ، بنبوة محمد ﷺ ، مما هو حجة على أممهم ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله تعالى على غيبه ، ليكون عوناً للرسول ، وحثاً على القبول . فمنهم من عينه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ، ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصه بأفعاله ، ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره . وقد حقق الله تعالى جميعها فيه ، حتى صار جلياً بعد الاحتمال وبقيناً بعد الارتياب ، ثم سرد الماورديّ البشائر من نصوص كتبهم .

وجاء في (إظهار الحق) مانصه : إن الإخبارات الواقعة في حق محمد ﷺ ، توجد كثيرة إلى الآن أيضاً ، مع وقوع التحريفات في هذه الكتب . ومن عرف أولاً طريق إخبار النبيّ المتقدم ، عن النبيّ المتأخر ، على ما عرفت في الأمر الثاني - يعني في كلامه - ثم نظر ثانياً بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات ، وقابلها بالإخبارات التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى عليه السلام ، جزم بأن الإخبارات المحمدية في غاية القوة .

وجاء في (منية الأذكىء في قصص الأنبياء) ما نصه : إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بشرت به الأنبياء السالفون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال ، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته . غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمه - يعني من نسخهم الأخيرة - إلا أن ذلك لم يحدّم نفعاً ، لبقاء الصفات التي اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهي أظهر دلالة من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك اثنان في اسم ، ويمتنع اشتراك اثنين في جميع الأوصاف . لكن من أمد غير بعيد ، قد شرعوا في تحريف بعض الصفات ، ليمعد صدقها على النبيّ عليه الصلاة والسلام . فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها في بعض المواضع ، اختلافاً لا يخفى على اللبيب أمره ، ولأما قصد

به ، ولم يندم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم لانتشار النسخ بالطبع ، وتيسر المقابلة بينها .
وها نحن نورد شذرة من البشائر لديهم :

فمنها : في الباب السادس عشر من سفر التكوين في حق هاجر هكذا :

١١ - وقال لها ملاكُ الربِّ أَنْتِ حُبْلَى فتلدِينَ ابناً . وتدعين اسمه إسماعيل لأنَّ الربَّ قد سمع لمذلتك .

١٢ - وإنه يكون إنساناً وحشياً . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه . وأمام جميع إخوته يسكن .

هذه بشارة بمحمد ﷺ ، لا بجده إسماعيل ، لأن إسماعيل عليه السلام ، لم تكن يده فوق يد الجميع ، ولا كانت يد الجميع مبسوطة إليه بالخصوص . بل في التوراة أن إسماعيل وأمه هاجر أُخرجا من وطنهما مكرهين ، ولم يرث إسماعيل مع إسحاق ، وكان الملك والنبوّة في بني إسحاق ، وكان بنو إسماعيل في البراري العطاش ، ولم يسمع أن الأمم دانت لهم ، حتى بعث رسول الله ﷺ ، فدانت له الملوك ، وخضعت له الأمم ، وعلت يده وأيدى بني إسماعيل على كل يد ، وصارت يد كلِّ بهم فكان ذكر إسماعيل مقصوداً به ولده . كما أن في مواضع كثيرة من التوراة ، ذكر يعقوب ، والمقصود بالذكر ولد يعقوب . فن ذلك قوله في السفر الخامس : (يَا إِسْرَآءِيلُ ! أَلَا تَخْشَى اللَّهَ رَبَّكَ ، وَتَسْلُكُ فِي سَبِيلِهِ وَتَعْمَلُ لَهُ) ؟ فهذا خطاب لبني إسرائيل باسم أبيهم ، وكذلك قوله لقوم موسى : (اسمع إسرائيل ، ثم احفظ ، واعمل بحسن إليك ربك ، وتكثر وتنعم) ونظائره كثيرة . فظهر أنه قد يذكر اسم الأب ، ويراد الابن مجازاً ، بقرينة الحال ، وإلا لزم الخلف في خبرة تعالى .

ومنها : في الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية هكذا :

١ - وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجلُ الله بني إسرائيل قبل موته .

٢ - فقال : جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سَعِيرَ وتلألاً من جبل فارانَ وأتى من ربّواتِ القدّس وعن يمينه نارُ شريعةٍ لهم .

ولا غموض بأن مجىء الله جل وعلا من سيناء عبارة عن إنزاله التوراة على موسى بطور سيناء - هكذا يفسره أهل الكتاب - والأمر كذلك فيجب أن يكون إشرافه من سَعِيرَ عبارة عن إنزاله الإنجيل على المسيح ، وكان المسيح يسكن أرض الجليل من سَعِيرَ بقرية تدعى (ناصرة ، واسم النصارى مأخوذ منها . واستعلاؤه من جبال فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد في جبل فاران . وفاران هي مكة ، لا يخالفنا في ذلك أهل الكتاب . ففي الباب الحادى والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام هكذا :

٢٠ - وكان الله مع القلام فكبر . وسكن في البريّة . وكان ينمو رامي قوس .

٢١ - وسكن في برّية فاران . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

ولا شك أن إسماعيل كان سكنه في مكة ، وفيها مات ، وبها دفن . وهذه البشارة صريحة في نبينا ﷺ ، ظاهرة لا تخفى إلا على أكمه لا يعرف القمر . فأى نبى ظهر في مكة بعد موسى غير محمد ، وانتشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها ، كما يقتضيه الاستعلان المذكور في البشارة .

ومنها : في الباب الثامن عشر من سفر التثنية هكذا :

١٧ - قال لى الرب قد أحسنوا في ما تكلموا .

١٨ - أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى في فم فيكلمهم بكل ما

أوصيه به .

١٩ - ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطلبه .

هذا البشارة في حق نبينا ﷺ قطعاً ، لأنه من ذرية إسماعيل ، وذريته يسمون إخوة

لبنى إبراهيم ، بدليل ما ذكر في التوراة في حق إسماعيل وأنه قبالة إخوته ، ينصب المضارب . وقد جرت عادة الكتب المنزلة بتسمية أبناء الأعمام ، عن بعدبعيد ، إخوة

كما دعى فى القرآن هود وصالح ، إخوة لعاد وشمود ، مع أنهما على بعد بعيد من أولاد الأعمام .
وكما قيل فى سفر العدد فى الباب العشرين :

١٤ - وأرسل موسى رسلا من قَادَشَ إِلَى مَلِكِ أَدُومَ . هَكَذَا يَقُولُ أَخُوكَ إِسْرَائِيلُ قَدْ
عَرَفْتَ كُلَّ الْمَشَقَّةِ الَّتِي أَصَابَتْنَا (مع أنهما أبناء أعمام على بعد بعيد) .

ولست هذه الشهادة فى حق أحد من أنبياء بنى إسرائيل ، وإلا ، لقال : وسوف
أقيم لهم نبيا مثلك منهم أو من أنفسهم كما قال تعالى إخباراً بدعوة إبراهيم عليه السلام لولده
إسماعيل (رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ) وكما قال تعالى فى خطاب بنى إسماعيل : (لَقَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ) وأما ما زعمته اليهود من أن المراد يوشع ، فتى موسى ، فهو
باطل من وجوه :

١ - أن المبشر به من إخوة بنى إسرائيل ، لا من نفس بنى إسرائيل ، ويوشع كان من
نفس بنى إسرائيل .

٢ - أن يوشع لم يكن مثل موسى عليه السلام لما فى آخر سفر التثنية .
(الأصحاح الرابع والعشرون) .

١٠ - ولم يقم بعدُ نبيٌّ فى بنى إسرائيل مثلُ موسى الذى عرفه الرب وجهاً لوجه .
ولأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواه ،
ويوشع ليس كذلك ، بل هو مأمور باتباع شريعة موسى .

٣ - أن يوشع عليه السلام كان حاضراً هناك ، وقد أشير إليه بعبارة صريحة قبل هذه
فى الباب الأول من هذا السفر .

٣٨ - يَشُوعُ بْنُ نُونٍ الْوَاقِفُ أَمَامَكَ هُوَ يَدْخُلُ إِلَى هُنَاكَ . شَدَّدَهُ لِأَنَّهُ هُوَ يَقْسِمُهَا
لِإِسْرَائِيلَ .

فأى مقتضى للرمز والتلويح ، بعد هذا التصريح ؟ وأى موجب لإدخال (سوف) الدالة
على الاستقبال على فعل حاصل فى الحال ؟

وأما ما زعمته النصارى من أن المراد به عيسى عليه السلام ، فهو أيضاً باطل ، لوجوه :
١ - أنه من بني إسرائيل ، والمبشّر به هنا من غيرهم .

٢ - أن موسى بشر بنبي مثله ، وهم يدعون أن عيسى إله ، وينكرون كونه نبياً مرسلًا ، وإلا لزم اتحاد المرسل والمرسل ، وهو غير معقول . على أن مشابهة موسى لنبينا عليهما الصلاة والسلام ، أقوى من مشابهته لعيسى ، لاتحادها في أمور :

١ - كونهما ذَوَى والدَيْن - وأزواج ، بخلاف عيسى عليه السلام .

٢ - كونهما مأمورَيْن بالجهاد ، بخلاف عيسى عليه السلام . وقد أشار في هذه البشارة بقوله : ١٩ - ويكون أى الإنسان الذى لا يسمع لكلامى ، الذى يتكلم به باسمى ، أنا أطلبه . إلى كون هذا النبي مأمورًا بجهاد من كفر بما جاء به من عند الله ، والانتقام منه بسيفه البتار . وزعمت النصارى أن الانتقام هنا بمعنى العذاب الأخرى لمنكريه ، وهو خطأ ، لأن ذلك لا يختص بهذا النبي ، بل كل من أنكر ما جاء به نبي من الأنبياء ينتقم منه في الآخرة ، فلا معنى لتخصيص هذا النبي بالذكر حينئذ .

٣ - كون شريعتيهما مشتملة على الحدود والقصاص والتعزير وإيجاب الغسل على الجنب والحائض والنفساء ، وإيجاب الطهارة وقت العبادة ، وهذه كلها ليست موجودة في شريعة عيسى عليه السلام - على ما تقول النصارى - ونظائر ذلك كثيرة . وفي هذه البشارة إشارة إلى كون هذا النبي أميًا لا يقرأ ، حيث قال (يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى) وبذلك تعرف سر وصفه به في قوله تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ...) الآية التى نحن في صدددها .

ومنها - في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : (إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطىكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلا الأبد ، روح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ، ولا يعرفه . وأنتم تعرفونه ، لأنه مقيم عندكم ، وهو ثابت فيكم) . وهذه بشارة من المسيح عليه السلام بأن الله تعالى سيبعث للناس

من يقوم مقامه ، وينوب في تبليغ رسالته ، وسياسة خلقه ، مفابه ، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً ، وهل هذا إلا محمد ﷺ . و (الأب) هنا بمعنى الرب والإله ، لأنه اصطلاح أهل الكتابين . وقد أشار عيسى عليه السلام بكونه (روح الحق) إلى أن الحق قبل مبعثه لا يكون كالمت لا حراك له ، ولا انتعاش ، وأنه إذا بعث يكون كالروح له ، فيرجع حينئذ قائماً في الأرض . ولا خفاء أنه عليه الصلاة والسلام ، هو الذي أحى الله به الحق بعد عيسى عليه السلام بعد ما اندرس ، ولم يبق فيه نفس . ثم قال : (والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم) . ولا شك بأن محمداً ﷺ هو الذي علم كل شيء من الحقائق ، وأوضح ما خفي من الدقائق ، وذكر أمة عيسى ما نسوه من أقواله المتضمنة أنه عبد من عباد الله تعالى ، قربه إليه بالرسالة واصطفاه ، وأنه لم يدع لسوى عبادة الله وتوحيده ، وتزيهه وتمجيد . وقوله (باسمي) أي بالنبوة . ثم أبان لهم سبب إخبارهم به قبل أن يأتي فقال : (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون . حتى إذا كان ، تؤمنون) .

وفي الباب الخامس عشر من الإنجيل المذكور : (فأما إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب ينشق ، وهو يشهد لأجلي ، وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء) .

وفي الباب السادس عشر منه : (لكني أقول لكم الحق ، إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنني إن لم أنطلق ، لم يأتكم الفارقليط . فأما إن انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء ذلك ، فهو يوجه العالم على خطيئة ، وعلى بر ، وعلى حكم . أما على الخطيئة فلا أنهم لم يؤمنوا به . وأما على البر فلا أني منطلق إلى الأب ، ولستم ترونني بعد . وأما على الحكم ، فإن رئيس هذا العالم قد دين . وإن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ، ولكنكم لستم تطيقون حمله . وإذا جاء روح الحق ذلك ، فهو يعلمكم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عتده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، ويخبركم بما سيأتي ، وهو يمجدي ، لأنه يأخذ مما هو لي ، ويخبركم جميع ما هو للأب ، فهو لي . من أجل هذا قلت (إن مما هو لي يأخذ ويخبركم) . ومن أمعن النظر في هذه

العبارات ، ولاحظ ما اشتملت عليه من الفحاوى والإشارات جزم بأن (الفارقليط) هو محمد ﷺ ، فإنه هو الذى ظهر بعد عيسى عليه السلام ، وشهد لعيسى بالنبوة والرسالة ، ومجده وبرأه مما افتراه عليه النصارى من دعوى الربوبية ، ومما افتراه عليه اليهود من كونه ساحراً كذاباً ، وعلى والدته من كونها غير طاهرة الذيل ، بريئة الساحة ، وهو الذى وبخ العالم ، سيما اليهود ، على الخطايا ، لاسيما خطيئة الكفر بعيسى عليه السلام ، والطعن فى والدته الطاهرة البتول ، وهو الأمين الصادق ، الذى علم جميع الحقائق ، وهو الذى أبان من الأسرار ما لم تنطق تحمله قبل مجيئه الأفكار ، وهو الذى ، لا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَىٰ ، إِنَّهُ هُوَ الْوَحَىٰ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُو شَدِيدُ الْقُوَىٰ ^(١) .

وفسر العلامة ابن قتيبة (روح الحق الذى من الأب ينبثق) أى يصدر بكلام الله المنزل ، واستدل بقوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) ^(٢) والمراد به هنا القرآن الكريم ، لأنه هو الذى يشهد للمسيح بالنبوة والنزاهة ، عما افترى عليه ، وبأنه روح الله وكنته وصفيه ورسوله ، كما تشهد الحواريون الذين كانوا معه ، واهتدوا بهديه . ولم يثبت شهادة كتاب غير القرآن بذلك ، فتمت أن يكون هو المراد .

وفى قول عيسى عليه السلام (إنه خير لكم أن أنطلق لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط إشارة إلى أن نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل .

ولفظ (فارقليط) يونانى الأصل ، قيل : أصله باراكلى طوس ، بمعنى المعزى والمعين والوكيل أو الشافع . وقيل : بيركاو طوس ، فيكون قريباً من معنى محمد وأحمد . معلوم أن المسيح عليه السلام ، كان يتكلم باللسان العبرانى ، الذى كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليونانى ، لأنه كان عبرانياً ابن عبرانية ، نشأ فى قومه العبرانيين ، فنقل أقواله فى هذه الأناجيل ، نقل بالمعنى . فترجيح من رجح من النصارى ، أن أصل فارقليط هو الأول ترجيح بلا مرجح ، والتفاوت بين اللفظين يسير جداً ، والحروف اليونانية

(١) [٥٣ / النجم / ٣] . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

متشابهة . وأياً كان أصله ، فلا استدلال صحيح ، لصدق اللفظ بمعانيه كلها على النبي ﷺ صدقاً جليلاً ، لا يخفى إلا على مشاغب .

وقد كانت هذه البشارة سبب إسلام الفاضل عبد الله الترجمان ، كما بينه في كتابه (تحفة الأديب في الرد على أهل الصليب) .

وقد نبذ النصارى بعد الأنجيل المصححة باسم (محمد) لكونها شجى في خلوق أهوائهم ، كإنجيل (برنابا) ففيه التصريح بقوله (إلى أن يجيء محمد رسول الله) كما نقله في (إظهار الحق) .

وإذا كان حالهم في تراجهم ، في لقب إلههم ، ولقب خليفته ما علم - فكيف يرجى منهم صحة بقاء لفظ (محمد أو أحمد) ؟ ! ألا إن سيف الحق أمضى ، وسهلم الصواب أفتد ، فثمة من الأوصاف الصريحة ، والأشائر الصحيحة ، مالا يبق معه وقفة لحائر .

هذا ، وفي كتبهم بشائر كثيرة ، تعرض لذكرها جلة من العلماء ، مما أناف على العشرين .

قال الماوردي : أمل ما لم يصل إلينا منها أكثر . وقد اقتصرنا على ما قدمنا ، رؤماً للاختصار ، ولسهولة الوقوف على البقية ، من مثل (أعلام النبوة للماوردي) و (إظهار الحق) وغيرها .

وقد قال صاحب (إظهار الحق) الشيخ رحمة الله ، عليه رحمة الله : إن من أسلم من علماء اليهود والنصارى في القرن الأول ، شهد بوجود البشارات المحمدية في كتب العهدين ، مثل عبد الله بن سلام ، وابني سعية ، وبنيامين ، ونخيريقي ، وكعب الأحبار ، وغيرهم من علماء اليهود . ومثل بحيرا ونسطورا الحبشي ، وضفاطر ، وهو الأسقف الرومي الذي أسلم على يد دحية الكلبي وقت الرسالة فقتلوه . والجارود ، والنجاشي ، والسوس ، والرهبان الذي جاء مع جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وغيرهم من علماء النصارى . وقد اعترف بصحة نبوته ، وعموم

رسالته ، هرقل قيصر الروم ، ومقوقس صاحب مصر ، وابن سوريا ، وحُيَّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب وغيرهم ، ممن حملهم الحسد على الشقاء ولم يسلموا .

ولما ورد على النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران ، وحاجتهم في شأن عيسى عليه السلام وحجبتهم ، دعاهم إلى الباهلة بأمره تعالى ، فنكسوا على أعقابهم ، خوفاً من شؤم مغبتهم ، فكانوا كقوم فرعون آمنوا بها (وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًا)^(١) .

السادس - قوله تعالى (يَا مُرْهُم بِأَلْعَزُوفِ) يحتمل أن يكون مستأنفاً ، وأن يكون مفسراً لـ (مَكْتُوبًا) أى لما كتب .

السابع - الطيبات أعم من الطيبات في المأكول كالشحوم ، وكذا البحائر والسوائب والوصائل والحام . ومن الطيبات في حكم الشريعة كالبيع ، وما خلا كسبه عن سحت . وكذا الخبائث ما يستخبث ، من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة وغيرها من المكاسب الخبيثة . قيل : يستبعد إرادة ما طاب أو خبث في الحكم ، لأن معناه حينئذ ما حكم الشرع بحله ، أو حكم بحرمته ، فيرجع الكلام إلى أنه يحل ما يحكم بحله ، ويحرم ما يحكم بحرمته ، ولا فائدة فيه . وردوه بأنه يفيد فائدة وأى فائدة ! لأن معناه أن الحل والحرمه بحكم الشرع ، لا بالعقل والرأى .

الثامن - في قوله تعالى (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) إشارة إلى أنه ﷺ جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال^(٢) : بعثت بالحنيفية السمحة . وقال ﷺ^(٣) لأمر به معاذ وأبى موسى الأشعري ، لما بعثهما إلى اليمن : بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وتطوعا ولا تحتلفا .

(١) يشير إلى قوله تعالى في : [٢٧ / النمل / ١٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في

مسنده بالصفحة رقم ٢٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) من حديث طويل رواه أبو أمامة عنه ﷺ . (٣) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٦٤ - باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصا إمامه ، حديث ١١٢٩ .

وقدمنّا أن (الإصر والأغلال) استعمارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة . فيها تحريم طبخ الجدى بلبن أمه ، ومنها نظام الأعياد التي يعيّدونها لله في السنة وهي عيد الفطير وعيد الحصاد وعيد المظال . وكذلك عيد كل سبت ، لا يعمل فيه أدنى عمل . وكذلك سبت المزارع . ففي كل سنة سابعة سبت للأرض . لا يزرع فيها ، ولا يقطف الكرم ، بل تترك الأراضي عطلاً ، وغلات الكروم مأكلاً لفقراء شعبهم ووحوش البرية . ومنها أن من ضرب أباه أو أمه أو شتمهما أو تمرد عليهما وعصاهما يقتل حداً . وكذا من يعمل يوم السبت يقتل . ومن كان به جن أو تابعة يرمي بالحجارة حتى يموت . ومن تزوج فتاة فادعى أنه لم يجد لها عذرة ، ثم تبين كذبه ، جميعاً يقتلان . وإذا أمسكت امرأة عورة رجل تقطع يدها . وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات الموطوح ، يرمي الثور ولا يؤكل لحمه . ومن اضطلع مع امرأة طامث يقطعان من شعبهم . ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر ، وطلقها أو مات عنها ، فلا يجوز لزوجها الأول أن يرجعها . وغير ذلك من الآصار التي تقدم بعضها في آخر سورة البقرة - فراجعها - .

التاسع - قال الجشمي : تدل الآية على أن شريعته صلى الله عليه وسلم أسهل الشرائع ، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان في الأمم الماضية . وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة . وتدل على وجوب تعظيم الرسول ، ونصره بالجهاد ، ونصرته بنصرة دينه ، وكل أمر يؤدي إلى توهين ما يتصل بذلك ، لأن جميع ذلك من باب النصرة . وهذا لا يختص بمصره . فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التشكيف . ولعل الجهاد بالبيان ، وإيراد الحجّة ، ووضع الكتب فيه ، وحل شبه المخالفين ، يزيد في كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف ، ولهذا قلنا (منازل العلماء في ذلك أعظم المنازل) اهـ .

العاشر - قال العلامة البقاعي : لما ترأست الآي ، وطال المدى في أقاصيص موسى عليه السلام ، وبيان مناقبه العظام ، ومآثره الجسام ، وكان ذلك ربما أوقع في بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصباً ، وأعظمهم رتبة - ساق سبحانه هذه الآيات ، هذا السياق ، على هذا

الوجه ، الذى بين أعلامهم مراتب ، وأزكاهم مناقب ، الذى خص برحمته من يؤمن به من خلقه، قوة أو فعلاً. وجعل سبحانه ذلك فى أثناء قصة بنى إسرائيل ، اهتماماً به ، وتعجباً لآله ، مع ما سيذكر ، مما يظهر أفضاليته ، ويوضح أكمليته ، بقصته مع قومه ، فى مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه ، فى سورة (الأنفال) و (براءة) بكاملها .

ثم قال البقاعى : لما تم ما نظمته تعالى فى أثناء هذه القصص ، من جواهر أوصاف هذا النبي الكريم ، حث على الإيمان به ، إيجاباً له على وجه علم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف ، تقدم زمانه أو تأخر - أمره سبحانه أن يصرح بما تقدم التلويح إليه ، ويصرح بما أخذ ميثاق الرسل عليه ، تحقيقاً لعموم رسالته ، وشمول دعوته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (قُلْ يَسَاءَئِرُ النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأَخْبَرِ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) « قُلْ يَسَاءَئِرُ النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » أى كافة « الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ » نعوت للفظ الجلالة ، أى الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربه وما يملكه الذى بيده الملك والإحياء والإماتة . والآية نص فى عموم بعثته للأحر والأسود ، والعربى والعجمى . وفى الحديث : أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى - ولا أقولهن نخرا - بُعثت إلى الناس كافة ، الأحمر والأسود ؛ ونصرت بالرعب مسيرة شهر ؛ وأحللت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ؛ وجُعِلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، فَأَخَّرْتُهَا لِأُمَّتِى ، فهى لمن لا يشرك بالله شيئاً . رواه الإمام أحمد ^(١) عن ابن عباس

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٧٤٢ (طبعة المعارف) .

مرفوعاً، ورواه^(١) أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهم أحد قبلي . أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة ، وكان
من قبلي إنما يرسل إلى قومه ؛ ونصرت على العدو بالعرب ، ولو كان بيني وبينهم مستيرة شهر
للمي منه ربعباً ؛ وأحلت لي الغنائم ، آكلها ؛ وكان من قبلي يُعظَّمون أكلها ، كانوا
يَحْرِقُونها ؛ وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، أينما أدركتني الصلاة تَمَسَّحْتُ وصلَّيتُ
وكان من قبلي يُعظَّمون ذلك ، إنما كانوا يضلون في بَيْعِهِمْ وكنائسهم ؛ والخامسة هي ما هي !
فيل لي : سل ، فإن كل نبي قد سأل ، فأخرتُ مسألتى إلى يوم القيامة ، فهي لكم ، ولن
يشهد أن لا إله إلا الله .

قال الحافظ ابن كثير : إسنادهما جيد قوى .

وروى الإمام أحمد بمعناه عن ابن عمر وأبي موسى ، وهو ثابت في الصحيحين^(٢) عن

جابر .

وأخرج مسلم^(٣) عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي
بيده ! لا يسمع بي رجل من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار
« فَاِمْنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ » أي الذي نبي ما يرشد الخلائق كلهم ، مع
كونه أمياً . وفي نفعه بذلك زيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين « الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَكَلِمَاتِهِ » أي ما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه
« وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

(١) أخرجه في المسند بالصحيفة رقم ٢٢٢ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٧٠٦٨ (طبعة المعارف) . (٢) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٥٦ -

باب قول النبي ﷺ « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » حديث رقم ٢٣١ .

ومسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٤٠ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْذِلُونَ)

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ « أى : موقنين ثابتين ، يهدون الناس بكلمة الحق ، ويدلونهم على الاستقامة ، ويرشدونهم » وَبِهِ يَعْذِلُونَ « وبالحق يعدلون بينهم فى الحكم ، لا يجورون . والآية سيقّت لدفع ما عسى يوهمه تخصيص كتب الرحمة والتقوى والإيمان بمتبعى رسول الله ﷺ من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام ، من كل خير ، وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم . وقيل هم الذين آمنوا بالنبي ﷺ . ويأباه أنه قد مرّ ذكرهم فيما سلف . أفاده أبو السعود .

وهذه الآية كقوله تعالى (مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) ^(١) ، وقوله تعالى (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) ^(٢)

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ

قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« وَقَطَعْنَاهُمْ » أى قوم موسى « أَثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا » أى صيرناهم قطعاً ، أى فرقاً ،

وميزنا بعضهم من بعض . والأسباط : أولاد الولد ، وكانوا اثنتى عشرة قبيلة ، من اثنى عشر

(١) [٣ / آل عمران / ١١٣] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٩٩] .

ولداً ، من ولد يعقوب عليه السلام « أَسْمَاءَ » أى عظيمة وجماعة كثيفة العدد « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَمَهُ قَوْمُهُ » أى فى التيه « أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ » فضر به « فَأَنْجَسَتْ » أى اتفجرت « مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا » بعدد الأسباط « قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ » أى سبط منهم « مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ » فى التيه من حرّ الشمس « وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » حيث أوجبوا لها العذاب الدائم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)
« وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ » يعنى بيت المقدس ، والقائل موسى عليه السلام ، دعاهم إلى دخول بيت المقدس . أو يوشع ، فإنه دعاهم ، بعد وفاة موسى ، إلى غزو بيت المقدس « وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ » أى قولوا حطّ عنا ذنوبنا ، وقيل : أمروا بكلمة إذا قالوها حطّ عنهم أوزارهم « وَادْخُلُوا الْبَابَ » أى باب القرية « سُجَّدًا » أى ساجدين أو خاضعين . أمروا بأن يدخلوها بالتواضع ، وكان ذلك شرطاً فى قبول فعلهم « نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)
« فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا »

أى عذاباً «مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» وقد تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة^(١) بما يغنى عن إعادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (وَسَأَلْنَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

«وَسَأَلْنَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» هذا السياق هو بسط لقوله تعالى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)^(٢) . فقوله تعالى (وَسَأَلْنَهُمْ) عطف على (اذكر) المقدر عند قوله (وَإِذْ قِيلَ) أى واسأل اليهود المعاصرين لك ، سؤال تقرّيع وتقرير ، بتقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله ، وإعلاماً بأن هذا من علومهم التى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم ، علم أنه من جهة الوحى .

وقال ابن كثير : أى : واسأل هؤلاء اليهود بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتياهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها في كتبهم ، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم .

و (هذه القرية) هى أيلة ، بين مدين والطور ، وقيل هى متنا ، بين مدين وعينونا . ومعنى كونها (حَاضِرَةُ الْبَحْرِ) أنها قريبة منه ، رابكة لشاطئه .

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢ / البقرة / ٥٩] صفحة رقم ١٣٣ من التفسير .

(٢) [٢ / البقرة / ٦٥] .

وقوله تعالى : (إِذْ يَعِدُّونَ فِي السَّبْتِ) أى يتجاوزون حد الله فيه ، وهو اصطيادهم في يوم السبت ، وقد نهوا عنه ، فقد أخذت عليهم العهود والمواثيق أن يحفظوا السبت من عملٍ ما .

و (الحيتان) السمك ، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت ، في معنى السمكة .
و (شُرْعًا) جمع شارع ، من (شرع) بمعنى دنا . يقال : شرع علينا فلان ، إذا دنا منا ، وأشرف علينا . وشرعت على فلان في بيته ، فرأيته يفعل كذا ، وهو حال من (حَيْثَانُهُمْ)
أى تأتيتهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء ، قرية من الساحل ، ويوم لا يسبتون لتأتيتهم أصلاً إلى السبت المقبل .

قرى (يُسَبِّتُونَ) ثلاثياً ، ومزیداً فيه ، من (أسبت) معلوماً ومجهولاً أيضاً ، بمعنى ، لا يدخلون في السبت ، ولا يدار عليهم .

وقوله تعالى (كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ) أى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع ، نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء ، في اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائه عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ، أى نعمامهم معاملة من يختبرهم ، بسبب فسقهم ، فيظهر عدوانهم ، فيستحقون المؤاخظة .

ثم بين تعالى تماديهم في العدوان ، وعدم انزجارهم عنه ، بعد العظات والإنذارات ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ » أى جماعة من صلحائهم ، يحاورون فريقاً من دأب في عظمتهم « لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ » أى : ختمهم ومطهر الأرض منهم « أَوْ مُعَدِّبُهُمْ »

عَذَابًا شَدِيدًا « أَى بِل مَعَذِبِهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، إِذْ مَجَرَّدَ الْإِهْلَاكَ قَدْ يَوْجَدُ مَعَهُ لُطْفٌ ، وَأَمَّا شِدَّةُ الْعَذَابِ فَتِلْكَ الْقَاصِمَةُ « قَالُوا » أَى : الْوَعَاظُ « مَعَذِرَةً إِلَى رَبِّكُم » أَى نَعِظُهُمْ مَعَذِرَةً إِلَيْهِ تَعَالَى ، لِثَلَا تَنْسَبُ إِلَى التَّفْرِيطِ فِي وَصِيَّتِهِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَقُرِءَ بِالرَّفْعِ . أَى مَوْعِظَتِنَا مَعَذِرَةٌ « وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أَى وَرَجَاءُ فِي أَنْ يَتَّقُوا فَيَتَّقُوا فَيَنْجُوا مِنَ الْإِهْلَاكِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ » أَى فَلَمَّا تَرَ كَوَامَاذُ كَرِهَ بِهِ صَلَاحًا وَهُمْ ، تَرَكَ النَّاسِ لِلشَّيْءِ ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ إِعْرَاضًا كَلِيمًا ، بِحَيْثُ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِمْ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاعِظِ أَصْلًا « أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أَى : الْمُرْتَكِبِينَ الْمُنْكَرِ . « بِعَذَابٍ بَئِيسٍ » أَى : شَدِيدٍ ، وَزَانٍ وَمَعْنَى « بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » بِفِعْلِ الْمُنْكَرِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

« فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ » أَى تَكَبَّرُوا وَأَبَوْنَا أَنْ يَتَرَ كَوَامَنَهُوا عَنْهُ « قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » أَى صَاغِرِينَ أَذْلَاءَ ، بُعْدَاءَ مِنَ النَّاسِ .

قال الزجاج : أمروا بأن يكونوا كذلك بقولِ سُمِيعَ .

وقال غيره : المراد بالأمْرِ هُوَ الْأَمْرُ التَّسْكُونِيّ ، لَا الْقَوْلِيّ ، أَى : التَّكْلِيفِيّ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وَسْمِهِمْ حَتَّى يُؤْمَرُوا بِهِ . وَفِي السَّكَلَامِ اسْتِمَارَةٌ تَخْيِيلِيَّةٌ . شَبَهَ تَأْثِيرَ قُدْرَتِهِ تَعَالَى فِي الْمُرَادِ مِنْ غَيْرِ تَوْقُفٍ ، وَمِنْ غَيْرِ مَزَاوَلَةٍ عَمَلٍ وَاسْتِعْمَالِ آلَةٍ ، بِأَمْرِ الْمَطَاعِ لِلْمَطِيعِ ، فِي حَصُولِ الْمَأْمُورِ بِهِ ، مِنْ غَيْرِ تَوْقُفٍ . كَذَا فِي (الْعِنَايَةِ) .

وظاهر الآية يقتضى أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد، فعمتوا بعد ذلك، فمسخهم. ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً لما قبلها .

تنبيهات :

الأول - قال الجشمي : تدل الآية على أنهم تعبدوا بتحريم الصيد يوم السبت . وأنه شدد التكليف عليهم بظهورها يومئذ ، وأنهم خالفوا أمر الله ، وهذا القدر يقتضيه الظاهر . ومتى قيل : أفتظهر الحيتان يوم السبت دون غيره من الأيام ، هل كانت معجزة ؟ قلنا : اختلفوا فيه . فقيل : كان معجزة لتبي ذلك الزمان ، لأنه لا يتفق للسماك أن يأتى الأنهار كثيراً في يوم واحد ، ولا يظهر في سائر الأيام . فإن كان كذلك ، فلا بد أن الله تعالى قوى دواعي الحيتان يوم السبت ، فظهروا . وصرفهم في سائر الأيام ، فلم يظهروا ، فكانت معجزة . وقيل : كانت جرت عادتهم بترك الصيد يوم السبت ، فعمتوا ذلك فكثروا في ذلك اليوم على عادتهم ، كما اعتاد النواب كثيراً من الأشياء . انتهى .

وقد روى في اعتدائهم في السبت روايات :

منها - أنهم تحمّلوا لاصطياد الحيتان فيه بوضع الجبائل والبرك قبل يوم السبت ، حتى إذا جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة ، نشبت بتلك الجبائل ، فلم تخلص منها يوماً ، فإذا كان الليل ، أخذوها بعد انقضاء السبت .

ومنها - أنهم كانوا يأخذونها يوم السبت بالفعل ، ولكن يأكلونها في غيره من الأيام ، فتأول لهم الشيطان أن النهى عن الأكل فيه منها ، لا عن صيدها . فتهتهم طائفة منهم عن ذلك وقالت : ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف ، أو قذف ، أو بعض ما عنده من العذاب . فلما أصبحوا وجدوهم أصابهم من المسخ ما أصابهم ، وإذا هم قردة - رواه عبد الرزاق وابن جرير - وثمة روايات أخر .

وروى عن مجاهد أنهم مسخت قلوبهم ، لا أبدانهم - والله أعلم - .

الثاني - استُبدِلَ بهذه القصة على تحريم الحِيل .

قال الإمام ابن القيم في (إغاثة اللهيان) : ومن مكاييد الشيطان التي كادَ بها الإسلام وأهله ، الحيل والمكر والخداع ، الذي يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط ما فرضه ، ومضادته في أمره ونهيه . وهي من الرأي الباطل الذي اتفق السلف على ذمه . فإن الرأي رأيان : رأى يوافق النصوص ، وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذي اعتبره السلف ، وعملوا به . ورأى يخالف النصوص ، وتشهد له بالإبطال والإهدار ، فهو الذي ذمّه وأنكره . وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به ، وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام ، وتخليص الحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي ، فهذا النوع محمود ، يثاب فاعله ومعلمه . ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالماً ، والظالم مظلوماً ، والحق باطلاً ، والباطل حقاً ، فهذا الذي اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض .

ثم ساق الوجوه العديدة على تحريمه وإبطاله . وقال في سادسها :

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم الأحد . قال بعض الأئمة : ففي هذا زجر عظيم لمن يتماطى الحيل على المناهي الشرعية ، ممن يتلبس بعلم الفقه ، وهو غير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده ، وتعظيم حرمانه ، والوقوف عندها . ليس المتحيل على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه . ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى عليه السلام وكفراً بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل . واحتيال ظاهره ظاهراً لا باطن ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا - والله أعلم - مسخوا قردة ، لأن صورة القرود فيها شبهة من صورة الإنسان ، وفي أوصافه شبهة منهم ، وهو مخالف له في الحد والحقيقة . فلما نَسَخَ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره ، دون حقيقته ، مسخهم الله تعالى قردة يشبهونهم في بعض ظواهرهم ، دون الحقيقة ، جزاء وفاقاً .

ثم روى في عاشرها عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ^(١) : لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل .

الثالث - دلت الآيات على أن أهل هذه القرية صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على صيد السمك يوم السبت ، كما يتلوا . وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم . وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمنكرة : لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيبكم إياهم ؟ فأجابتها المنكرة : بأنا نفعل ذلك اعتذارا إلى ربنا فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ثم نص تعالى على نجاة الناهين ، وهلاك الظالمين .

وقال ابن كثير : وسكت عن الساكنتين ، لأن الجزء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من المالكين ، ، أو من الناجين ؟ على قولين . وروى أن ابن عباس كان توقف فيهم ، ثم صار إلى نجاتهم ، لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه ، وخالفوه ، وقالوا : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ؟ فكساء حلة .

الرابع - دل قوله تعالى (قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) على أن النهي عن المنكر لا يسقط ، ولو علم المنكر عدم الفائدة فيه . إذ ليس من شرطه حصول الامتناع عنه ، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان الدين ، والغيرة على حدود الله ، والاعتذار إليه تعالى ، إذ شدد في تركه - لكفاء فائدة .

ولما ذكر تعالى بعض مساوي اليهود ، تأثره ببيان أنه حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة فقال سبحانه :

(١) رواه أبو عبد الله بن بطة . انظر : الجزء الأول من (إغاثة اللهيان) ص ٣٤٨ (طبعة مصطفى الحلبي) عام ١٣٥٧ هـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ » أى آذن ، (كتوعد بمعنى أوعد) . من (الإيذان) بمعنى (الإعلام) أجرى مجرى فعل القسم ، كعلم الله ، وشهد الله . ولذلك أوجب بما يجاب به القسم ، وهو قوله : « لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ » والمعنى : وإذ حتم ربك وحكم ، ليسلطن على اليهود « إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » كالأذلال وضرب الجزية وغير ذلك ، بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتياهم على المحارم . وقد بعث الله تعالى ، بعد سليمان عليه السلام ، بختنصر مالك بابل ، فخرّب ديارهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبى نساءهم وذرياتهم ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وجلا كثيرا منهم إلى بابل - قصبة مملكته - وأقاموا فيها سبعين سنة ، ثم تسلطت عليهم ملوك شتى ، ولبثوا زمانا طويلا يكابدون بلاء عنيفاً ، من تواتر الحروب على بلادهم ، إلى أن صاروا جميعا تحت سلطة الرومان ، بعد ولادة عيسى عليه السلام بإحدى وسبعين سنة ، واستؤصلوا من أرضهم ، وتفرقوا في البلاد شذرا مذر ، صاغرين مقهورين . ومن هاهنا ، استدلل من استدلل بأنهم لا يكون لهم دولة ولا عز ، وباتصال ذلهم . « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ » لمن أقام على كفره ، ونبذ وصاياه « وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحا . ثم أخبر تعالى عن تبددهم في الأقطار بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ، مِنْهُمْ الَّذِينَ صَلَّحُوا وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا » أى فرقنا بني إسرائيل في الأرض ، وجعلنا كل فرقة

منهم في قطر من أقطارها ، بحيث لا تخلو ناحية منها ، منهم ، تكملة لإدبارهم ، حتى لا تكون لهم شوكة « مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ » أى من ينحط عن درجة الصلاح ، لكفر أو فسق « وَبَلَّوْا نَفْسَهُم بِالْأَسِنَّاتِ وَالسِّيِّئَاتِ » أى بالنعم والنقم التى هى أمثلة جزاء الصلاح والفسق « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن أسباب السيئات إلى الحسنات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا

الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ،

أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ

وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد هؤلاء المذكورين « خَلْفٌ » أى بدل سوء .

والمراد بهم الذين كانوا فى زمن رسول الله ﷺ . و (الخلف) مصدر ، ولذا يوصف به المفرد

وغيره ، وقد شاع فى الطالح ، ومفتوح اللام (بالصالح) ، وربما جاء عكسه « وَرِثُوا الْكِتَابَ »

أى التوراة من أسلافهم المختلفين ، يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي ،

والتحليل والتحريم ، ولا يعملون بها كما قال : « يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى » أى حطام

هذا الشيء الأدنى ، يريد الدنيا ، وما يتمتع به منها . وفى قوله (هَذَا الْأَدْنَى) تحسيس

وتحقير . و (العَرَضُ) بفتح الراء ، ما لا ثبات له ، ومنه استعمار المتكلمون (العرض)

لمقابل (الجوهر) . و (الأدنى) إما من الدنوّ ، بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب بالنسبة إلى

الآخرة . وإما من دنوّ الخلال وسقوطها وقتها (وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » أى يقتاضون عن

بذل الحق ونشره ، بمرض الحياة الدنيا ، ويتحكمون على الله تعالى بأنه لا يؤاخذهم بما أخذوا

« وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ » الواو للحال ، أى يرجون المغفرة ، وهم مصرّون

عائدون إلى مثل فعلهم ، غير تائبين ، كلما لاح لهم مثل الأول أخذوه . « أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ » أى الميثاق الوارد فيه « أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ » أى فلو صح ما تحكموا به على الله ، لم يكن لأخذ هذا الميثاق معنى .

ثم أخبر تعالى أن أخذهم ليس عن جهلهم بذلك الميثاق بقوله : « وَدَرَسُوا مَا فِيهِ » أى قرأوا ما فى الكتاب من الميثاق مرة بعد مرة « وَالَّذَارُ الْأُخْرَةَ خَيْرٌ » أى من ذلك العرض الخسيس « لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أى أخذ هذا الأدنى بدل كتم الحق « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى فتعلموا ذلك ، فلا تستبدلوا الأدنى المؤدى إلى العقاب ، بالنعيم المخلد . وقرئ بالياء . وفى الالتفات تشديد للتوبيخ .

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ ، كما هو مكتوب فيه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

«وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ» أى يتمسكون به فى أمور دينهم . يقال : أمسك بالشئ وتمسك به . وقرئ يُمْسِكُونَ ، من (الإمساك) وتمسكوا واستمسكوا « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ » من وضع الظاهر موضع المضمرة ، تنبيهاً على أن الإصلاح كالنافع من التضضيع ، لأن التعليق بالمشتق يفيد علة مأخذ الاشتقاق ، فكأنه قيل : لا نضيع أجرهم لإصلاحهم . فإن قلت : التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ، ومنها إقامة الصلاة ، فكيف أفردت ؟ أجيب : بأن إفرادها ، إظهاراً لمزية الصلاة - لكونها عماد الدين ، وفارقة بين الكفر والإيمان .

قال الجشمى : تدل الآية على وعيد المعرض عن الكتاب ، ووعد من تمسك به ، تنبيهاً

لنا وتحذيراً عن سلوك طريقهم . وتدل على أن الاستغفار باللسان ، ومعنى المغفرة لا ينفع حتى يكون معهما التوبة والعمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا

مَاءً آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

«وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ» أى رفعناه «كَأَنَّهُ وَ ظِلَّةٌ» أى سحابة «وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ» أى ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت في الجو «خُذُوا مَاءً آتَيْنَاكُمْ» أى وقتلنا، أو قائلين : خذوا ما آتيناكم من أحكام التوراة «بِقُوَّةٍ» أى عزيمة وجد «وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ» أى بالعمل ولا تتركوه كالنسي «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» أى مساوئ الأعمال ، أو راجين أن تنظموا في سلك المتقين . وهذه الآية كقوله تعالى (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ)^(١) .

وقد روى عن ابن عباس وغيره من السلف : أنهم راجعوا موسى في فرائض التوراة وشرائعها ، حتى رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ، فقال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها ، لأرみなكم بهذا نحرًا وسجداً ، فرأى من أن يسقط عليهم - رواه النسائي^(٢) وسنيد - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى

أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى ، شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ

إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» أى أخرج من أصلهم

(١) [٤ / النساء / ١٥٤] . (٢) لم أهتم إليه .

نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن ، من أنهم كانوا نطفة قذفت إلى رحم الأمهات ، ثم جعلت علقه ، ثم مضغة ، ثم أنشأهم بشراً سوياً حياً مكلفاً ، فجعل خلقه إياهم كذلك ، إخراجاً من أصلابهم ، لأن أصلهم خرج منها . و (مِنْ ظُهُورِهِمْ) بدل من (بَنَى آدَمَ) بدل البعض . وقرئ (ذرياتهم) « وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ » أى أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذ من ظهور آبائهم على نفسها ، تقريراً لهم ربوبيته التامة .

قال الجشمي : أى أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقته ، وغرائب صنعتهم ، من أعضاء سوية ، وحواس مدركة ، وجوارح ظاهرة ، وأعصاب وعروق وغير ذلك ، مما يعلمه من تفكر فيه ، وكلها تدل عليه وعلى صفاته وحدانيته ، فبالإشهاد بالأدلة ، صار كأنه أشهدهم بقوله .

وقوله تعالى « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » على إرادة القول ، أى قائلا : ألسنت ربكم ، ومالك أمركم ومريمكم على الإطلاق ، من غير أن يكون لأحد مدخل في شأن من شؤونكم ، فينتظم استحقاق العبودية ، ويستلزم اختصاصه به تعالى « قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا » أى على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك ، لأنهم بما ظهر عليهم من آثار الصفة ، صاروا كأنهم قالوا (بلى) ، وإن لم يكن هناك قول باللسان . فالآية من باب التمثيل المعروف في كلام العرب . مثل تعالى خلقهم على فطرة التوحيد ، وإخراجهم من ظهور آبائهم ، شاهدين ربوبيته شهادة لا يخالجهما ريب ، بحمله إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ، ومسارعتهم إلى ذلك من غير تلثم أصلاً . والقصد من الآية الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفة فطرية ، لازمة لهم لزوم الإقرار منهم والشهادة . قال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)^(١) والفطرة هي معرفة ربوبيته .

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] .

وفي الصحيحين ^(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ .

والجماء سالمة الأذن ، والجدعاء مقطوعتها .

وفي صحيح مسلم ^(٢) عن عياض بن حمار قال رسول الله ﷺ : يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين ، فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أخللت لهم .

وروى الطبري عن الحسن بن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله ﷺ : كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها .

قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ...) الآية - رواه الإمام أحمد ^(٣) والنسائي ، بدون استشهاد الحسن بالآية .

وأما الأخبار المروية في إخراج الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتكليمه تعالى إياهم ، ونطقهم ، ثم إعادتهم إلى صلب أبيهم - فغير صحيحة الإسناد . وما جسن إسفاده منها فغير صريح في ذلك ، بل هو أقرب إلى ألفاظ الآية ، كما بينه الحافظ ابن كثير . قال رحمه الله : ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد فطرتهم على التوحيد ، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض والأسود . وقد فسر الحسن الآية بذلك .

قالوا : ومعنى (أشهدهم) أى أوجدتهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالا وقالوا . والشهادة

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٨٠ - باب إذا أسلم الصبي فمات هل

يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبي الإسلام ، حديث ٧١٦ .

وأخرجه مسلم في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ - ٢٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في : ٥١ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٦٣ (طبعنا)

ضمن حديث طويل . (٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

تارة تكون بالقول ، كقوله (قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا)^(١) الآية - وتارة تكون حالا كقوله تعالى : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ)^(٢) أى حاطم شاهداً عليهم بذلك ، لأنهم قائلون ذلك . وكذا قوله تعالى (وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ)^(٣) كما أن السؤال تارة يكون بالقال ، وتارة يكون بالحال ، كقوله : (وَءَاتَسْكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)^(٤) .

قالوا : ومما يدل على أن المراد هذا ، أن جمل الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه . فإن قيل : إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد .

« أَنْ تَقُولُوا » أى كراهة أن تقولوا « يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أى الذى يسأل فيه عن الربوبية والتوحيد « إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا » أى عن ربوبيته وتوحيده « غَافِلِينَ » أى لم ننبه عليه . فإنهم حيث جبلوا على ما ذكر ، صاروا محجوبين عاجزين عن الاعتذار بذلك . إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)

« أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا » أى سنفوا الإشراك و اخترعوه « مِن قَبْلُ » أى من قبل زماننا « وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ » أى فنشأنا على طريقتهم ، احتجاجاً بالتقليد ،

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ١٧] .

(٣) [١٠٠ / العاديات / ٧] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] .

وتعويلا عليه ، فقد قطعنا العذر بما بيننا من الآيات « أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ » أى أتؤاخذنا بما فعل آبائنا من الشرك ، وأسسوا من الباطل ، أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول ، وأقوال الرسل ؟ والاستفهام للإنكار ، أى أنت حكيم لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء ، وقد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل . والمعنى : أزلنا الشبهتين بأن الإقرار بالربوبية والتوحيد ، هو فى أصل فطرتكم ، فلم لم ترجعوا إليه عند دعوة العقول والرسل ؟ والفترة أكبر دليل ، فهى تسد باب الاعتذار بوجه ما . لاسيما والتقليد عند قيام الدلائل ، والقدرة على الاستدلال بها ، مما لا مساع له أصلا .

تنبيهات

الأول - وافق الإمام ابن كثير ، فى هذا المقام أيضا الجشمى فى تفسيره ، قال :
ويروى أصحاب الحديث عن أسلافهم من الآثار موقوفة ومرفوعة ، ويجعلون ذلك تأويلا للآية ، وهو أنه تعالى مسح ظهر آدم ، فأخرج منه ذريته ، أمثال الذر ، فقال : ألسنت بركم ؟ فقالوا : بلى طائعين . ثم أعادهم فى صلب آدم . وإن تأويل الآية على ذلك .
قال : وقد ذكر مشايخنا رحمهم الله أن ذلك فاسد ، وأن ظاهر الآية يخالف ذلك ، وذكروا فى الرواية ما نذكره . قالوا : فيما يدل على فساده وجوه .

منها : أنه لو كان حاله كما ذكرنا ، لذكرناه ، لأن مثل ذلك الأمر العظيم لا ينساه العاقل ، خصوصا إذا كان إلهادا عليه ، ليعمل به .

ومنها : ما ذكره شيخنا أبو على ، أن ظهر آدم لا يسع هذا الجمع العظيم ، وهذا شنيع من الكلام .

ومنها : أنه ذكر أنه خلقنا من نطفة ، وكل ولد ولد من أب ومن نطفة ، فلو خلقهم ابتداء لا من شيء ، لم يصح ذلك .

ومنها : أن الجزء الواحد ، لا يجوز أن يكون حيا عاقلا ، لأن تلك البنية ، لا تحمل الحياة ، فلا بد من أن يكون مؤلفا من أجزاء ، وحينئذ لا يصح أن يكون الجميع فى ظهر آدم .

ومنها : أنه يفتح باب التناسخ ، والقول بالرجعة ، لأن لهم أن يقولوا : إذا جاز الإعادة ثمة ، لم ينكر التناسخ .

ومنها : أنه لا بد أن يكون فيه فائدة ، وفائدته أن يذكره ليجرى على تلك الطريقة ، وإذا لم يذكره بطلت فائدته .

ومنها : أن الاعتراف لا يصح إلا وقد تقدم حال لهم عرفوا ذلك ، فكيف يصح في ابتداء الخلق ، إلى غير ذلك مما لا يقبله العقل .

ثم قال : قال مشايخنا رحمهم الله : والآية ظاهرها بخلاف قولهم من وجوه :
منها : أنه قال : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ) ولم يقل (من آدم) . وقال :
(مِنْ ظُهُورِهِمْ) ولم يقل (من ظهوره) . وقال (ذُرِّيَّتَهُمْ) ولم يقل (ذريته) .

ومنها : أنه قال : (أَنْ تَقُولُوا) يعنى فعل ذلك ، لكيلا تقولوا : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَفْلِينَ . وأى غفلة أعظم من أن جميع العقلاء لاذكرون شيئاً من ذلك .

ومنها : أنه قال : (إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا) ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك . وكل ذلك يبين فساد ما قالوا . ولم يصحح أحد من مشايخنا هذه الرواية ، ولا قيمتها ، بل ردها . غير أبي بكر أحمد بن علي ، فإنه جوز ذلك من غير قطع على صحته . غير أنه قال : ليس ذلك بتأويل الآية ، وذكر أن فائدة ذلك أن يجروا على الأعراق الكريمة في شكر النعمة ، والإقرار بالربوبية . كما قال : إنهم ولدوا على الفطرة . قال : وأخرجهم كالذر ثم ألهمهم حتى قالوا بلى . انتهى ما قاله الجشمي .

الثاني - تدل الآية على فساد التقليد في الدين ، وتدل على أنه تعالى أزال العذر، وأزاح العلة ، وبعدها لا يعذر أحد . ذكره الجشمي .

الثالث - استدلل بهذه الآية والأحاديث المتقدمة في معناها ، أن معرفته تعالى فطرية ضرورية؛ قال تعالى ^(١) (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ) وقال تعالى ^(٢) (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ

(١) [١٤ / إبراهيم / ١٠] . (٢) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] .

مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ). (قُلْ) ^(١) مِنْ رَبِّ السَّمَوَاتِ السَّمِيعِ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

وعن عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ لأبي : يا حصين : كم تعبد اليوم لها؟ قال أبى : سبعة ستا في الأرض ، وواحداً في السماء ! قال : فأيهم تعدُّ لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذي في السماء - رواه الترمذى ^(٢) - فالله تعالى فطر الخلق كلهم على معرفته فطرة توحيد ، حتى من خلق مجنوناً مطبقاً مصطليماً لا يفهم شيئاً ، ما يخلف إلا به ، ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس ، فطرة بالغة .

قال التقي ابن تيمية : إن الإقرار والاعتراف بالخالق فطريٌّ ضروريٌّ في نفوس الناس . وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته ، حتى يحتاج إلى نظر يحصل له به المعرفة وهذا قول جمهور الناس ، وعليه حذاق النظر ؛ أن المعرفة تحصل بالضرورة ، وقد تحصل بالنظر لمن فسدت فطرته ، كما اعترف بذلك خلائق من أئمة المتكلمين .

وقال أيضاً : ذهب طوائف من النظر إلى أن معرفة الله واجبة ، ولا طريق لها إلا بالنظر فأوجبوا النظر على كل أحد . وهذا القول إنما اشتهر في الأمة عن المعتزلة ونحوهم . ولهذا قال أبو جعفر السمنانيّ وغيره : إيجاب الأشعريّ النظر في المعرفة بقية بقيت عليه من الاعتزال .

وذكر رحمه الله أن الذي يدل عليه كلام الأئمة والسلف - وهو أنعدل الأقوال - أن النظر يجب في حال دون حال ، وعلى شخص دون شخص . فوجوبه من العوارض التي تجب على بعض الناس في بعض الأحوال ، لا من اللوازم العامة . والذين أوجبوا النظر ليس معهم ما يدل على عموم وجوبه ، إنما يدل على أنه قد يجب ، كقوله تعالى ^(٣) : (قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٨٦ و ٨٧] . (٢) أخرجه في : ٤٥ - كتاب الدعوات ،

٦٩ - باب حدثنا أحمد بن منيع . (٣) [١٠ / يونس / ١٠١] .

وَالْأَرْضِ) وقوله^(١) (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) فإنه خطاب مع التكبرين الجاحدين ، أمرُوا بالنظر ، ليعرفوا الحق ، ويقرّوا به ، ولا ريب أن النظر يجب على هؤلاء .

قال أبو حيان التوحيدى في (مقابساته) في المقابلة الثانية والأربعين : قيل لأبي الخير : حدثنا عن معرفة الله ، تقدس وعلا ، ضرورة هي أم استدلال ؟ فإن التكلمين في هذا اختلفوا اختلافًا شديدًا ، وتناذبوا عليه تناذبًا بعيدًا ، ونحِب أن يحصل لنا جواب ، فيفسر على حد الاختصار مع البيان .

فقال : هي ضرورة من ناحية العقل ، واستدلال من ناحية الحس . ولما كان كل مطلوب من العلم إما أن يطالب بالعقل في المعقول ، أو بالحس في المحسوس ، ساء أن يظن مرة أن معرفته تعالى اكتساب واستدلال ، لأن الحس يتصفح ويستقوى بمؤازرة العقل ومظاهرتة وتحصيله . وأن يظن تارة أنها ضرورة ، فإن العقل السليم من الآفة ، البريء من العاهة ، يبحث على الاعتراف بالله تقدس اسمه ، ويحظر على صاحبه جرده وإنكاره والتشكك فيه ، لكن ضرورة لاثقة بالعقل . لأن ضرورة العقل ليست كضرورة الحس . لأن ضرورة الحس فيها جذب واختيار ، وحمل وإكراه . وضرورة العقل لطيفة جدًا . لأنه يعظم ويلاطف وينصح ويخفف .

ثم ضرب مثلًا لطيفًا ، وقال بعده : فعلى هذا ، فإن الله تقدس اسمه ، معروف عند العقل بالاضطرار ، لا ريب عنده في وجوده ، ومستدل عليه عند الحس ، لأنه يستحيل كثيرًا ، ولا يثبت أصلًا ، فمن استدتل ترقى من الجزئيات . ومن ادعى الاضطراب انحدر من السكليات . وكلا الطريقين قد وضع بهذا الاعتبار ، وكفى مؤونة الخبط والإكثار . فأما ما ينظر منه في الجدال ، فلا يرث منه إلا الشك والفرقة والحمية والعصبية . وهناك للهوى ولادة وحضنة ، وللباطل استيلاء وجولة ، وللحيرة ركود وإقامة . أخذ الله بأيدينا ، وكفانا الهوى الذى يؤذينا - انتهى - .

وقوله تعالى :

(١) [٨٦ / الطارق / ٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى مثل ما ذكرنا ، بُيِّنُ الأدلة والحجج ، ليرجعوا إلى الحق . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

« وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ » أى على قومك أو على اليهود « نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا » أى علم الكتاب ، فلفظ به حتى تعلم وفهم المعاني ، وصار عالماً بها « فَانْسَلَخَ مِنْهَا » بأن نزع العلم عنه ، فكفر بها ، وخرج منها خروج الحية من جلدها « فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ » أى فالحقه وأدركه وصار قريباً له حتى أضله « فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ،

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ

مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا » أى لعظمناه بالعمل بها « وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ »

أى مال إلى الدنيا ، ورغب فيها « وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » وذلك لأنه استوى في حقه إتياء الآيات ، والتسكيف بها ، والتعظيم من أجلها ، وعدم ذلك . كالكل يدلع لسانه بكل حال ، إن تحمل عليه ، أى

تشدّ عليه وتهيجه ، أو تركه غير متعرض له بالجل عليه ، فلهته موجود في الحالتين جميعاً
« ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا » أي من التوراة أو غيرها « فَأَقْصِ الْقَصَصَ لَهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ)
« سَاءَ مَثَلًا » أي مامثل به « الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا » أي حيث شبهوا بالكلاب ،
إما في استواء الحالتين في النقصان ، وأنهم ضالون ، وعظوا أم لم يعظوا كما قدمنا .
وإما في الخسة ، فإن الكلاب لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز
الهدى والعلم ، وأقبل على هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله . ولهذا ثبت في
الصحيح عنه عليه السلام قال ^(١) : ليس لنا مثل السوء . العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه .
« وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ » اعلم أن من السلف من ذهب إلى أن هذه الآية مثل ضربه
الله لمن عرض عليه الإيمان فأبى أن يقبله وتركه ، وهو قول قتادة وعكرمة واختاره أبو مسلم ،
حيث قال : قوله (ءَايَاتِنَا ءَايَاتِنَا) أي بينهاها ، فلم يقبل ، وعرى منها . وسواء قولك : انسلخ
وعرى وتباعد . وهذا يقع على كل كافر لم يؤمن بالأدلة ، وأقام على الكفر . قال : ونظيره
قوله تعالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدَقًا لِمَا مَعَكُمْ) ^(٢)
وقال في حق فرعون : (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى) ^(٣) . ومنهم من ذهب
إلى أن الموصول فيها أريد به معين ، فروى عن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيّب وزيد بن

(١) أخرجه البخاري في : ٥١ - كتاب الهبة ، ٣٠ - باب لا يحل لأحد أن يرجع

في هبته وصدقته ، حديث رقم ١٢٦٤ عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم في : ٢٤ - كتاب الهبات ، حديث ٥ - ٨ (طبعتنا) .

(٢) [٤ / النساء / ٤٧] . (٣) [٢٠ / طه / ٥٦] .

أسلم وأبى روق أنه أمية بن أبى الصلت ، فإنه كان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولا في ذلك الوقت ، ورجا أن يكون هو ، فلما أرسل الله محمداً عليه الصلاة والسلام ، حسده ، ثم مات كافراً ، ولم يؤمن بالنبي ﷺ . وهو الذى قال فيه رسول الله (١) (إنه آمن شعره وكفر قلبه) يريد أن شعره كشعر المؤمنين ، وذلك أنه يوحد الله في شعره ، ويذكر دلائل توحيده .

وقيل : نزلت في أبى عامر الراهب ، الذى سماه النبي ﷺ (الفاسق) ، كان يترهب في الجاهلية . فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار والشقاق ، وأتى قيصر واستنجد على النبي ﷺ ، فأتاه هناك طريداً وحيداً . وهو قول سعيد ابن المسيب .

وقيل نزلت في منافق أهل الكتاب . كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنكروه . عن الحسن والأصم .

وقيل : إنه فرعون . والآيات آيات موسى ، كأنه لما اقتص أنباء بني إسرائيل عاد إلى قصة فرعون وضرب له المثل .

ومن الأقوال التى تناقلها المفسرون أنها نزلت في بلعام بن بعور ، ويحكى عنه قصة لم تُرو في جوامع الآثار الصحيحة عندنا ، ولا هي مطابقة لما عند أهل الكتاب . فقد ذكر نبؤه في الفصل الثانى والعشرين والثالث والعشرين من سفر العدد ، من تاريخ التوراة ، بغير ما رويته المفسرون عنه . ثم رأيت الجشمى لم يصحح ذلك ، فحمدت المولى على الموافقة . وعبارته : « وعن مجاهد قال : هو نبي يقال له بلعم . رشاه قومه فكفر . وهذا لا يجوز ، لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر . لأن ذلك ينقر الخلق عن الأنبياء ، والقبول منهم ، ويحقرهم

(١) في كشف الخفاء رقم ١٩ ، رواه أبو بكر بن الأنباري في كتاب المصاحف ، والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس . قال المناوى : وسند الحديث ضعيف .

في النفوس ، ولأنهم حجج الله على خلقه ، اصطفاهم . فالأقرب أنه لا يصح عن مجاهد « انتهى - وهو كذلك لأن من قرأ نبأه في السفر المتقدم ، رأى من ثباته ، وعدم موافقته لبالاق ، ملك مؤاب ، على ما أراده منه - ما يبرئه عن ذلك .
تنبيه :

قال الجسمي : إن قيل : كيف تتصل الآية بما قبلها ؟ قلنا : على القول بأنه عني بها فرعون فقد اتصلت قصته بقصة بني إسرائيل . وقيل لما نهى عن تقليد الآباء في الدين ، بين في هذه الآية حال علماء السوء ، الذين يختارون الدنيا على الآخرة . نهياً عن تقليدهم واتباعهم ، كما نهى عن تقليد الآباء . وقيل : لما تقدم ذكر أخذ الميثاق ، بين حال من آتاه الله الآيات فانسلخ منها ولم يتبعها . ١ هـ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى ، وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

«مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» قال أبو السعود:

لما أمر النبي ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثلهم ، ليتفكروا فيه ، ويتركوا ما هم عليه من الإخلاد إلى الضلالة ، ويهتدوا إلى الحق - عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل ، وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية في حصول الاهتداء ، من غير تأثير لها فيه ، سوى كونها دواعي إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله ، حسبما نيظ به خلق الله تعالى إياه ، كسائر أفعال العباد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَانُوا لَنَا نَعَمٌ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا » أى خلقنا « لِجَهَنَّمَ » أى لدخولها والتعذيب بها « كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ » وهم الكفار من الفريقين ، الموصوفون بقوله تعالى : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا » أى آيات الله الهادية إلى السكالات « وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا » أى دلائل وحدته ، بَصَرَ اعتبار « وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا » أى الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ، معنى أنهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التى جعلها الله سبيلاً للهداية ، كما قال تعالى (١) (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَوْفَىٰ فِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا آفَاتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) . « أُولَٰئِكَ كَانُوا لَنَا نَعَمٌ » أى السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها ، إلا فى الذى بقيتها ، كقوله تعالى : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً) (٢) أى ومثلهم فى حال دعائهم إلى الإيمان ، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها ، لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول . وقوله تعالى : « بَلْ هُمْ أَضَلُّ » أى الأنعام ، إذ ليس للأنعام قوة تحصيل تلك السكالات ودفع تلك النقائص . وهم مع ما لهم من تلك القوة قد خلوا عن السكالات ، وعن دفع أصدادها ، فكانوا أربداً حالاً منها ، لنقصهم مع وجود قوة السكال فيهم . وأيضاً : الأنعام تبصر منافعها ومضارها ، فتلزم بمض ما تبصره . وهؤلاء ، أكثرهم يعلم أنه معاند ، فيقدم على النار . وأيضاً : الأنعام قد تستجيب لراعيها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، وأيضاً : إنها تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها ، وإما بتسخيرها ، بخلاف هؤلاء ؛ فإنهم خلقوا ليعبدوا الله ، ويوحده ،

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٦] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧١] .

فكفروا به وأشركوا «أَوْ لَآئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» أى عن تلك الكلالات والنقائص ، ليهتموا لتحصيلها ودفعها ، اهتمامهم لجر المنافع الدنيوية ، ودفع مضارها .

تنبيه :

قال أبو السعود : المراد بهؤلاء الذين ذرؤوا لجهنم ، الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ، لكن لا بطريق الجبر ، من غير أن يكون من قِبَلِهِمْ ما يؤدى إلى ذلك ، بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبداً ، بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر . فهذا الاعتبار جعل خلقهم مغنياً بها ، كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطري للعبادة ، وتمكنهم التام منها ، جعل خلقهم مغنياً بها . كما نطق به قوله تعالى ^(١) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . وقوله تعالى : القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ » روى مقاتل أن رجلاً دعا الله فى صلاته ، ودعا الرحمن . فقال بعض المشركين : إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعو اثنين ؟ فنزلت الآية . و (الحسنى) تأنيث (الأحسن) . والمعنى : لله الأسماء التى هى أحسن الأسماء وأجلها ، لإنبائها عن أحسن المعانى وأشرفها « فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ » أى يعملون عن الإقرار بها ويحجدونها ، ويعدلون عنها كفرًا بها . كقوله تعالى ^(٢) : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) أى زادهم ذكر الرحمن نفورًا . ولذا قال تعالى ^(٣) : (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) . وقوله تعالى « سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يعنى فى الآخرة ، من جحدهم إياها ونفورهم عن الإيمان بها .

(١) [٥١/الذاريات/٥٦] . (٢) [٢٥/الفرقان/٦٠] . (٣) [١٧/الإسراء/١١٠] .

تنبيهات

الأول - قال السيد محمد بن المرتضى اليماني في (إشار الحق) : مقام معرفة كمال هذا الرب الكريم . وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد ، الذي لا بد منه . لأن كمال الذات بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذات لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عدّ مذهب الملاحدة في مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكائدهم للإسلام . فإنهم عكسوا المعلوم عقلاً وسمياً . فذموا الأمر الحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفي والجحد المحض . وضادوا كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) الآية . وقال ^(١) (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) الآية - فما كان منها منصوباً في كتاب الله ، وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحده ، أو زعم أن ظاهره اسم ذم لله سبحانه . وما كان في الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هذه المرتبة ، أو كان مختلفاً في صحته ، لم يصح استعماله . فإن الله أجل من أن يسمى باسم لم يتحقق أنه تسمى به . انتهى .

الثاني - روى الشيخان ^(٢) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من حفظها دخل الجنة ، والله وتر يحب الوتر . وفي رواية : من أحصاها . قال البخاري ^(٣) : أحصيناها : حفظناه وأخرجه الترمذي ^(٤) وزاد سوق الأسماء معدودة :

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] . (٢) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب

الدعوات ، ٦٨ - باب لله مائة اسم غير واحد ، حديث رقم ١٣١٣ .

وأخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٦٥٥ (طبعنا) . (٣) أخرجه في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٢ - باب إن لله مائة اسم إلا واحدا .

(٤) أخرجه الترمذي في ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨٢ - باب حدثنا يوسف بن حماد البصري .

ثم قال : ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث . ورواه ابن ماجه^(١) أيضاً . فسرّد الأسماء بزيادة وتقصان .

قال الحافظ ابن كثير : والذي عول عليه جماعة من الحفاظ ؛ أن سرّد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوايد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانيّ عن زهير ابن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أي أنهم جمعوها من القرآن . كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغويّ . انتهى .

وقال النووي : اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى . وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما المقصود من الحديث الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها ، لا الإخبار بحصرها . ولهذا جاء في الحديث^(٢) الآخر : أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك . وقد ذكر الحافظ أبو بكر ابن العربي المالكيّ عن بعضهم ؛ أن لله ألف اسم . انتهى .

وقال السيد اليمانيّ^(٣) في (إيثار الحق) : عادة المتكلمين أن يقتصروا هنا على اليسير من الأسماء ، ولا ينبغي ترك شيء منها ، ولا اختصاره ! فإن ذلك كالاختصار للقرآن الكريم . ولو كان منها شيء لا ينبغي اعتقاده ولا ذكره ، ما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم . وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد في الحديث المشهور في تعدادها ، مع الاختلاف الشهير في صحته . وحسبك أن البخاريّ ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوله . واتفقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه ، ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم في وعده ، من أحصاها ، بالجنة كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء . فأما إذا كانت أسماءه سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاختصار على ما في كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو الفادر وقد

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٣٤ - كتاب الدعاء ، ١٠ - باب أسماء الله عز وجل ،

حديث ٣٨٦٠ و ٣٨٦١ (طبعتنا) (٢) من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحايي) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) (٣) الصفحة رقم ١٦٩ .

ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروى بالضرورة والنص . أما الضرورة ، فإن في كتاب الله أكثر من ذلك . وأما النص ، فحديث ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال (١) : ما قال عبد أصابه هم أو حزن : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمّتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك . أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً - رواه أحمد ، وأبو عوانة في (صحيحه) وأبو يعلى والبخاري .

ثم أخذ اليماني يذكر ما وجد من الأسماء منصوفاً ، غير معرّج على التقليد : فأنظره في (إيثار الحق) ، فإنه جود البحث بمنزلة شريف .

الثالث - قال بعض مفسري الزيدية في قوله تعالى (فَادْعُوهُ بِهَا) : المعنى سموه بها ، وفي ذلك أمر بدعائه بالأسماء الحسنى ، وهو أمر نذب إذا حمل على التلاوة بالتسعة والتسعين ، وحث على ذلك في الحديث عنه ﷺ . وإن أريد التسمية بما فيه مدح ، دون ما فيه إجلاد ، فذلك وجوب .

الرابع - قال السيد اليماني في (إيثار الحق) : هل يجوز تسمية محامد الرب تعالى وأسمائه الحسنى صفات له سبحانه وتعالى ؟ قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) (٢) وذكر أهل التفسير واللغة أنه الوصف الأعلى ، وكذلك جاء في كلام علي عليه السلام أنه قال : فعليك أيها السائل بمادل عليه القرآن من صفته - ذكره السيد أبو طالب في (الأمالي) بإسناده ، والسيد الرضي في (النهج) كلاهما في جوابه عليه السلام ، على الذي قال له :

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)
والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) . (٢) [١٦ / النحل / ٦٠] .

صف لنا نار ربنا - وهذا لا يعارض قوله عز وجل (سُبْحَنَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ)^(١) لأنه لم ينزه ذاته عن الوصف مطلقاً ، حتى يعم الوصف الحسن ، وإنما ينزه عن وصفهم له بالباطل القبيح . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

« وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا » أى للجنة ، لأنه فى مقابلة (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ)^(٢) - قاله النسفى - « أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ » أى يدعون إليه « وَبِهِ يَعْدِلُونَ » أى يعملون ويقضون . وقد جاء فى الآثار ؛ أن المراد بالأمة ، هذه الأمة المحمدية . وقال قتادة : بلغنا أن النبىؐ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها . وعن الربيع بن أنس - فى هذه الآية - قال : قال رسول الله ﷺ : إن من أمتى قوماً على الحق ، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل . وفى الصحيحين^(٣) عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة . وفى رواية : حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك .

قال الشهاب : استدل بالآية على أن الإجماع حجة فى كل عصر ، وعلى أنه لا يخلو عصر من مجتهد إلى قيام الساعة .

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٧٩] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ١٠ - باب قول النبىؐ ﷺ

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون ، وهم أهل العلم » حديث رقم ٦٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٧٤ و ١٧٥ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنأخذهم بالعذاب من طريق لا يعلمونها ، أو نفتح لهم من الأحوال ما يلائم أهويتهم ، ثم نهلكهم . وأصل الاستدراج : أن يتدرج إلى الشيء قليلاً قليلاً ، تشبيهاً بمن يرق درجة درجة ، حتى ينتهى إلى العلو . وقيل : أصله من الدرج الذى يطوى فكأنه يطوى منزلة بعد منزلة ، كما يطوى الدرج . وقيل : لأنه من الدرجة فيكون ، لأنه ينحط درجة بعد درجة حتى ينتهى إلى حال الهلاك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (وَأْمُلِ لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأْمُلِ لَهُمْ » أى أمهلهم ليزدادوا إنمًا « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى قوى شديد . والمعنيون بهذا الخطاب كفار مكة . قال فى (التنوير) : هم أبو جهل وأصحابه المستهزئون ، أخذهم الله بعذابه فى يوم (أُحُد) ، وأهلك كل واحد بهلاك غير هلاك صاحبه . انتهى . ويدل قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ ، إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ » أى كما يحتلقون . والاستفهام للإنكار والتوبيخ . أى : أو لم يتفكروا فى أنه ليس بصاحبهم الذى هو أعظم الأمة الهادية بالحق ، شيء من جنة . وجوز أن يكون الكلام تم عند قوله (أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا) إنكاراً لعدم تفكرهم فى شأنه ، الموقف على صدقه ، وصحة نبوته . ثم ابتدأ نفي الجفة عنه تعجباً وتبكيثاً .

و(الْجَنَّةُ) مصدر، كالجلسة، بمعنى الجنون، وليس المراد به الجن. كما في قوله تعالى^(١): (مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ) ، لأنه يحوج إلى تقدير مضاف ، أى مسّ جنة أو تخبطها . والتعبير عنه ﷺ بـ (صاحبهم) للإيدان بأن طول مصاحبتهم له ، مما يطلعهم على زاهته عما ذكر ، فيه تأكيد للتكثير ، وتشديد له « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى رسول خَوْفٍ « مُبِينٌ » أى موضح إنذاره ، مبالغة في الإعذار. ولما نعى عليهم تفكرهم في شأنه ﷺ ، أنكر إخلالهم في التأمل بالآيات التكوينية المنصوبة في الآفاق والأنفس ، الشاهدة بصحة الآيات المنزلة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا » أى نظر استدلال « فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ » من الشمس والقمر والنجوم والسحاب . والمملكوت: الملك العظيم « وَالْأَرْضِ » أى وفي ملكوت الأرض، من البحار والجبال والدواب والشجر « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » أى وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم (الشيء) ، من أجناس لا يحصرها العدد ، ولا يحيط بها الوصف « وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ » عطف على (ملكوت) . أى فى احتمال أن يهلكوا عما قريب ، فيفارقوا الدنيا ، وهم على أتعس الأحوال « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ » أى القرآن « يُؤْمِنُونَ » أى إذا لم يؤمنوا به ، وهو المعجز الجامع لكل ما يفيد الهداية . وفى هذا قطع لاحتمال إيمانهم رأساً ، ونفى له بالسكينة .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على وجوب النظر في الأدلة ، وأنسأ طريق المعرفة . وتدل على أنه لا شيء ينظر فيه ، إلا ويعرف الله تعالى به ..

(١) [١١٤ / الناس / ٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

«مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» أى فى كفرهم يتخبرون .
يعنى أن من كتب عليه الضلالة ، فلا يهديه أحد ، ولا يغنيه النظر ، ولا الإنذار . كما قال تعالى^(١) : (قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)^(٢) (وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ وَ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ وَ مِنْ اللَّهِ شَيْءٌ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ،

لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ » أى عن قيامها وحينها « أَيَّانَ مُرْسَلُهَا » أى متى إرساؤها أو وقت إرسائها ، أى إثباتها وإقرارها . والرسو يستعمل فى الأجسام الثقيلة ، وإطلاقه على المعانى ، تشبيها لها بالأجسام « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ » أى لا يظهرها فى وقتها إلا هو « ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى عظمت وكبرت على أهلها لهولها وما فيها من المحاسبة والمجازاة . أو ثقل علم وقتها على أهلها . أو عظم وصفها على أهل السموات والأرض ، من انتشار النجوم ، وتكوير الشمس ، وتسمير الجبال « لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً » أى فجأة على حين غفلة منكم « يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا »

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] .

أى عالم بها « قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن علمها عند الله ، لم يؤته أحداً من خلقه .

لطيفة :

قال الزمخشري : فإن قلت . لم كرر (يَسْأَلُونَكَ) و (إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ) ؟ قلت : للتأكيد ، ولما جاء به من زيادة قوله : (كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا) وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم ، لا يخلون المكرر من فائدة زائدة . انتهى .

وقال الناصر في (الاتصاف) : وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلقى إلا في الكتاب العزيز ، وهو أجل من أن يشارك فيها . وذلك أن المعهود في أمثال هذا التكرير ، أن الكلام إذا بُني على مقصد ، واعترض في أثناؤه عارض ، فأريد الرجوع لتتيمم المقصد الأول ، وقد بعد عهده ، طرئ بذكر المقصد الأول ، لتتصل نهايته ببدايته . وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتى ، وهذا منها . فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِمُهَا) ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله : (قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي) إلى قوله (بَعَثَ) أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن في قوله : (كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا) وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده ، فطرئ ذكره تطرية عامة ، ولا زراه أبدا يطرى إلا بنوع من الإجمال ، كالتذكرة للأول ، مستغنى عن تفصيله بما تقدم . فمن ثم قيل : (يَسْأَلُونَكَ) ولم يذكر المسؤول عنه ، وهو (الساعة) اكتفاء بما تقدم فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضاً مجملاً ، فقال : (قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ) . وبلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد بسطه . ومن أدق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد ، تطرية للذكر ، قوله :

عَجِّلْ لَنَا هَذَا وَأَلْحِقْنَا بِذَا الشَّحْمِ إِنَّا قَدْ مَلَلْنَاهُ بَجَلٍ

أى فقط ، فذكر الألف واللام ، خاتمة للأول من الرجزين ، ثم لما استفتح الرجز الثانى ، استبعد العهد بالأولى ، فطرئ ذكرها ، وأبقى الأولى في مكانها . ومن ثم استدلت ابن جني .

على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء ، فهو بيت كامل ، وليس بنصف ، كما ذهب إليه أبو الحسن . قال : ولو كان بيتاً واحداً ، لم يكن عهد الأولى متباعداً ، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها . ألا ترى أن عبيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات ، وجعل آخر المصراع الأول (أَل) لم يعدها أول المصراع الثاني ، لأنها بيت واحد ، فلم ير عهدها بعيداً ، وذلك قول عبيد ابن الأبرص الأسدي :

يا خليلي اربعا واستخيرا الـ مَنْزِل الدَّارِسَ عَنْ أَهْلِ الْحِلَالِ
مِثْلُ سَحْقِ الْبَرْدِ عَفَى بَعْدَكَ الـ قَطْرُ مَغْنَاهُ وَتَأْوِيلُ الشَّمَالِ

اربعا : أقيما . الحلال : اسم امرأة . سَحْقُ البرد : يريد مثل البرد المسحوق أي البالي . وعفى ، بالتشديد : محا . القطر : المطر . مغناه . هو الموضع الذي كانوا يسكنونه . والشمال : بالفتح والكسر - من الرياح ، مأمَّته من مطلع الشمس وبنات نعش . وهي لاتسكاد تهب ليلا . وتأويلها : هبوبها النهار كله) ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً . فانظر هذه النكته ، كيف بالغت العرب في رعايتها ، حتى عدت القريب بعيداً ، والمتقاصر مديداً . فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان ، في صناعات العربية والبيان ، والله المستعان - انتهى - .

(والقصيدة بتمامها في (مختارات ابن الشجري) بالصفحة رقم ٣٧)

ثم أمره تعالى أن يخبر بعبوديته الكاملة ، بما ينبي عن عجزه عن علم الساعة بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أي لا أقدر ، لأجل نفسي ، على جلب نفع ما ،

ولا على دفع ضرٍّ ما « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى تملكه لى من ذلك بأن يلمنيه ، فيمكنى منه ، ويقدرنى عليه . وهذا كقوله تعالى فى سورة يونس ^(١) (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) . « وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ » أى النفع ، بترتيب أسبابه ، فكنت مثلاً أعد للسنة المجذبة من المحضبة ، ولوقت الغلاء من الرخص « وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ » أى الضر ، للتوقى عن أسبابه « إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » أى عبد أرسلت نذيراً وبشيراً ، وما من شأنى أنى أعلم الغيب . وقوله تعالى « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » يجوز أن يتعلق بـ (نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) جميعاً ، لأن المؤمنين هم المنتفعون بالندارة والبشارة ، أو يتعلق بـ (بَشِيرٌ) وحده ، ومتعلق النذير محذوف ، أى للكافرين ، وحذف للعلم به . وقال الشهاب : ليظهر اللسان منهم . ثم بين تعالى عظم جناية الكفرة فى جرائتهم على الإشراف ، بتذكير مبادئ أحوالهم المنافية له ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَّا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » وهى نفس آدم عليه السلام « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا » أى من جنسها ، كقوله تعالى ^(٢) : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) « لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » أى ليطمئن إليها ويميل ، ولا ينفرد ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، وبه آنس . وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ ، كما يسكن الإنسان

(١) [١٠ / يونس / ٤٨ و ٤٩] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢١] .

إلى ولده ، ويحبه محبة لكونه بضعة منه . وذُكِرَ (لَيْسَكُنْ) بعد ما أنثى في قوله (وَابْنَةً)
و (مِنْهَا زَوْجَهَا) ذهاباً إلى معنى النفس ، ليبين أن المراد بها آدم ، ولأن الذكر هو الذي
يسكن إلى الأنثى ويتغشاها ، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى . أفاده الزمخشري . « فَلَمَّا
تَغَشَّاهَا » أى وطئها . و (التَغَشَّى) كناية عن الجماع ، وكذلك الغشيان والإتيان « حَمَلَتْ
حَمَلاً خَفِيفاً » أى خف عليها ، وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألماً ، إنما هى النطفة ، ثم
العلاقة ، ثم المضغة « فَمَرَّتْ بِهِ » أى فاستمرت به خفيفة ، وقامت وقعدت « فَلَمَّا أَثْقَلَتْ »
أى صارت ذات ثقل ، لكبر الولد فى بطنها « دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا » أى
ولداً سوياً قد صلح بدنه ، أو غلاماً « لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى على نعمائك التى
منها هذه النعمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ، فَتَعَالَى اللَّهُ
عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا » أى كما طلبا « جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا » أى أخلا
بالشكر فى مقابلة نعمة الولد الصالح أسوأ إخلال ، إذ استبدلوه بالإشراك . وقوله تعالى :
« فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » تنزيه فيه معنى التعجب .

تنبيه :

هذه الآية سيقت توبيخاً للمشركين فى جنائيتهم بالشرك ، ونقضهم ميثاقهم ، فى جريهم
على خلاف ما يعاهدون الله عليه . وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس
واحدة ، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن . ثم إنشأه إياهم بعد الغشيان ، متدرجين
فى أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة . ثم بين إعطائهم المواعيد ، وإن
آتاهم ما يطلبون وولد لهم ما يشتهون ، ليكون من الشاكرين . ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم
هذه النعم ، التى امتن سبحانه بها عليهم ، ونقضهم ميثاقهم فى إفراذه بالشكر ،

حيث أشركوا معه غيره في ذلك. ونظير هذه الآية، في الإخبار عن تبديل المشركين نعمة الله كفرًا، قوله تعالى (١) في سورة يونس (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرْنَ بِيَمٍ يَبْرِجَ طَیِّبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْبَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) وقد ذكر المفسرون ههنا أحاديث وآثارًا تفهم أن المراد بهذا السياق آدم وحواء. ولا حاجة بنا إلى روايتها لأنها واهية الإسناد معلولة، كما بينه الحافظ ابن كثير في (تفسيره). وتقبل ثلثين من السلف لها وتلقاها - لا يجدى في صحتها شيئًا. إذ أصلها مأخوذ من أقاصيص مسلمة أهل الكتاب، كما برهن عليه ابن كثير. وتحويل بعضهم بأنها مقتبسة من مشكاة النبوة، إذ أخرجها فلان وفلان، من تنميق الألفاظ لتمزيق المعاني؛ فإن المشكاة النبوية أجل من أن يقتبس منها إلا كل ما عرفت جودته.

إذا علمت ذلك، تبين لك أن من استند إلى تلك الأحاديث والآثار، فذهب إلى أن المراد بالفسس الواحدة وقرينتها، آدم وحواء، ثم أورد على نفسه أنهما بريئان من الشرك، وأن ظاهر النظم يقتضيه، ثم أخذ يؤوله، إما بتقدير مضاف، أي جعل أولادهما له شركاء، فيما آتى أولادهما، وإما بأن المراد جعل أحدهما وهو (حواء) من إطلاق المثنى وإرادة المفرد، وإما بغير ذلك - فإنه ذهب في غير مذهب.

وقد قرر ما ارتضيناه في معنى الآية غير واحد. قال الحسن البصري، فيما روى عنه ابن جرير: إن الآية عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده. وفي رواية عنه: كان هذا في بمض الليل، ولم يكن بآدم.

قال ابن كثير: والأسانيد إلى الحسن، في تفسير هذا، صحيحة، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية.

(١) [١٠ / يونس / ٢٢ و ٢٣].

قال : ولو كان الحديث المرفوع ، في أنها في آدم وحواء ، محفوظاً عنده من رواية رسول الله ﷺ ، لما عدل عنه هو ولا غيره ، لاسيما مع تقواه وورعه . فهذا يدل على أنه - إن صح - موقوف على الصحابي ، لا مرفوع . انتهى .

وقال القفال : إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل ، وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم ، وقولهم بالشرك . وتقرير هذا الكلام ، كأنه تعالى يقول : هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة ، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية ، فلما تغشى الزوج زوجته ، وظهر الحمل ، دعا الزوج والزوجة ربهما ، لأن آتينا ولدًا صالحًا سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك ، فلما آتاها الله ولدًا صالحًا سوياً ، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها ، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبايع ، كما هو قول الطبائعيين . وتارة إلى الكواكب ، كما هو قول المنجمين . وتارة إلى الأصنام والأوثان ، كما هو قول عبدة الأصنام .

وقال الناصر في (الانتصاف) - متعقباً على الزمخشري - : الأسلم والأقرب ، والله أعلم ، أن يكون المراد جنسي الذكر والأنثى ، لا يقصد فيه إلى معين . وكلأن المعنى - والله أعلم - خلقكم جنساً واحداً ، وجعل أزواجكم منكم أيضاً ، لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر ، الجنس الآخر ، الذي هو الأنثى ، جرى من هذين الجنسين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس ، وإن كان فيهم الموحدون ، على حد (بنو فلان قتلوا قتيلاً) يعني من نسبة ما صدر من البعض إلى الكل .

فائدة :

قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة هذه الآية أنه تعالى لما قال (فَلَمَّا أَتَمَّمْتِ) جعل حال الإتمال يخالف ما قبله ، وأنه يختص فيه الدعاء لأجل أنه حال الخوف . وقد ذهب الهادي إلى أن الحامل إذا أتى عليها من الحمل ستة أشهر ، كانت تصرفاتها كتصرفات المريض ،

تنفذ من الثالث . وهو قول مالك والليث ، واحتجاً بالآية ، لأنه تعالى فرق بين حال الخفة والإثقال . وقال غيرها : تصرفها من الجميع ، ما لم يأخذها الطلق . قلنا : إنه يجوز عليها بعد الستة ، وضع الحمل في كل وقت . انتهى .

ثم قال : ودلت الآية على أنه يجوز الدعاء لطلب أمور الدنيا ، وإن حصول الولد منة يجب الشكر عليها . انتهى .

ثم استأنف تعالى توبيخ المشركين كافة ، واستقباح إشراكهم ، وإبطاله بالكلية ببيان شأن ما أشركوا به سبحانه ، وتفصيل أحواله القاضية ببطلان ما اعتقدوه في حقه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (أَيْشُرْكَونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

« أَيْشُرْكَونَ » أى بخالق الأشياء تعالى وتقدس « مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا » أى لا يقدر على خلق شئ ، كقوله تعالى^(١) : (يَسْأَلُهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ وَ- ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ) أى : ومن هذه صفته كيف يعبد ؟ ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعبده لا محالة « وَهُمْ يُخْلَقُونَ » أى بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل^(٢) عليه الصلاة والسلام : (اتَّعَبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ)

« وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا » أى لعبدتهم إذا حَزَبَهُمْ أمر « نَصْرًا » أى بجلب نفع ، أو دفع ضرر « وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ » إذا اعترتهم حادثة من الحوادث ، كما قال تعالى :

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] . (٢) [٣٧ / الصافات / ٩٥] .

(وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) ^(١) وكما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ، ويهينها غاية الإهانة .

وقد حكى ابن كثير أن معاذ بن عمرو بن الجوح ، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما أسلما لما قدم النبي ﷺ المدينة ، وكانا شابين ، فسكانا يحدوان في الليل على أصنام المشركين ، يكسرانها ويتلفانها ، ويتخذانها حطباً للأرامل ، ليعتبر قومهما . وكان لعمر بن الجوح - وكان سيداً في قومه - صنم يعبده ويطيئه ، فكانا يجيئان في الليل ، فينكسانه على رأسه ، ويلطخان به بالمذرة . فيجىء عمرو بن الجوح ، فيرى ما صنعا به ، فيغسله ويطيئه ، ويضع عنده سيفاً ، ويقول له : انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضاً . حتى أخذه مرة ، فقرناه مع كلب ميت ، ودلياه في جبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجوح ، ورأى ذلك ، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل ، وقال :

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهًا مُسْتَدِنٌ لَمْ تَكِ وَالْكَلْبُ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ
(مستدن : ذليل مستعبد . والقرن : الجبل) .

ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيداً ، رضى الله عنه وأرضاه .
(انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ طبعة الحلبي . وص ٣٠٣ طبعة جوتنجن) .

تنبيه :

قال الجشمي : تدل الآية على صحة الحجاج في الدين ، لأن قوله : (أَيْشِرُ كُونَ مَا لَا يَخْلُقُ . . .) الآية - حجاج . وتدل على أن المستحق للعبادة الذي يخلق وينعم ويقدر على النفع والضر هو الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)

« وَإِنْ تَدْعُوهُمْ » أيها المشركون « إِلَى الْهُدَى » أي إلى ما فيه رشاد « لَا يَتَّبِعُوكُمْ » أي إلى مرادكم وطلبتكم « سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ » يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، كما قال إبراهيم ^(١) : (يَسْأَلُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) . وجوز في الآية أن يكون المعنى : وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم وتطلبوا منهم ، كما تطلبون من الله ، الخير والشر ، لا يجيبوكم كما يجيبكم الله ، لقوله تعالى ^(٢) بعد : (فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة « عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ » أي مخلوقات ماثلة لكم « فَادْعُوهُمْ » أمر تعجيز وتبكيث . أي فادعوهم لطلب نفع ، أو كشف ضرر « فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أي في زعمكم أنها آلهة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ)

« أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ،

(١) [١٩ / مريم / ٤٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٩٤] .

أَمْ لَهُمْ إِذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا » تبكيت إثر تبكيت ، مؤكدا لما يفيدُه الأمر التمجيزي ، من عدم الاستجابة ، ببيان فقدان آلتها بالسكّية . فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية ، إنما تتصور إذا كان لها حياة وقوى محرّكة . ومدرّكة . وما ليس له شيء من ذلك ، فهو بمنزل من الأفاعيل بالمرّة . كأنه قيل : ألهم هذه الآلات التي بها تتحقّق الاستجابة ، حتى يمكن استجابتهم لكم ؟ وقد وجه الإنكار إلى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة ، تذكيراً للتبكيت ، وتثنية للتقريع ، وإشعاراً بأن انتفاء كل واحدة منها يحياها ، كافٍ في الدلالة على استحالة الاستجابة . أفاده أبو السعود .

ويقال : إنه لما جعلهم مثلهم ، كرّ على المثلية بالنقص بما ذكر ، لأنهم أدون منهم ، وعبادة الشخص من هو مثله لا تليق ، فكيف من هو دونه .

تنبيه :

قال الرازي : تعلق بعض أغمار المشبهة وجهاً لهم بهذه الآية ، في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى ، فقالوا : إنه تعالى جعل عدم هذه الأعضاء ، لهذه الأصنام ، دليلاً على عدم إلهيتها . فلو لم تكن هذه الأعضاء موجودة لله تعالى ، لكان عدمها دليلاً على عدم الإلهية ، وذلك باطل . فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء لله تعالى . . . الخ .

وأقول : الظاهر أن ملحظ مثبتتها هو أن عدمها يدل على النقص ، وهو محال على المولى تعالى ، إذ له كل صفة كمال . ومعلوم أن في إثباتها له تعالى من آيات آخر ، وأحاديث مشهورة ، ما يغني عن تكلف استنباطها له تعالى من مثل هذه الآية ، ولكن على المهاج السلفي ، وهو إثبات بالاتكليف ، إذ من كيف فقد مثل ، ومن نفي فقد عطل . فالمشبهة كالمعطلة ، والحق وراءهما ، والمسألة شهيرة .

ولما بين تعالى أن شركاءهم عاجزون ، أمر تعالى رسوله ﷺ أن يناصهم للمحاجة ، ويكرر عليهم التبكيت ، فقال سبحانه : « قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ » أي استنصروا بها على « ثُمَّ كِيدُونِ » أي اعملوا أنتم وهم في هلاك من حيث لا أشعر به ، حتى يمكن دفعه .

« فَلَا تُنْظِرُونِ » أى عَجَّلُوا فى كيدى ، فلا تمهلونى مدة أطلع فيها على كيدكم ، فإنى لا أبالى بكم . وقد أثبت نافع وأبو عمرو الياء فى (كِيدُونِ) ، والباقون حذفوها . ومثله فى قوله ^(١) : (وَلَا تُنْظِرُونِ) (ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ) ^(٢) قال الواحدى : والقول فيه أن الفواصل تشبه القوافى ، وقد حذفوا هذه الياءات إذا كانت فى القوافى ، كقوله :
يلبسُ الأحلاسَ فى منزلهِ يميده كاليهودى المصلِّ (وأصلها المصلَّى)
والذين أثبتوها ، فلأن الأصل هو الإثبات .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (إِنْ وَلِيََ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

« إِنْ وَلِيََ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ » تعليل لعدم المبالاة ، المنفهم من السوق انقهاً
جلياً . أى : الذى يتولى حفظى ونصرتى هو الله الذى أنزل الكتاب ، المشتمل على هذه العلوم
العظيمة النافعة .

قال أبو السمود : ووصفه تعالى بتزليل الكتاب ، للإشعار بدليل الولاية ، والإشارة
إلى علة أخرى لعدم المبالاة . كأنه قيل : لا أبالى بكم وبشركاكم ، لأن وليى هو الله الذى نزل
الكتاب الناطق بأنه وليى وناصرى ، وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم ، فضلاً عن
نصركم . وقوله تعالى « وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » تذييل مقرر لما قبله . أى ومن عاداته أن
يتولى الصالحين من عباده ، وينصرهم ولا يخذلهم . وفيه تعريض ، لمن فقد الصلاح ،
بالخذلان والمحق .

قال الحسن البصرى : إن المشركين كانوا يخوفون الرسول ﷺ بآلهمهم ، فقال تعالى
(ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ . . .) الآية - ليظهر لكم أنه لا قدرة لها على إيصال المضار إلى ،
بوجه من الوجوه . وهذا كما قال هود عليه السلام ، لما قال قومه (إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَاكَ

(١) [١٠ / يونس / ٧١] . (٢) [١١ / هود / ٥٥] .

يَعِضُّ إِلَهُتَيْنَا بِسُوءٍ، قَالَ إِنِّي آنَسْتُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ (... الآية^(١)).

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

«وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ» أى لا يقولون أحداً ، لأنهم لا يستطيعون نصركم «وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ» أى إذا قصد إضرارهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

«وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا» إذ ليس لهم سمع ، وإن صورت لهم الآذان . كما أنه لا بصر لهم ، وإن صورت لهم الأعين . كما قال : « وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » إذ صورت لهم الأعين «وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» لأنهم جاد عوملوا معاملة من يعقل ، فعبر عنهم بضمير ، لأنهم على صور مصورة كالإنسان . وهذا من تمام التعليل ، لعدم مبالاة بهم ، فلا تكرار .

وقال السدي : المراد بهذا (المشركون) وروى عن مجاهد نحوه . أى وإن كانوا ينظرون إليك ، فإنهم لا ينتفعون بالنظر والرؤية .

قال ابن كثير : والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير ، وقاله قتادة . أى تفصيلاً من التفكيك ، لأن الحديث عنهم الأصنام .

تنبيه :

من غرائب استنباط المعتزلة قولهم في هذه الآية - والعبارة للجشمتي - ما مثاله : تدل

(١) [١١ / هود / ٥٤ - ٥٦] .

الآية على أن النظر غير الرؤية ، وأنه لا يقتضى الرؤية ، لذلك أثبتهم ناظرين غير راثنين .
قال : ومثله قولهم نظرت إلى الهلال فلم أره . ويقسمون النظر إلى وجوه ، ولا تنقسم الرؤية .

قال : فبطل قول من يقول : إن قوله تعالى ^(١) (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) يقتضى الرؤية . انتهى .

ولا يخفى أن الأصل في إطلاق النظر هو الرؤية والإبصار ، ولذلك تتعاقب في هذا المعنى ، وتترادف كثيراً . وانفسا كما عرفت الرؤية في هذه الآية لقرينة كون المحدث عنهم جماداً ، ولا قرينة في الآية لتقاس على ما هنا . دع ماصح من الأخبار في وقوعها ، مما هو بيان لها - فافهم - .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصفح عن المشركين ، إذا جادلوه في شركائهم بعد هذا البيان ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

« خُذِ الْعَفْوَ » أى مكان الغضب ، ليكونوا أقبل للنصيحة « وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ » أى بالجميل المستحسن من الأفعال ، فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير ، ولما كان الناصح لغيره ، كالعرض لعدوانهم ، ثلث بما يحتاج إليه في ذلك فقال : « وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » أى المصرين على جهلهم ، فلا تكافى السفهاء بمثل سفههم ، ولا تمارهم ، واحلم عنهم ، وأغض على ما يسوؤك منهم .

تنبيهان :

الأول - قال بعض العلماء : إن سر الشريعة في الطباع والعادات ، هو تأييد المستحسن

(١) [٧٥ / القيامة / ٢٢ و ٢٣] .

ومحو المستقيح . وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وَأُمِرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْتَهَ عَنْ الْمُنْكَرِ)
فإن المعروف ما عرفته الطباع السليمة واستحسنته ، والمنكر ما أنكرته واستقبحته . ذلك
لأن غاية الشريعة راحة الخلق على حال ونظام معقولين ، فلا يصح الحكم بتوحيد العادات في
كل البلاد . اهـ .

الثاني - روى عن الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه قال : أمر الله نبيه ﷺ بمكارم
الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها .

وروى البخاري^(١) عن ابن عباس أن عيينة بن حصن قال لعمر بن الخطاب : هي يا ابن
الخطاب ! فوالله ، ما تمطينا الجزل ، ولا تحكم فينا بالعدل ، فنضب عمر ، حتى هم أن يوقع
به . فقال له الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ! إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : « خذِ الْعَفْوَ
وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، وإن هذا من الجاهلين .

قال ابن عباس : والله ! ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقفاً عند كتاب الله
عز وجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ » أي يصيبك من الشيطان وسوسة تثير غضبك على
جهلهم وإساءتهم ، وتحملك على خلاف ما أمرت فيه من العفو والأمر بالمعروف . « فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ » أي استجرب به ، وادعه في دفعه « إِنَّهُ سَمِيعٌ » أي لدعائك « عَلِيمٌ » أي باستعدادك .
قال الزمخشري : النزغ والنسخ : الغرز والنخس ، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على
المعاصي . أي فشبهت وسوسته وإغراؤه بالغرز ، وهو إدخال الإبرة وطرف العصا وما يشبهه

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧ - سورة الأعراف ، ٥١ - باب

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ، حديث ٢٠٠٤ .

في الجلد ، كما يفعله السائق لحث الدواب . وجعلُ النزعَ نازغاً مجاز بالإسناد ، لجعل المصدر فاعلاً ، كجد جدّه .

قال أبو السعود: وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره، وتنبية على أنه من الفوائيل الصعبة التي لا يتخلص من مضرتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠١] (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ » أى أصابهم « طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ » أى وسوسة وخطر منه « تَذَكَّرُوا » أى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه « فَإِذَا هُمْ » أى بسبب ذلك التذكر « مُبْصِرُونَ » أى مواقع الخطأ، ومكائد الشيطان. فينتهون عنها ولا يتبعونه . وقرئ (طيف) على أنه مصدر ، من قولهم (طاف به الخيال يطيف طيفاً) ، أو تخفيف (طيف) كلين وهين . وهذه الآية تأكيد وتقرير لما قبلها من وجوب الاستعاذة بالله تعالى ، عند نزع الشيطان ، وأن المتقين هذه عادتهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٢] (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)

« وَإِخْوَانُهُمْ » يعنى وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس . كقوله : (إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ) ^(١) ، وهم الذين لم يتقوا ؛ فلم يأت لهم التذكر ، ولا ينفع فيهم الاستعاذة لأن الشياطين « يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ » أى يكونون مدداً لهم بتكثير الشبه والتزيين والتسهيل في الضلال ، يعنى تساعد الشياطين على المعاصي ، وتسهيها عليهم وتحسنها لهم

(١) [١٧ / الإسراء ٢٧] .

« ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ » أى لا يمسكون عن إغوائهم ، حتى يصرتوا ولا يرجعوا : معنى أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ، ولا يسأمون من إمدادهم من الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية : وجوز عود الضمير لـ (الإخوان) ، أى لا يرجعون عن الغنى ولا يقصرون ، وإن بولغ عليهم في الوعظ بآيات الله ، وإقامة الدلائل ، ورفع الشبه ، وغير ذلك ، وجوز أيضاً أن يراد أيضاً بـ (الإخوان) الشياطين ، ويرجع الضمير إلى (الْجَاهِلِينَ) أى وإخوان الجاهلين ، وهم الشياطين ، يمدون الجاهلين في الغنى .

قال الزخشرى : والأول أوجه ، لأن (إخوانهم) في مقابلة (الَّذِينَ اتَّقَوْا) .

ثم بين تعالى ، من أنواع إغوائهم ، لجأهم في طلب آيات معينة ، وتعنهم في اقتراحها ، مع أن لديهم المعجزة العظمى ، والخرقة الكبرى ، وهى القرآن الكريم ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٣] (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِئَتْهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ

مِنْ رَبِّي ، هَذَا بَصَآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ » أى مما اقترحوه « قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِئَتْهَا » أى هلا نكلمتها

وأنشأتها من عندك « قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ مِنْ رَبِّي » أى فليست بمفعل للآيات ،

ولا أتقدم إليه تعالى في شيء منها . ثم أرشدهم تعالى إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ،

وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبيئات ، فقال سبحانه « هَذَا » أى القرآن « بَصَآئِرُ

مِنْ رَبِّكُمْ » أى بمنزلة البصائر للقلوب ، بها يبصر الحق ، ويدرك الصواب . فالكلام

على طريقة التشبيه البليغ . أو سبب البصائر ، فهو مجاز مرسل . أو استعارة لإرشاده .

أو المعنى : حجج بيّنة ، وبراهين نيرة . وإنما جمع خبر المفرد لاشتماله على آيات وسور ،

جمل كل منها بصيرة . والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم - لتأكيد وجوب

الإيمان بها « وَهُدًى » أى من الضلالة « وَرَحْمَةً » أى من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »
أى به ، فيتفكرون فى حقائقه .

تنبيه :

قال الجسمي : تدل الآية أنه تعالى ينزل الآيات بحسب المصلحة ، لا بحسب اقتراحهم ،
لأن ذلك قد يكون فساداً . ويدل قوله : (هَذَا بَصَائِرُ) أن المعارف مكتسبة . وتدل أن
جميع ما يقوله الرسول ويفعله من الشرع من وحيه ، لذلك قال : (أَتَبِعُ مَا يُوحَىٰ آتِيًا) ،
ومتى قيل : هل تدل الآية على أنه لا يجتهد ولا يقيس ؟ قلنا : لا ! لأن القياس والاجتهاد
إذا كان متعبداً به ، فاتباعه اتباع الوحي . كالعالم يقبل من المفتي ، والعالم يجتهد ،
ويتبع الوحي ، كذلك هذا . والذي يدل عليه أن النبي ﷺ لا يفعل شيئاً من تلقاء نفسه
حتى يؤمر به - انتهى كلامه - وفى إطلاقه تفصيل له موضع آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٤] (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لِمَا كُنْتُمْ تُرْمَحُونَ)

« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » أى عن حديث النفس وغيره
« لِمَا كُنْتُمْ تُرْمَحُونَ » لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أرشد إلى
طريق الفوز بما انطوى عليه من منافع الجليلة . أى وإذا قرئ القرآن الذى ذكرت
خصائصه ، فاستمعوا له ، أى أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه ، وتدبروا مواعظه ،
وأنصتوا لقراءته حتى تنقضى ، إعظاماً له واحتراماً ، لكي تفوزوا بالرحمة التى هى أعظم ثمراته ،
لا كما يعتمد كفار قريش من قولهم (لَا تَسْمَعُوا لَهُذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوُّ فِيهِ)^(١) .

(١) [٤١ / فصلت / ٢٦] .

تلميحات :

الأول - ظاهر الآية يقتضى وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها ، وعليه أهل الظاهر ، وهو قول الحسن البصرى وأبى مسلم الأصفهاني . وقد روى مسلم^(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا . وكذا رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة . وروى الإمام أحمد^(٢) وأهل السنن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : هل قرأ أحد منكم معى آتقاً ؟ قال رجل : نعم . يا رسول الله . قال : إني أقول : ما لى أنازع القرآن ؟ قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ .

قال الترمذى^(٣) : هذا حديث حسن . وصححه أبو حاتم الرازى . نعم وردت السنة الصحيحة باستثناء الفاتحة وحدها للمأموم . وذلك فيما رواه عبادة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ، فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف قال : إني أراكم تقرأون وراء إمامكم ؟ قال : قلنا : يا رسول الله ! إى والله . قال : لاتفعلوا إلا بأمر القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لا يقرأ بها . رواه أبو داود^(٤) والترمذى^(٥) - وفى لفظ : فلا تقرأوا بشيء من القرآن إذا جهرت

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٧٧ - ٨١ عن أنس وعن عائشة و٨٦ عن أبى هريرة (طبعتنا) أما حديث أبى موسى فلم أهتد إليه . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٢٦٨ (طبعة المعارف) . (٣) أخرجه الترمذى فى : ٢ - كتاب الصلاة ، ١١٦ - باب ما جاء فى ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر بالقراءة . (٤) أخرجه أبو داود فى : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٣١ - باب القراءة فى الفجر ، حديث ٨٢٣ . (٥) أخرجه الترمذى فى : ٢ - كتاب الصلاة ، ٦٩ - باب لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب .

به ، إلا بأمر القرآن - رواه أبو داود والنسائي ، والدارقطني وقال : رواه كلهم ثقات .
وأخرج ابن حبان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : أتقربون في صلاتكم خلف الإمام ، والإمام يقرأ ؟ فلا تفعلوا ، وليقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب في نفسه .
وأما حديث أبي هريرة المتقدم ، فلا يستدل به على عدم قراءة المأموم مطلقاً ، بل جهرراً .
لأن المنازعة إنما تكون مع جهر المأموم ، لا مع إسراؤه . ولو سلم دخول ذلك في المنازعة لكان الاستفهام الإنكارى فيه عاماً لجميع القرآن ، أو مطلقاً في جميعه . وحديث عبادة خاص أو مقيد ، ولا تعارض بين عام وخاص ، أو مطلق ومقيد ، لا ابتناء الأول على الثاني .
وكذا يقال في عموم الآية . وفي هذا جمع بين دلالة الكتاب ، وصحيح السنة ، إذ جاءنا بها من جاء بالقرآن .

الثاني - روى عن كثير من السلف أن الآية نزلت في الصلاة . وعن بعضهم : فيها وفي الخطبة يوم الجمعة . وعن بعضهم : فيهما وفي خطبة الأضحى والفطر . وقد قدمنا في مقدمة الكتاب مصطلح السلف في قولهم (نزلت هذه الآية في كذا) وبيننا أنه قد يراد بذلك ، أن الآية تشمل ذلك الشيء لدخوله في عمومها ، لا أنه سبب لنزولها ، وذلك في بعض المقامات ، وما هنا منه . وبتحقيق هذا يسقط ما للرازي هنا من أنه إذا قيل بنزولها في منع المأموم من الجهر بالقراءة ، يذهب تناسب الآية مع ما قبلها من إتمام المشركون ، بأن يستمعوا لقراءته ، ليقفوا على إعجازه . وما للخازن ؛ بأن الآية مكية ، وخطبة الجمعة والعيدين شرعنا بالمدينة - فافهمه - .

الثالث - روى الإمام أحمد ^(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة . قال ابن كثير تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى .
وقوله تعالى :

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٤١ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٥] (وَأَذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)

« وَأَذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ » خطاب للنبي ﷺ ، والمراد عام . أو المعنى : واذكر ربك أيها الإنسان . والأول أظهر ، لأن ما خوطب به النبي ﷺ ولم يكن من خصائصه ، فإنه مشروع لأمته . وقد أوضح هذا آية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)^(١) . والأمر بالذكر ، قال الزمخشري : هو عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك . وقال بعض الزيدية : هذا الأمر يحتمل الوجوب ، إن فسر الذكر بالصلاة ، وإن أريد الدعاء أو الذكر باللسان ، فهو محمول على الاستحباب . قال : وبكلٍ فسرت الآية .

ثم إنه تعالى ذكر آداباً لذكره :

الأول - أن يكون في نفسه ، لأن الإخفا . أدخل في الإخلاص ، وأقرب إلى الإجابة ، وأبعد من الرياء .

الثاني - أن يكون على سبيل التضرع ، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير ، ليمتحق بذلة العبودية لعزة الربوبية .

الثالث - أن يكون على وجه الخيفة أى الخوف والخشية من سلطان الربوبية ، وعظمة الألوهية ، من المؤاخذة على التقصير في العمل ، لتخشع النفس ، ويخضع القلب .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤١ و ٤٢] .

الرابع - أن يكون دون الجهر ، لأنه أقرب إلى حسن التفكير . قال ابن كثير : فلهذا يستحب أن لا يكون الذكر نداءً ولا جهرًا بليغًا . وفي الصحيحين^(١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار ، فقال لهم النبي ﷺ : يا أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا . إن الذين تدعونهم سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته . قال الإمام : المراد أن يقع الذكر متوسطاً بين الجهر والخفا ، كما قال تعالى : (وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)^(٢) .

الخامس - أن يكون باللسان لا بالقلب وحده ، وهو مستفاد من قوله (وَدُونَ الْجَهْرِ) لأن معناه : ومتكلمًا كلاماً دون الجهر ، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة معطوفاً على (تَضَرَّعًا) ، أو هو معطوف على (فِي نَفْسِكَ) . أي اذكره ذكراً في نفسك ، وذكراً بلسانك دون الجهر .

السادس - أن يكون بالغدو والآصال ، أي في البكرة والعشي . فتدل الآية على مزية هذين الوقتين ، لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد . وما بينهما ، الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش . وقد روى : أن عمل العبد يصعد أول النهار وآخره ، فطلب الذكر فيهما ، ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر .

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله « وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ » أي من الذين يغفلون عن ذكر الله ، ويلهون عنه ، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى ، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه ، بقدر الطاقة البشرية .

(١) أخرجه في البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٣١ - باب ما يكره من رفع الصوت بالتسكيب ، حديث ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤-٤٧ (طبعتهما) . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

ثم ذكر تعالى ما يقوى دواعى الذكر، وينهض الهمم إليه، بمدح الملائكة الذين يسبحون الليل النهار ، لا يفترون ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٦] (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ

سُجْدَةٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ » يعنى الملائكة الذين هم فى أعلى مقامات القرب « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ » أى لا يتعظمون عنها . وقوله « وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ » يُسَبِّحُونَهُ أى فينبغى أن يقتدى بهم فيما ذكر عنهم ، ففيه حث و لطف مرغب فى ذلك . لأنه إذا كان أولئك - وهم ما هم فى قرب المنزلة والعصمة - حالهم فى عبادته تعالى وتسبيحه ما ذكر ، فكيف ينبغى أن يكون غيرهم .

تنبيهات

الأول - قال الرازى : تمسك أبو بكر الأصم بهذه الآية فى تفضيل الملائكة على البشر قال : لأنه تعالى لما أمر رسوله بالعبادة والذكر قال : (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ...) الآية - أى فأنت أولى وأحق بالعبادة ، والمسألة مستوفاة فى كتب الكلام . واستنبط من قال بالتفضيل المذكور من الآية ؛ أنه ينبغى للعبد أن ينظر إلى من فوقه فى طاعة الله تعالى .

الثانى - قال الرازى : المشبهة تمسكوا بقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ...) وقالوا : لفظ (عِنْدَ) مشعر بالجهة . ثم أجاب بما هو معروف للخلف . ويعنى ، ساعه الله ، بالمشبهة الحنابلة ، وهم براء من التشبيه ، كما يعلمه من طالع عقائدهم ، واقفون على حد النصوص بلا تشبيه ولا تعطيل ، ولم ينفردوا بذلك ، فقد تقدمهم من لا يحصى فى هذه المسألة . راجع كتاب (العلو للذهبي) تعلم ما ذكرنا .

الثالث - قال الجشمي : تدل الآية على كون الملائكة مكلفين . وتدل على أنهم سجدوا لله . وآدم كان قبلة السجود ، لأنه وصفهم بأنهم يسجدون له .

الرابع - هذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتأليها ومستمعها السجود بالإجماع . وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه^(١) عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ، أنه عدها في سجدة القرآن .

وروى الشيخان^(٢) عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن ، فيقرأ سورة فيها سجدة ، فيسجد ونسجد معه ، حتى ما يجد بمضنا موضعا لمكان جبهته ، في غير وقت صلاة .

وروى مسلم^(٣) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويلتا ! أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت ، فلي النار .

وروى مسلم^(٤) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ فقال : عليك بكثرة السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة .

الخامس - السجدة المشروعة ، إن كانت لآية ، أمر فيها بالسجود فلأمر ، أو حكي فيها

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب عدد سجود القرآن ، حديث رقم ١٠٥٦ (طبعمتنا) . (٢) أخرجه البخاري في : ١٧ - كتاب سجود القرآن : ٨ - باب من سجد لسجود القاري ، حديث رقم ٥٩٢ .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٥ (طبعمتنا) . (٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٣٣ (طبعمتنا) . (٤) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٢٢٥ (طبعمتنا) .

استغنى عن الكفرة عنه ، فلمخالفتهم وإرغامهم ، أو حكي فيها سجود الأنبياء أو الملائكة ، فملتأسى بهم - كذا في (العناية) .

وهذا آخر ما تيسر تعليقه على سورة الأعراف ، فله الحمد على هذا التسهيل والإسعاف . ونسأله بمنه وكرمه العون على الإتمام ، فإنه ذو الجلال والإكرام .

وكان الفراغ من ذلك طلوع الشمس من يوم الثلاثاء ، في ٢٦ رمضان المبارك سنة ١٣٢٩ بشباك السدة العليا اليمنى من جامع السنانية . على يد الفقير جمال الدين القاسمي غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين ، ورحمه وإياهم إنه أرحم الراحمين .

تم الجزء السابع

ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الثامن

ويحتوى على تفسير سورتي الأنفال والتوبة

تنبيه :

كانت النية معقودة على إخراج (التفسير) على حسب تجزئة المؤلف . لكننا لما رأينا أن حجوم الأجزاء غير متساوية ، ولتيسير الحصول عليها ، قررنا إخراج الأجزاء الباقية ، ابتداء من هذا الجزء ، في حجم الأجزاء الأربعة الأولى . والله الموفق والمستعان .